توفيق باميدا

شهريار

يحكي ويقصّ

رواية

دار الأمان

التنوير

الكتاب: شهريار يحكي ويقصّ (رواية)
تأليف: توفيق باميدا
عدد الصفحات: 288 صفحة
الترقيم الدولي: 978-9954-701-57-7
رقم الإيداع: 20187MO0379
الطبعة الأولى: 2018
جميع الحقوق محفوظة © 2018

الناشران

دار الأمان للطباعة والنشر
المملكة المغربية: الرباط - زنقة المامونية
هاتف: 00212537723276
بريد إلكتروني: libdaralamane@yahoo.fr

دار التنوير للطباعة والنشر
مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

توفيق باميدا

شهريار
يحكي ويقصّ

رواية

إِهْـدَاء

«إلى... توأم روحي، ابتسام
وقرّة عيني، فراس»

هذه الرواية من نسج الخيال...

فأيّ تشابه بين شخصيّاتها وأحداثها مع أشخاص وأحداث من الواقع، هو محض صدفة.

حكاية نبيل

(1)

شهريار يحكي...

تردّدت طويلا قبل أن أطلب من أخي محمّد أن ألقي نظرة على الغرفة. بدا له طلبا غريبا. لكنّه ابتسم بدهاء، وكأنه يقول لي: «تلك غرفتك! فلماذا تستأذن للدخول إليها؟»، بينما كانت ملامح زوجته تنقبض في صمت مندهش. بعد الابتسامة انتظرت قليلا قبل أن يصلني صوته:

- تصرّف وكأنك في بيتك!

حتى لباقته هذه في الردّ بدت غريبة بيننا، فأنا لم يسبق أن سمعت منه عبارة مرحّبة كهذه طوال الشهور العديدة التي قضيتها هنا معه. قلت مع نفسي وأنا أتقدّم بحذر نحو باب الغرفة الموارب: «الأشياء تتغير، الحياة تتغير، بعد الزواج مثلا أمور كثيرة تتغيّر، يكفي أن ترتبط بامرأة لتجد نفسك قد رحت تتغيّر. لو لم يكن محمد قد تزوج بعد ما كان ليقول ذلك، بل ما كنت أنا لأستأذنه في إلقاء نظرة على غرفتي، أقصد تلك التي كانت غرفتي...».

تمضي السنين تبعثر أوراق أشجار حياتنا الذابلة، فننسى أشياء كثيرة، ونحنّ لأخرى، ونتوقّف في لحظات تأمّل عابرة، ثمّ نغري أنفسنا

باستئناف المسير. لقد شعرت بذلك وأنا محاط بهالة عجيبة شدّتني نحو ذلك الصندوق الإسمنتي الذي يسكنني مثلما سكنته أنا ذات يوم.

كان شوق عنيف يجذبني نحو المكان، لم أعد أفكّر في أخي، أو فيما تفكّر فيه زوجته الآن. كان يكفيني أن أدفع باب الغرفة فقط ليندفع نحوي إعصار من الذكريات سرعان ما غلّف الوجود من حولي: غبار وقصاصات أوراق، وصور قديمة، وأفرشة، وأكواب شاي انبعث مذاقها الحلو على لساني... هل عدت الآن إلى ذلك الزمن، أم أنه هو الذي انبعث من جديد؟ شهور قليلة، إذا ما قورنت بالعمر الذي انصرف، لكنّها كانت حاسمة في تقرير مصير مستقبلي، أنا الذي غادرت ذات غبش بعيد قريتنا حاملا حقيبة سوداء قديمة ومحمّلا بأحلام طفولية لذيذة، لأرجع بعد سنين، ذات ظهيرة قائظة، أجترّ خيبة ثقيلة ونفس الحقيبة.

ظلّت أمّي إلى جانبي في تلك الليلة البيضاء توظّب ملابسي داخل الحقيبة. لم يغمض لها جفن ما دامت جفوني أنا تنتصب أمامها وأمام النوم في عصيان. كانت تتكلّم كثيرا، وأنا من شدّة ترقّبي لموعد الانطلاق لم أكن أعي ما تقول، خصوصا أن صوتها الخافت كان يختلط بصدى خفقان قلبي المتحمس لكلّ ما هو آت. أظنّها كانت تبثّني وصاياها، وصايا الأمهات، وتستمرّ في تكرارها بنفَس واحد طويل. رغم حماستها هذه، بدت حزينة. رأيت ذلك في عينيها، اللتين كانتا تفرّان من نظراتي بمواصلة توجيههما نحو الأسفل، حيث تكوّمت ملابسي في انتظار دورها في الطيّ ومن ثمَّ وضعها داخل الحقيبة.

لم أكن أريد أن أرى دموعها، في تلك الليلة بالذات. لم أرد أن تتحوّل الساعات التي تسبق فجر الخطو نحو المستقبل إلى لحظات من لوعة الفراق والألم، لا أريد أن يطاردني حنينها طيلة أيام غيابي القادمة. أردت أن أكون مثلما قال لي أخي محمد ذات مرة: «...رجلا لا ينظر إلى الخلف، لأن الخلف يمتلك حبالا ما إن تحرّكها حتّى تلتفّ من حول رقبتك، فتعيقك عن التقدم إلى الأمام...!».

– أمّي، هي بضعة أسابيع وأرجع.

قلتها لها حين انتبهت إلى توالي تنهيداتها الطويلة، فردّت مغيّرة مجرى كلامي:

– أريد أن أفتخر بك يا بنيّ. احذ حذو أخيك محمّد. انظر كيف يحترمه الناس ويحسبون له ألف حساب. لقد رفع رأسي بين النساء. انتبه جيّدا إلى دراستك، ولا تجعل اللهو يشغلك عنها. هل تسمعني؟ واحذر أن تنجرف خلف البنات، احذر منهن جدّا، إن دوّخت رأسك إحداهن فقل لمستقبلك سلام...

عادت أمّي إلى نصائحها المتكرّرة، وعدت أنا لأغرق في ضباب اللحظة.

وقف أبي يفرك عينيه عند مدخل الغرفة، فعرفت أن الوقت قد حلّ. انتفضت أمّي نحو المطبخ تملأ القفة بما رأته مناسبا من أطعمة وألبان وفطائر لرحلتي الطويلة هذه، حسب تقديرها.

عند مدخل القرية، كانت الشاحنة الميتسوبيشي البيضاء في الانتظار. جلست بجانب السائق ومرافقه، بينما أصوات خوار وغثاء ترتفع من الصندوق خلفنا. أطللت من النافذة، فكان أبي يقف قريبا ناظرا إليّ. لأوّل مرة سأعرف نظرته هذه. نظرة غريبة. نظرة ستلاحقني لمدّة طويلة. نظرة تحمل كلّ المعاني، وتتكلّم بكلّ الكلام. هو لم يقل شيئا عندما قبّلت رأسه وصعدت الشاحنة، لكنّ نظرته تلك قالت كلّ شيء.

اخترقت الشاحنة ظلام الطريق، وبدّد صوت محرّكها أصوات الحيوانات في الخلف، والتي لن تفيد استغاثاتها مهما علت في تغيير مصيرها، والذي رأيته مشابها لمصيري في ذلك الصباح العميق: فراق الأهل، وإن كان بالنسبة لي أنا هو فقط إلى حين.

كان الظلام ساطيا على جنبات الطريق، اختفت الغابة خلف عتمة أشجارها، وغرق الأفق البعيد في ظلام رهيب، واندثرت الظلال القريبة

خلف بعضها تسابق نظراتي المتحفّزة، فقط، الطريق التي اخترقها ضوء الشاحنة هي ما كان مرئيا وسط السواد الثقيل. راح مرافقاي يخوضان في حديث بطيء. كانت كلماتهما تتبدّد مع ضجيج المحرك قبل أن تبلغا أذنيّ، فلم ألتقط غير حروف متقطّعة وأنصاف كلمات، ثم بدا صوتاهما وكأنّهما قادمان من مكان بعيد وأنا أميل برأسي إلى الخلف في محاولة منّي للإغفاء.

غفوت للحظات. ثم فتحت جفوني المتثاقلة أستطلع الأفق البعيد. كان هناك نور خافت يتمدّد عبر الأرجاء في خجل. عندها تذكّرت أمي، وفكّرت: لعلها الآن تحلب البقرة، وتلملم دموعها.

حكاية نبيل

(2)

شهريار يحكي...

في البداية تكون الحكاية، وفي النهاية أيضا. هذا ما صرت أؤمن به. وبرأسي حكايات كثيرة، خلفها تتوارى تلك التي أسميها حكايتي.

خمس سنوات تلك التي أمضيتها بهذا المحلّ، بهذا الحيّ، بهذه المدينة. خمس سنوات قضيتها مع هؤلاء الناس، مع هذه الحرفة، في هذا العالم الاستثنائي الذي جعلني أعيش بحكايات الناس وأنسى حكايتي، حتّى ظننتني شهريار زمانه، الذي يتلذّذ بسماع الحكايات قبل أن يضرب بمقصّه آخر شعرة زائدة على رؤوس زبائنه. حكايات صارت تجري جريان الدّم في شراييني، تعمر ذاكرتي، وتثير خيالي. حكايات توقظ فيك شغف الطفولة في تتبّع تفاصيل حكايات الجدّات، حين تنتصب الأذنان في انتباه، ويَسيل الفضول لعابا لا يجفّ إلا بطرح سؤال جديد قد يزيل بعض الغموض عن شيء مثير للاهتمام.

كم كانت ستتحمّل ذاكرتي من تخزين مئات القصص التي تُروى على مسامعي كلّ يوم دون أن يطالها نسيان أو يشوبها تشويه؟ هل كانت قادرة أن تستوعب كلّ هذا الزخم المتشابك بخيوط حكايات تضاربت رواياتها،

وتقاطعت مع خيوط بعضها البعض حتى أضحت كبيت عنكبوت هائل لا يتوقف عن التوسع والامتداد؟ بدا الأمر صعب التحقيق، وقد باتت تفاصيل الحكايات تنفلت منّي كما ينسلّ خيط صوف من ثوبه الرديء. اختلطت أسماء الشخوص عليّ وتشابهت، وتعدّدت أسماء الأمكنة، وتداخلت تواريخ الأزمنة... أي ذاكرة يجب أن يحوزها المرء حتى يكون قادرا على إنشاء ما يلزمه من سدود كفيلة بالصمود أمام كلّ هذه السيول المتدفّقة بلا هوادة أو نظام؟

في البدء، سرعان ما تراجعت عن التفكير في حلّ المسألة، وقد بدا لي اهتمامي الغريب هذا بحكايات الناس ضربا من الجنون وقلّة شغل، فملت إلى أن أصنع كما يفعل كثير من الناس، أسمع باهتمام واستمتاع لما يرويه هذا الزبون أو ذاك ثم أمسح ذلك من ذاكرتي ما إن يضع زبوني قدميه خارج باب المحلّ، أخفّف عن رأسي من زخم ما يلجه من أشياء وما يشغله من أفكار، وفي نفس الوقت لا أعترض على ثرثرة زبائني واسترسالهم الفظيع في الحكي. وكما قال لي أخي:

– أنت من عوّدتهم على ذلك، فلو أنّك لم تكن تجاريهم في الكلام لما وجدتهم يطلقون ألسنتهم في رواية الأخبار التي لا علاقة لك بها على الإطلاق.

أخي معه حقّ. بل إنّ عدوى الحكي في الصالون راحت تنتقل من زبون إلى آخر، وصارت القصة الواحدة تثير أكثر من لسان للحديث عنها في نفس الوقت، وهذا ما جعل صالوني يتحوّل ممّا لا غبار عليه إلى شيء أشبه بمقهى أدبي متخصّص في الحكايات الشفهية المتميزة عن غيرها من حكايات، كونها واقعيّة الوجود والحدوث.

وبينما أنا بصدد تطبيق خطّة المسح الفوري، فوجئت بذاكرتي وقد أبت الانصياع، تنفلت من سلطتي كحصان جامح أبى أن ينزل عند رغبة مروّضه بالإذعان أو الاستسلام، فخيوط الحكايات ظلّت عالقة بجدار ما

بها، وما تنفكّ تلك الخيوط تطفو في أحيان كثيرة على السطح ساحبة معها ما ارتبط بها من خيوط أخر، فينتفض كلّ ذلك في رأسي كعاصفة بحرية تقذف أمواجها بسفينتي، فأجدني تائها لوقت غير محسوس عبر التفاصيل التي ظننتني قد تخلّصت من براثنها، وسلكت من شباكها. رافقني الأمر طويلا، وقد أضحيت كمن يصبّ الماء على رمل ساخن في مواجهة ذاكرة ترفض الخضوع، فلم يعد من سبيل معها في النهاية غير تركها تؤدّي وظيفتها الطبيعية دون أي تدخل سافر منّي أو تشويش.

حكاية سمير

(1)

شهريار يحكي...

العشق يحلّ بصالوني، دافئا، نقيّا، عطريّا، كحكايات من ألف ليلة وليلة، وقت السمر، في ليالي الشتاء الباردة، ووقت السهر، مع عبير ليالي الصيف الطويلة.

أعيش العشق مرّة أخرى، وكأني أقرأ رواية، أو أتابع فيلما رومانسيا، أو أنصت لقصيدة. تصلني أنفاسه، وتبلغني خفقاته، وتلمع في سمائي نجماته، فيُضحي الصالون بهوا من قصر فارسي عتيق، حين يتكلّم... يحكي... يعبّر... زبون فوق كرسيّ الحلاقة، عمّا أصابه من هذه الفتاة أو تلك المرأة. قصص وأخبار وحكايات تحلّق في جوّ صالوني كالفراشات، دون أن تشعرني بالملل، أو تُحدث بنفسي ضيقا.

أمّا حكاية سمير، فقد كان لها عليّ وقع مغاير تماما... ليس لاختلاف بدايتها، أو نهايتها، أو حتّى تفاصيلها عن شبيهاتها من حكايات عشق سبق وسمعت بها، وليس لكوني قد عاينت تطوّراتها لحظة بلحظة، فسمير لم يكن يفته أن يبلغني بجديد تقدّماتها وتقلّباتها، وإنّما الأمر كذلك لكوني قد تدخّلت فعليّا، وبشكل بالغ التأثير، في مجرى تدفّقها، وأحدثت بمسارها منعطفا فظيعا، حتّى أضحيت شخصيّة من شخوصها.

ورشة النجارة الصغيرة التي يمتلكها المعلّم إبراهيم الوجدي، المتواجدة بزنقة «صفاقس» في جزئها الذي يربط المسجد المحمدي بمدرسة بدر الابتدائية بحيّ المغرب العربي، بتمارة ضواحي الرباط، وقبل أكثر من ثلاثة أشهر من اليوم، شهدت تفتّح أولى الزهرات بوجدان سمير، معلنة حلول ربيع العشق الذي لم يكن يضرب له حسبانا، ولا يتوقّع له حلولا في ذلك الوقت على الأقلّ.

مساء ذلك اليوم، بينما كان سمير منكبّا على الأعمدة الخشبية التي طلب منه المعلم إبراهيم أن ينشرها بشكل متساو، دون أن يفوته في ذلك مليمتر زائد أو ناقص، حلّت عائلة المصلوحي، يتقدّمها الأب، قاسم المصلوحي، تتبعه زوجته وابنتهما، قصد اختيار شكل «سدادير» (السداري يشبه الكنبة) لصالونهم، من بين الخيارات العديدة المتوفّرة بألبومات الصور، والتي يحرص المعلم إبراهيم على التقاطها بكاميراه الخاصة حتى لا يفوته أدنى تفصيل.

دخل الأب أوّلا، ثم زوجته، فحجبت حركتهما تلك الضوء المتسلّل عبر باب الورشة إلى داخلها، حيث سمير يقف في الزاوية يدقّق النظر إلى «المترو» (أداة قياس الطول)، محاولا إنهاء عمله في أقرب وقت ممكن، حتى يتسنّى له الانصراف باكرا للحاق بصافرة بداية مباراة فريقه المفضّل برشلونة ضمن مباريات دوري أبطال أوربا، والتي سيشاهدها كالعادة مع أصحابه بالمقهى. عندها، رفع سمير رأسه معاتبا الظلال التي تسبّبت في التقليل من كميّة الضوء الداخلة، والتي صعّبت عليه التدقيق في خطوط المليمترات الرفيعة، بيد أنّ نظراته المستنجدة اصطدمت بوجه ظلّ ثالث، وجه أنار كلّ الزوايا المظلمة من حوله، عندما خطت الفتاة عبر الباب لاحقة بوالديها.

خفق قلب سمير. تدفّق الدم ساخنا عبر عروقه. ثم نظر كأبله إلى عينيها، اللتين تشبهان الشمس كما يرسمها الصغار على أوراقهم، دائرية، تتفرّع منها خطوط مائلة، ثمّ نظرت هي، بعد أن نسي هو الرجوع إلى

أعمدته الخشبية، بعينيها اللتان تشبهان شمس الصغار إلى عينيه الجادّتين، التقت نظراتهما لوهلة جعلت سمير يشعر بزهرة أوّل الربيع تتفتّح بقلبه.

ابنة المصلوحي، هي من جعلت سمير الذي عرفته يصير سميرا آخر. سمير الأول الذي عرفته كان جلّ حديثه ينتقل بين كرة القدم والنجارة، وقلّما يخوض في مواضيع بعيدة عنهما. النجارة هي حياته، قوت يومه، وحاضره الذي يبني على أساسه كلّ أحلامه وطموحاته. وكرة القدم هي عشقه، متجسّدا في نادي برشلونة محبوبته، التي يتغزّل بها، ويتباهى بمفاتنها وسحرها، معترفا أنها غاوية قد اصطادته على حين غرّة.

سمير الأوّل، لهجته شديدة متحمّسة، ونظرته للعالم واقعية، مبنيّة على حسابات كالتي يجريها بالمليمتر في ورشة المعلّم إبراهيم الوجدي. وتيرة حياته رتيبة، دون أن يحسّ خلالها بملل أو رغبة في تعديل اتجاه بوصلتها. وقته مقسّم بعناية، لذلك فمواعيده نادرا ما يصيبها خلل، والسبب هو صرامة المعلّم الوجدي، وأنّ ساعته مضبوطة بعناية مع جدول مباريات برشلونة. أمّا سمير الثاني، فالنجارة بالنسبة إليه لا تتعدّى كونها العمل الذي يمضي فيه جلّ ساعات يومه مكبّلا بصرامة المعلّم إبراهيم المرضية، وأحاديثه السخيفة عن حاجيات الأبناء ومشاكله مع أنسابه. لقد أضحى عالم الورشة الذي كان في السابق عالما رحبا كأسر رطب يحول بينه وبين الإقبال على حياته الجديدة. وصارت برشلونة مجرّد وسيلة ترفيه وتغيير جوّ، يتابع مبارياتها بأعصاب باردة، ويتقبّل انتقادات الخصوم بردود هادئة.

اليوم أجد في لهجة سمير رقّة غير معهودة، وفي كلامه خيالا وأحلاما. يحكي بعينين برّاقتين، ونفس حارق طويل، تتخلّله آهات وزفرات. لا يملّ من أن يقضي أكثر من الساعتين جالسا بصالوني، يترصّد الفترات التي يخلو فيها المكان من الزبائن ليستأنف جرّ حبل حديثه الطويل. ليس عن برشلونة، وإنّما، عن الفتاة ذات العينين الشمسيتين.

حكاية عبد الإله المنصوري ونادية

(1)

نادية تحكي...

معه اقترفت أولى خطيئاتي. ومن بعده عانقت البغاء، فغاصت قدماي في أوحاله حتى القاع، وانزلقت روحي في منحدرات عالمه القذر. مرّت السنين سريعا... ووجدتني بعد كلّ هذا الوقت لم أجن من هذا العبث غير ضياع جديد.

هل أنا نادمة؟ وهل الندم وحده كاف لإصلاح ما فات وكفيل بترميم روحي المتصدّعة؟ هل حين سأقوم من هذا السرير سأكون قادرة على بدء حياة جديدة بعيدا عن سبل الحرام ومن دونه هو، رغم حبّه الذي عاد للاشتعال بفتيل قلبي؟ وهل سيقبل هو بالزواج من بغيّ أمضت زهاء العشر سنوات تتقافز بين أحضان أسافل الرجال وأوسخهم؟ هل أكون واهمة إن طمعت في الزواج منه؟ وهو، أليس بغيّا هو كذلك؟ هههه أجل أضحك، فهذه الكلمة لا تقال ربما للرجال. إذن فلأقل عاهر؟ ذاعر؟ حسنا، فليكن زان. أجل، هو زان. ونحن، أنا وهو نشترك في هذه الصفة الدنيئة. لكنّني أعشقه. وهو قال لي عند لقائنا ذاك أن قلبه عاد للخفقان بعد ركود دام لسنين. سنخرج أنا وهو من هذا المستشفى متزوّجين، ونترك حتما كلّ

شيء خلف ظهورنا. أجل، أعلم أنّه ممدّد هو الآخر فوق سرير ما في حجرة ما في نفس هذا المبنى. لقد أخبروني بذلك حين سألتهم عنه. وما إن يُسمح لي بمغادرة السرير حتى أذهب للبحث عن مكانه والاطمئنان أكثر عليه.

أووووه. أتذكّر أيام الدراسة التي جمعتنا، وساعات العشق المتبادل التي عشناها، وكيف استدرجني لأوّل مرة إلى تلك الغرفة المظلمة ذات المصباح الباهت. ثم استدرجني بعد ذلك إليها مرّات ومرّات حتى صرت أجيد السير إليها، بل والسير به إليها.

قبل ذلك، كان لا يفوته أن يهمس في أذني كلّ يوم أنّه يحبّني، وما إن يحصل على الإجازة حتى يتقدّم لخطبتي. أردّ عليه بأنّه يجب عليه العمل إن أراد خطبتي. فيطمئنني أن أباه سيتدبّر له أمر العمل ما إن يحصل هو على الإجازة. ثم مدّ يده ولمس يدي. لم أقم بردّة الفعل الواجبة، فقد كنت أراني أزفّ له وأنا ألوّح بيدي من فوق «العمّاريّة» في كامل زينة، وأجمل حلّة. تشجّع أكثر فأخذ يدي بين يديه. شعرت بالأمان تجاهه فواصلت استسلامي له. إنّها مجرّد لمسة. هكذا فكّرت يومئذ. لكنّي اليوم أراها قد كانت حافة سقوطي في الهاوية. أجل، إنّها كذلك. وسأجادل في ذلك أيّ امرأة أو فتاة غبيّة ترى العكس. فالتي تسمح أن تلامس يدها يد رجل وفق ذلك الشكل فهي قد أحلّت جسدها له مقابل وعد مؤجّل. وإن لم تكن فعلت ذلك بمقابل فهي تكون قد فعلته بالمجّان. ستقول لي غبيّة: أنا فعلته ليس بغاء وإنّما حبّا، والحبّ مشاعر سامية، فلا بأس بذلك إذن. أقول لها: ترّهات، وكلام أفلام ساذجة. ماذا تملك الفتاة غير شرفها؟ وحافة الشرف هي اللمسة. أووووه، لقد عرفت ذلك الآن. فهل أنا نادمة؟ وماذا ينفع الآن هذا الندم؟ مهما يكن، فأنا أعشقه، وما رجوعه إليّ بعد كلّ هذه السنوات إلّا دليل جازم على استمرار عشقه لي، وأنّنا حتما سيجمعنا القدر على صفحة عقد زواج شرعي.

أحسّ أن قدمي لم تعد جزءا منّي، وكأنّها مشلولة أو محقونة ببنج عالي التركيز. أخبرتني الممرضة أنّها ستظلّ محشورة في الحديد حتى تلتئم عظامها المهشّمة. لكن ماذا عنه؟ ما مدى شدّة إصابته؟ هل سنغادر هذا المستشفى اللعين في نفس اليوم أم سيسبق أحدنا الآخر؟ يا ليتني أستطيع المشي حيث هو ثم إلقاء نظرة عليه. أووه، لكم وجدت نفسي الضائعة ما إن رأيته ذلك اليوم. وقد أقسمت لنفسي حين أخذني بين ذراعيه مجدّدا أن أعتزل كلّ الرجال بعده. ثم همست له أنّي لم أحبّ أحدا سواه. وهل للبغيّ أن تحبّ؟ هل يمكن لامرأة تبيع جسدها للرجال أن تحتفظ بذلك الحقّ؟ الحق في العشق؟ إنّ كلّ شيء يصير ميكانيكيا، خاليا من أي إحساس. تماما كما الحيوان. الرجال يلهثون خلف غرائزهم والبغايا يلهثن خلف جيوب الرجال. هذه هي القاعدة التي يتّفق عليها كلّ بني آدم، إذا ما استثنينا طبعا أولئك النساء اللائي يفعلنه حبّا في البغاء.

هههههه... لكم صار يضحكني التفكير في هذه الأمور، وكأنّي اليوم أراها من زاوية مغايرة تماما لحياتي السابقة. وكأنّي اليوم لم أعد تلك المرأة التي تخرج من بيتها في كلّ وقت تترصّد أن يصطادها أكبر عدد متاح من الرجال، ككلبة. أجل، كلبة، فهكذا ينعتنا الرجال. وأنا الآن أرى كلّ بغيّ ككلبة ضالّة يركض خلفها قطيع من الكلاب اللاهثين وراء شهواتهم المنفلتة في غير نظام أو ضبط. هل حين قابلته شاب تفكيري هذا التغيير، أم أن الأمر مرتبط بوقع الحادثة؟ وهل ما أفكّر فيه الآن هو فعلا ما أعزم القيام به؟ وهل من السهل أن تفعل بغيّ ذلك؟ حسنا، فكيف تعتزل امرأة إذن امتهان البغاء؟ أتعلن ذلك على الملأ؟ أم تخبر زميلاتها في الشغل أنّها لم تعد مثلهن؟ وهو، إن لم يرغب في الزواج منّي فهل سأكون قادرة، وأنا البغيّ، على الامتناع عنه إن هو أراد جسدي مرّة أخرى؟ وإن لم أمتنع، أفلا يعني هذا أني لازلت أواصل بغائي وإن كان معه هو فقط؟ أريد أن أراه، أن أحادثه، وأن أشاركه البحث عن أجوبة لما يحيّر فكري الذي اهتز من يوم

أن عاود القدر جمعي به، ثم أخبره أنّه هو الذي كان السبب في سقوطي في منحدر العهر والضياع، فهل سيكون خلاصي من ذلك على يديه هو؟ هو مجدّدا؟

لدقائق يعمّ صمت رهيب في المستشفى، لا يقطعه سوى وقع خطوات ممرّضة أو عاملة تنظيف تعبر بتثاقل الرواق الطويل الذي تتفرّع عنه غرف الجناح النسوي. أرفع رأسي قليلا عن الوسادة وألقي نظرة يتخلّلها قلق قاتم على قدمي المثبّتة ببراغ وقطع من حديد. أتأمّلها بحسرة، وأتمنّى لو أستطيع النظر إلى روحي المنكسرة، وأتأمّلها، كما أفعل الآن مع قدمي المهشّمة، لعلّي أعثر على ما يمكن ترميمه فيها. فجأة، يحلّ وجه أبي، فيحجب عنّي كلّ ما حولي كجبل عريض شاهق نبت أمامي مباشرة. أحاول تجنّب النظر إليه ما استطعت، لكنه بدا مصرّا على اللحاق بي أينما ولّيت وجهي. أجذب الغطاء فوق رأسي، وأنكمش حول نفسي في سعي يائس لتجنّب النظر في عينيه اللتين تواصل نظراتهما الفتك بي إثر كلّ حلول لهما في خيالي. هكذا عاد للظهور مرّة أخرى، مستغلّا سطوة السكون ليفرض حضوره الثقيل عليّ. فيعود سؤال يحيّرني إلى فرد أجنحته الرمادية فوق رأسي: هل لا زلت أكره أبي؟

أجل، لقد كرهت أبي. كرهت وجهه ونظراته الحادة التي افترست وجهي ذلك اليوم، فجعلت دماءه تنهمر دموعا تروي خدودي، ثم أتبعها بصفعة كوميض برق صعقت إدراكي. كانت أوّل مرة يصفعني فيها وآخر مرّة. تناول الحزام وقد اشتاط غضبا، وهمّ للنيل مني. فقدت الإحساس بما حولي، استندت على الجدار خلفي ثم انزلقت إلى الأرض غائبة عن الوعي.

فتحت عينيّ، فسمعت أمّي تقول:

- لا تخافي، لقد غادر البيت.

من يومها لم يعد أبي يكلّمني. سارعت أنا إلى عبد الإله وأخبرته أنّ

أخي عماد، والذي يصغرني بسنتين، قد علم بشأن علاقتنا فسارع إلى إخبار والدي والذي قد يقتلني، وأنّه قد صار محتّما عليه الآن التقدم لخطبتي حتى تعود الأمور طبيعية. عبد الإله واجه اقتراحي ببرود حين قال لي:

- أنت تعلمين أنّي لا أفكّر في الزواج الآن.

- لكنّك وعدتني.

- وعدتك، لكن ليس الآن.

- وعلاقتنا، كيف نتصرّف فيها؟

- علاقتنا؟ هل ترين الظروف ملائمة؟ أنت حتما سيرغمك أهلك على لزوم البيت، وأنا مضطرّ بعد انكشاف أمرنا للتواري عن الأنظار، فنحن لا نعلم ما قد يقدم عليه أبوك. ربما هو الآن في صدد البحث عنّي للنيل منّي، وقد يتهوّر فيقتلني.

عادت الدموع للسيلان على خدودي، وأنا أرى الشخص الذي فضّلته على أهلي يهمّ بالتخلّي عني في ظرفي الصعب هذا.

- عليك التقدم الآن لخطبتي كما كنت تعدني!

- بل عليّ النجاة بجلدي!

هو نجا بجلده، ولم يعد للظهور مرة أخرى في حياتي. اختفى، كمن بلعته الأرض. وتركني أواجه المصير الجديد بمفردي.

كرهت أبي، كرهت أخي الواشي، كرهت لغيط أمّي، وكرهت صمت أختيّ. كرهت البيت كلّه، وأهلي جميعا. كرهت الحياة والدراسة وحيّنا شديد البؤس والظلام. ثمّ جمعت أغراضي ذات صباح وأعلنت لأمّي أنّي مغادرة.

- إلى أين يا عزيزتي؟

- سأذهب عند إحدى صديقاتي بالحيّ الجامعي.

– هل جننت؟ لن يقبل والدك بذلك.

– رغما عنه سيقبل. وإن شاء فليأت في إثري. أنا لم أعد أتحمّل الهواء المحمّل بالرعب والأسى الذي بتّ أعيش فيه بينكم. أنا لم أعد طفلة صغيرة، سأغادر هذا البيت اللعين وأتدبّر حالي.

– لا لن أدعك تذهبين إلى أيّ مكان أيتها المجنونة.

أخذت أمّي ذراعي بشدة.

– بل دعيني! ألم تري كيف بات يرمقني؟ هل تريدين أن تستيقظي ذات صباح فتجدينني في بركة دماء؟

ارتخت يد أمّي، حين أفلحت في وضعها داخل هذا المشهد الفظيع.

– هل تعتقدين أنّه لن يفعلها؟ قلت لها.

– أبوك رجل طيّب وعاقل يا عزيزتي، لا أظنّه يفعلها.

– بلى! أنا أرى ذلك في عينيه، وأشمّه في أنفاسه. أن تتركيني أفلت بجلدي خير من أن تندمي بعد ذلك وتتحسّري على مقتلي.

ازدادت نظرات أمّي قلقا، ثم تراجعت فاسحة الطريق أمامي، قبل أن تعود لتأخذني في حضنها ودموعها.

في الماضي، وكأيّ بنت، كنت أحبّ أبي، الرجل الطيب البسيط الذي يقفل باب داره، بعد أن يصلّي العشاء بالمسجد الأقرب بحيّ القرية بسلا. والذي لا يهمّه من التلفاز غير مشاهدة نشرة أخبار الثامنة والنصف في طقس يشوبه صمت تام يلتزم به كلّ من يجلس في الصالة إلى جانبه، أو يمرّ قريبا منها. نشرته المفضلة، والتي يتابعها في الصيف، حين يصير وقت صلاة العشاء بعد نشرة الأخبار، في دكّانه المتواجد أسفل الدار عبر التلفاز الصغير الذي يعلّقه في الركن الأيسر من جهة المدخل. نصف ساعة أو أكثر من الأخبار التي لم أكن أفهم منها أنا ولا إخوتي شيئا، يتابعها هو بتركيز كبير لا ينتهي إلا بعد النشرة الجوية. بعدها، يندّه بصوت عال على أمّي:

– حليمة، يا حليمة!

والتي تفهم مغزى النداء، فتسارع إلى تجهيز مائدة العشاء. نضع نحن كلّ ما في أيدينا ثم نلتفّ حولها متحرّرين من قيود الصمت الذي فرضته علينا نشرة أخبار الثامنة والنصف، فنستأنف أحاديثنا حول المائدة، ونطلق ضحكاتنا الخافتة، ونعاتب أمّنا إذا وجدنا في العشاء ما لا يعجبنا، أو غياب طعام ألححنا عليها في تحضيره لنا. بينما يواصل أبي مدّ يده بشكل ميكانيكي إلى الطبق، مصدرا بين الفينة والأخرى سؤالا أو كلمات متقطّعة تتخلّلها نحنحة أو سعلة. تلاغيه أمّي قليلا، والتي تجد في وجودنا جميعا حول المائدة فرصة لتبثّه شكواها منّا، أو تذكّره بطلباتها أو طلبات أحدنا، فيتحوّل هو إلى إصدار ضحكة أو كلمات رضا أو عبرات تأنيب. ينهي طعامه، فيسير متمهّلا نحو غرفة النوم. وبعد أن نتيقّن نحن أنّه لن يعود للخروج منها، نسارع بحثنا عن جهاز التحكم، ثم نتسابق للجلوس قبالة التلفاز.

هكذا عرفت أبي، مدمنا على نشرة الثامنة والنصف، ومواظبا على أداء كلّ صلواته في المسجد، من الفجر حتى العشاء، وملحّا علينا، كأغلبية الآباء، أن نحقّق نتائج طيبة في الدراسة، ولا نشغل أنفسنا بشيء آخر في الكون غير الدراسة، وأن نبذل قصارى جهدنا لتجنّب الإخفاق.

لقد أحببت أبي كما كان، رجل بسيط، لديه دكان ملابس صغير. لم يلتحق قطّ بمدرسة، لكنّه درس لعدّة سنوات في الكتّاب، فتعلّم العربية وحَفِظ ربع القرآن. أحبّ أبناءه كثيرا، ولم يدّخر جهدا في تلبية جلّ متطلّباتهم. أرادهم أن يدرسوا وأن ينجحوا في الحياة. لم يكن أبي شديدا تلك الشدة التي تزرع الفزع في قلوب الأبناء، لكنّه كان صارما حين تقتضي ذلك الحاجة. كنّا كلّما احتجنا بعض المال من أجل بعض أمور دراستنا أو حاجاتنا الخاصة، قصدناه في الدكان، فيناولنا ما نطلب وبسمة رضا تتمدّد على محيّاه. وحين نرتكب أمرا لا يعجبه، فهو يطلق العنان لصوته

الجهوري في تأنيب لنا وعتاب. وقد كان ذلك كفيلا بأن يجعل أشجعنا يُطلق ساقيه للريح متجنّبا الاصطدام بنظراته القوية المتوعّدة.

لكن حين كبرنا قليلا، وانتقلنا إلى مستويات دراسية أعلى، تغيّر أبي، بل أقصد نحن من تغيّرنا، فتغيّرت نظرتنا له وللحياة، وصار كلّ ما نقوم به نحن صوابا، وما يقوله هو، مجرّد أفكار قديمة، قد أكل عليها الدهر وشرب. لكنّنا ظللنا نحبّه ونقدّره ونحترمه باعتباره رجل البيت، والآمر الناهي فيه. باستثناء ذلك، فنحن مستقلّون عن أفكاره وعن أسلوبه في الحياة، وما يهمّنا نحن هو الانجراف مع النسق المتغيّر للحياة، في الثانوية وفي الشارع أيضا، وهنا أين بدأ معه الاصطدام.

باعتباري البنت الكبرى بين إخوتي، مثّلت أنا نقطة الاصطدام بأفكاره. «البنت يجب أن ترتدي حجابا ولباسا يستر عورتها، وألّا تتّخذ من زملائها الذكور في المدرسة أصدقاء.» كانت هذه إحدى عبارته الأثيرة التي كان يواجهني بها كلّما رآني أغادر البيت بسروال ضيّق أو قميص قصير، فيضطرّني إلى الرجوع وتغيير ملابسي مرّة أخرى. لكنّ ارتيادي للجامعة واحتكاكي مع عالمها المتحرّر، وتعرّفي على البنات الجريئات هناك، المتمرّدات على قيود البيت والمجتمع، جعلني أرى أبي في صمته وبساطته كظلّ يدخل ويخرج من البيت بشكل شبه منظم، فلا يعود لسلطته التي تحرص أمّي على جعلها دائمة الحضور بيننا أيّ اعتبار. وصار الحظر الذي يفرضه علينا كلّما حلّت نشرة الثامنة والنصف، بالصمت والسكون المعهودين، يثير في نفسي الكثير من الاشمئزاز، فأمتلك الجرأة في كثير من المرّات لألقي على مسامعه كلمات من السخرية والامتعاض:

– ما الذي تستفيده يا أبي من متابعة هذه النشرة البليدة كلّ مساء؟

وحتما فصوتي لا يبلغ مسامعه، مادام تركيزه الشديد على ما يخرج من فم المذيعين يغلّفه عن كلّ ما يصدر حوله.

تعرّفي على عبد الإله، وتوطّد علاقتي به، جعل حجم أبي يزداد ضآلة

أمامي. فكلمات عبد الإله عن العالم والأحلام والمستقبل الذي ينتظرنا حوّل صورة أبي في ذهني إلى مجرّد صنم يتحرّك بشكل ميكانيكي، وكجهاز كاسيت يكرّر على مسامعنا الكلام نفسه كلّ يوم. سلطة أبي الآن صارت مجرّد بخار متطاير في سماء البيت، وأوامره ونواهيه التي كانت تنهال علينا من كلّ مكان، أضحت ترتطم بمسامعي دون أن تحدث بصدري أقلّ أثر. أجل، لقد صرت أخرج فاردة شعري، مكحّلة عيني، ومحمّرة شفتي، بسروال ضيّق وقميص قصير. أسمع وعيده فأردّ عليه وأنا أتأمّل زينتي في المرآة بابتسامة متهكّمة، يتناولها على مضض وهو يزمجر مغادرا الدار.

أجل؛ في هذه المرحلة تغلّبت على أبي، انتصرت على سلطته، وتمرّدت على سطوته، بينما تكفّلت أمّي بجلب مصروفي اليومي منه، تجنّبا لأي تصادم غير مرغوب فيه قد يطرأ بيننا.

***

عند انتقالي للعيش بالحيّ الجامعي، حيث وجدت سريرا لي في غرفة تتقاسمها بنتان من زميلات الفصل، شعرت بجناحيّ الصغيرين يكبران، تتمدّد أضلاعهما ويصيران أكثر رشاقة، ويطول ريشهما ويصير أكبر كثافة، وبأن الحبل السري الذي كان يربطني بالبيت وأهله أضحى مجرّد خيط رفيع تمرّ عبره مكالمات هاتفية بين الفينة والأخرى، بيني وبين أمّي وأختيّ. ومع اختفاء عبد الإله وغيابه التام بعد تغييره لرقم هاتفه، صارت رغبتي في الطيران الذي علمنيّ إيّاه، أكبر وأشدّ إلحاحا في صدري. وبدل التحليق حول تلّته الصغيرة، صارت رغبة ملحّة تراودني في فرد جناحيّ أكثر، والتحليق بين قمم جبال عالية.

حكاية الأستاذ حسن الوردي وأسرته

(1)

شهريار يحكي...

لم يكن مراد الوردي مدلّل عائلة الوردي، يتصوّر هو ولا أمّه ولا إخوته، أن يجد نفسه ذات يوم، واقفا على رصيف شارع مولاي علي الشريف، وهو في زهرة شبابه وكامل أناقته، يفرش مبيعاته من الأواني الزجاجية والمعدنية على حافّة الطريق، حاله كحال العشرات أمثاله الذين اختاروا - أو اضطرّوا - لتكون التجارة على الرصيف هي السبيل الوحيد لتحصيل قوتهم.

لكنّ أباه، الأستاذ حسن الوردي، كان له موقف مغاير ممّا كان وممّا صار، وكأنّه كان يتوقّع حسب نباهته وخبرته، وهو يرى ابنه البكر في حالة تشظّ دراسي ودلال بيتي، أنّ مصيره لن يكون أبدا مثلما حلم به هو، الأب، الأستاذ، في أن يرى ثمرته الأولى تنضج وفق الشكل السليم، محافظة - على الأقلّ - على توازنها على غصن الشجرة التي زرع الأستاذ حسن بذرتها، عازما قدر الإمكان ألّا يفوته أمر ريّها وحمايتها، حتّى يمثّل نموّها وسموّها وغلّتها الحياة الجديدة التي حلم بها الأستاذ حسن منذ سنين.

فالأستاذ حسن الوردي تزوّج في سن الخامسة والعشرين، بعد سنة

عن تخرّجه من مركز تكوين المعلّمين بمدينة تطوان، حيث عاد في صيف سنة التخرج إلى بيتهم بمدينة سلا ليجد أنّ أمّه قد حضّرت له مفاجأة، انشغلتْ بإعدادها قبل أكثر من سنة، لتسحب شريط علبتها أمام وجهه الذي غمرته دهشة هائلة، بينما رأسه يعجّ بترقّبات التعيين، والوظيفة، والعالم الجديد الذين ينتظره. الزواج؟ الآن، وفي هذه السن؟ وممّن؟ من فتاة لا يعرفها. لا، حتما لا. إنّه لا يودّ أن يخنق انطلاقته الفتية في قفص مع امرأة، ربّة بيت في الغالب، شبيهة بهؤلاء النساء اللائي يزرن أمّه أكثر من مرتين في الأسبوع، يُخرسن أذنيه بثرثرة تتزاحم فيها أصواتهن الحادّة دون انقطاع، أو كاللائي تتكدّس بأجسادهن المبالغة في الامتلاء تحت جلابيب ملوّنة وضيّقة باشمئزاز الأسواق والحدائق والمحلّات في غير أدنى انتظام، يعقن الحركة ويتسبّبن في الزحام. إنّه بالكاد تخلّص من أثقال فترة التكوين الرهيبة، ليجد نفسه مباشرة أمام ثقل فظيع يترصّد الانقضاض على كاهله. هو الآن على بعد أشهر قليلة من تسلّم راتبه الوظيفي الأوّل، إنّه توّاق للتحليق كعصفور سيرفرف معلنا استقلاله الفعلي عن عشّ أبويه لأوّل مرّة.

- ماذا تقولين يا أمّي؟

هناك فتيات كالوردات، يتفتّحن في كلّ الأرجاء، رشيقات كالفراشات، وعذبات كعيون الماء الجبلية. لا يريد أن تضيع من بين يديه فرصة العمر النفيسة في التحليق رفقة الحوريات في كلّ سماء.

- لا يا أمي، أنا لست مستعدّا لدخول سجن جديد.

في غفلة منه، تهمس أمّه لأبيه:

- أنا لا أريد أن أدعه أعزبا فتصطاده ذئبة من الذئبات.

وحين رأى أنّ أبويه قد راحا يتآمران للنيل منه، شعر وكأنّ حبالا غليظة تلتفّ حول عنقه، تخنقه فتمنع الهواء من بلوغ رئتيه، وكلّما ازدادت وتيرة همساتهما والنظرات الملحّة الصادرة عن عينيّ أمّه إلا وتضاعف شعوره

بالاختناق، فلم يكن من سبيل أمامه غير أن جرّ باب البيت الحديدي الثقيل واندفع عبره جافلا.

***

حين رُزقت رقيّة العطّار، زوجة الأستاذ حسن الوردي، بابنها البكر، مراد الوردي، خفق قلبها بشكل غريب، وتوسّعت حدقتا عينيها حتى كاد جفناها يلامسا الحاجبين. كيف لا وهي تراه يخرج منها؟ قطعة منها. بل كائن بروح ينسلّ من بين أحشائها، ضئيلا، ناعما، وجميلا. وكان على زوجها، الأستاذ حسن، أن يصطبر على الغياب الذي اجتاح زوجته، التي لم تعد تبصر من حولها غير تلك القطعة الصغيرة التي بالكاد غادرت رحمها. فالأستاذ حسن لم يكن عمره قد تجاوز الثامنة والعشرين، شابّا بالكاد قد باشر حياتيه، المهنية والزوجية معا، إنّه مازال متعطّشا للعطف والحبّ والاهتمام، فكيف يتحمّل هذا الغياب الدائم عنه؟

يغادر الأستاذ حسن سريره في لياليه الباردة الطويلة تلك، والأرق الصامت قد أنهك فكره وأنفاسه، يقف عند النافذة المطلّة على شارع البلدة الصغيرة الغارق في السكون والعتمة، يدخّن سجائره، ويشرد في الضياع، قبل أن يعود للتفكير من جديد: لماذا لا يأخذها والصغير إلى بيت والديها، ويحضر أمّه أو أخته للتكفّل به إلى أن تتخلّص من أسر حالتها الفظيعة؟ لكن، ماذا سيقول الناس؟ أمّه وأبوه لن يستسيغا الأمر إطلاقا. هذا مخالف للأعراف. حتى وإن لم يكترث لكلام الناس وموقف والديه، فكيف سيصطبر على بعد فلذة كبده؟ إنّه يحبّه هو أيضا بالمقدار ربّما الذي تحبّه به رقيّة المجنونة به. حتّى هي، رقية، لن يتحمّل غياب أنفاسها عن البيت، خصوصا وهي في هذه الوضعيّة المعقّدة؟ سؤال وجواب لا يحمل جديدا وسؤال آخر... ويستمرّ تخبّط ذهن الأستاذ حسن في متاهات يتوخّى من السير عبرها العثور على حل معقول ومقبول، إلى أن يفقد الأسود الحالك الذي يلفّ الوجود أمامه سطوته القاهرة، فاسحا للون

متنام سريعا أن يبدّد حضوره، عندها يفطن الأستاذ حسن أنّه عمّا قريب لن يكون متاحا له الرجوع للسرير مادام صباح حافل في المدرسة ينتظره.

يغفو الأستاذ حسن في غير راحة لمدّة ساعتين. يتناول فطوره الذي أعدّه بنفسه على انفراد، بيض مقليّ بزيت الزيتون وخبز وإبريق شاي. يتناول رضيعه الصغير بلطف، يلاعبه قليلا، يقبّله ثم يعيده بهدوء إلى حضن أمّه التي تعارك نعاسها في كسل، جرّاء استيقاظها المتكرّر طوال الليل استجابة لاستغاثات صغيرها.

يرتدي معطفه الأسود الطويل، يحمل حقيبته الجلدية، ثم يغادر البيت يمشط في تثاقل الطريق ذات الحفر والشقوق الكثيرة بحثا عن سيّارة أو عربة بدابّة توصله إلى قمّة الجبل، حيث تلمع على مرأى بصره جدران الأقسام التي فقدت الكثير من بياضها، مستقبلة أشعّة الشمس التي راحت ترتفع في اطمئنان.

بعد الرحلة الصباحية التي قد تتجاوز الساعة، تقطع خلالها العربة المتهالكة، سواء كانت بمحرّك أو بدابّة الطريق الترابية والحجرية التي تفصل الفرع المدرسي عن البلدة، نازلة الوادي ثمّ صاعدة الجبل، بعد المرور عبر جسر قديم، فتكون الطريق الجبلية عبارة عن التواءات متشابهة مفتوحة على الهاوية، تكاد لا تكون لها نهاية، يصل الأستاذ حسن إلى مقرّ عمله مع الثامنة أو الثامنة والنصف.

يطلب من تلاميذ المستوى الثالث، الذين يملؤون الصفين الأولين من جهة الباب، أن يتناولوا كتاب التربية الإسلامية، ويراجعوا سرّا السورة التي طلب منهم حفظها في الحصة السابقة، ومن تلامذة المستوى الرابع، والذين يجلسون بالصفين الآخرين، أن يفتحوا كتاب الرياضيات على آخر درس تلقّوه، ويحاولوا الإجابة على تمارينه على الدفتر المخصّص لذلك، ثم يضرب بشدّة بعصاه على المكتب مشدّدا عليهم جميعا أن يقوموا بذلك دون أن يسمع طنين ذبابة. فالفرع المدرسي هذا، التابع للمركزية

المتواجدة بالبلدة، لا يشتغل به غير ثلاثة أساتذة من ضمنهم الأستاذ حسن الذي قضى به الآن زهاء الأربع سنوات مباشرة بعد تخرجه من المركز، لذلك فهم يقسّمون المستويات الدراسية الست فيما بينهم، بل إنّ الإثنين الأقدم، الأستاذ حسن والأستاذ أحمد، يشتغلان في تخصّصين إثنين وليس واحدا كما تجري العادة، إذ أنّ كليهما يعمل كأستاذ عربية وفرنسية. التخصّص الأول يشمل مادة اللغة العربية والتربية الإسلامية والتفتح الفنّي، بينما التخصّص الثاني فيضمّ إضافة إلى اللغة الفرنسية مادتي الرياضيات والنشاط العلمي. الأستاذ حسن مكلّف بالقسمين الثالث والرابع والأستاذ أحمد بالخامس والسادس. أمّا الأستاذ رشيد المتخرّج حديثا، فهو يدرّس القسمين الأول والثاني في تخصّص أستاذ عربية.

يزيح الأستاذ حسن المحفظة من أمامه، ثمّ يلقي برأسه المرهق فوق ذراعيه على سطح المكتب. يحلّ عليه ليل جديد بظلامه وسكونه، يجد نفسه هذه المرة مستسلما له، لا تفكير ولا أرق، وإنّما رغبة ملحّة في النوم تجتاحه ولا تدعه حتى تغرقه في سبات طويل.

يحرّك الأستاذ حسن رأسه بهدوء، ويفتح عينيه ينظر ناحية التلاميذ بصعوبة، ثم يتحرّر سمعه من ختم النوم الثقيل، ليصله الضجيج المنبعث من كلّ ركن في القسم، فيرفع رأسه قليلا ويفتح عينيه أكثر ليستوعب أخيرا الفوضى التي تعمّ المكان، فالكلّ يتحرّك والكلّ يتكلّم. يضرب الأستاذ حسن بشدّة سطح المكتب ثلاث ضربات بيده، فيسكن بعدها كلّ شيء ويعمّ الصمت من جديد.

- هل أكملتم ما طلبت منكم؟

يردّ الجميع في صوت واحد:

- نعم أستاذ.

ودون النظر تجاههم يسير الأستاذ حسن نحو الباب، يغادر القسم، مواصلا مسيره حتى الشجرة التي تتوسّط الساحة، يتجاوزها حتى يبلغ

المنحدر الذي يتخلّله الممشى الترابي، الذي تؤكّد وجوده كلّ يوم، أقدام التلاميذ الذين لا يسلكون الطريق الترابية التي تجيء عبرها العربات. عنده يقف الأستاذ حسن يمدّ بصره صوب التلال المقابلة والجبال البعيدة، ثمّ يدير رأسه صوب الوادي، قبل أن تستقرّ عيناه على البلدة الهامدة فوق الهضبة الصغيرة. يحدّق لمدة طويلة كأنما يريد النظر عن كثب إلى بيته، ثمّ الدخول عبر بابه للاطمئنان على زوجته وصغيرهما مراد، لكنّه يستخرج من جيب معطفه الداخلي علبة السجائر، يسحب منها سيجارة، يشعلها، ينفث دخّانها عبر هواء الجبل الصباحي النقيّ، ثم يعود للتفكير، لعلّه يلفي حلّا لمشكلة زوجته الحاضرة الغائبة.

حكاية الدكتور عمر

(1)

شهريار يحكي...

دكتور، طبيب غريب الأطوار زار صالوني ذات يوم. حلق شعر رأسه، ودفع لي أكثر مما يدفع جلّ زبائني عادة. لم أعرف أنه دكتور في ذلك اليوم، لأنّه لم يتكلّم عن مهنته يومئذ، فقد أبدى حرصا شديدا على عدم الانجراف خلف أي حديث دائر في الصالون، أو الردّ على سؤال يبعثه فجأة أحد كشّافة الصالون كما نسميهم. غير أنّه تخلّى عن حرصه هذا في المرة الثالثة على ما أعتقد، وهو يفاجئنا بالردّ على شكوى إسماعيل الحدّاد عن صداع ألمّ برأسه قبل يومين. وكما يتصرّف الأطباء عادة، فقد كتب له وهو يقوم عن كرسي الحلاقة ويزيل بالمنفضة ما فضل من شعر على كتفيه، اسم دواء في ورقة زرقاء صغيرة وأنيقة فصل التصاقها بشبيهات لها ضمن دفتر سحبه من جيب معطفه الداخلي، وشدّد عليه أخذ قسط من الراحة عقب تناوله للدواء. وحين سأله عادل، وهو أحد الكشافة:

- هل تعمل في صيدلية؟

ردّ الدكتور:

- أنا في الأصل طبيب.

وعبارة «في الأصل» توحي إلى سامعها أنّ الرجل ليس الآن طبيبا، إنما، ربما كان طبيبا. وتأكيد هذا الاحتمال هو ما لم يجرؤ عادل على الخوض فيه مع الرجل بطرح سؤال جديد، ليس لأن عادل يخجل من كذا أمور، بل على العكس، هو في صالوني رجل الأسئلة الأول، وإنّما السبب هو أنّه لم يسبق له الحديث هكذا مع طبيب في مكان غير المستوصف أو العيادة.

طبيب في صالوني! أيمكن اعتبار هذا إنجازا؟ بل يمكن اعتباره نشازا، حيث لم يسبق لطبيب أو من ينتمي لنفس المستوى أو التصنيف الاجتماعي أو ما فوق ذلك أن حلّ زبونا بصالوني. فدكاترة الطب والصيدلة والمهندسون والمحامون والقضاة والضباط وأساتذة الجامعات وأمثالهم، لا أذكر أنّ خطواتهم نزلت عن أبراجها وتجاوزت عتبة صالوني.

لكنّ هذا الطبيب، أو من هو في الأصل طبيب، قد كسر هذه القاعدة، ذات الصبغة الاجتماعية المتعالية، وأضفى على صالوني بعدا جديدا انفتح عن نافذة حملت ما نوّع في روافد حكايات صالوني.

هو قد تجاوز الخمسين سنة. أخبرني بذلك إثر الزيارة الموالية، ثم خاض في حديث تعريفي طويل عن نفسه مستغلا فرصة فراغ الصالون من أي شخص سوانا. وربما قد تعمّد هو المجيء صباح يوم السبت، حيث تخفّ الحركة في الغالب بالمكان، حتى يتسنّى له الكلام بطلاقة دون تربّص عين أو تدلّي أذن.

هو فعلا طبيب، لكنّ وظيفته لم تعد كذلك الآن. تلقّى تعليمه الطبّي بالاتحاد السوفياتي سابقا، قال ذلك وقد حرّر تنهيدة قصيرة، لكنه لم يقل «سابقا». ثم عاد ليشتغل مباشرة هنا طبيبا بمستشفى بمدينة صغيرة بالجنوب، قضى به زهاء العشر سنوات ثم طوى البذلة البيضاء في دولاب منسي ببيته ليتحوّل إلى موظّف بمندوبية وزارة الصحة بالجديدة، قبل أن ينتهي به المطاف هنا بمندوبية تمارة.

- أنا ابن العاصمة، هكذا قال، وحطّي الرحال أخيرا في تمارة، كان ثمرة لبذرة حملتها بوجداني منذ يوم تعييني الأول بأمل الرجوع ذات يوم إلى الرباط أو ضواحيها.

سهم عميقا في وجهه على المرآة وأكمل:

- حين رجعت من الاتحاد السوفياتي والتحقت بميدان العمل الحقيقي، اعترتني دهشة صادمة حين اكتشفت أن حبّي القوي للعمل ورغبتي الجامحة في التفاني في تأديته لن يكونا كافيين للصمود زمنا طويلا تحت الأثقال التي حمّلوها كتفيّ فور ارتدائي للبذلة البيضاء، وكأنّي لست ذلك الطبيب الأنيق، الذي طالما انبهرت في طفولتي بشخصيته البهية وإطلالته البيضاء، بل أنا، وقد صرت طبيبا، لكنّي طبيب لا يجد الوقت لتعديل ياقة بذلته أو تصفيف شعرات رأسه إن فاته فعل ذلك في الصباح.

خلال ليال متتالية، كنت أجدني المداوم الوحيد في المستشفى الكبير، والذي تزداد مساحته شساعة كلّما اختنقت الأروقة والأبواب بالمرضى والمعطوبين، وقد حلّت بدل الأطباء الآخرين أشباح باردة تضحك امتداد خدودها طوال الوقت فوق رأسي.

- هل هذا يعني أنّك لم تكن الطبيب الوحيد في المستشفى؟

- نظريّا أجل، لكن في الواقع، كانت الأشباح هي الحاضرة بدلهم، خصوصا أطباء الاختصاص، الذين كلّما غاب أحدهم إلّا وشهر المدير أمره المنمّق في وجهي: الليلة ستملأ الفراغ.

- وكيف ستعمل أنت بدل طبيب في تخصص آخر؟

- يا بنيّ، هكذا تسير الأمور في البلد، بملء الفراغ.

- والأطباء الآخرون لماذا يتغيبون؟

- أعتقد أنك تعرف الجواب.

- في رأسي احتمالات عديدة.

- حسن، اعتبرها جميعا أجوبة مناسبة لسؤالك.

وأنا بعد أدور في فلك الاحتمالات، كان الدكتور يواصل حكيه المستفيض عن تاريخه، وكمحاولة منّي لجعله يتريّث في استرساله حتّى لا يفوتني خيط الأحداث المتتالية، سألته إن كان يريد التقصير أكثر فوق الأذنين؟ فتوقّف عن الحديث ومال برأسه يستطلع انعكاس ما فوق أذنيه على المرآة، ثم ردّ بالنفي أنّ ذلك يكفي.

- حين عدت من الاتحاد السوفياتي فاجأتني أمور كثيرة في البلد، قال مستأنفا حديثه، أنا لا زلت أتساءل مع نفسي يا بنيّ، هل البلد تغيّر فعلا خلال سنوات غيابي؟ فأنا أفتقد أشياء تركتها خلف ظهري لم أعد أجد لها أثرا، بينما أجد أخرى قد ولدت ونمت في نفس الفترة، لكنّي حين ألقي نظرة من زاوية مختلفة أقول: البلد لم يتغيّر، وأعني بذلك أنّه لم يتطوّر. دعني أسألك، أنت شاب متعلّم، أليس كذلك؟

رددت مبتسما:

- شيئا ما.

- ما هو أعلى مستوى دراسيّ بلغته؟

- أنا حاصل على دبلوم الدراسات الجامعية، لكنّي فشلت في الحصول على الإجازة.

- هذا ما أحدّثك عنه، لماذا تفشل؟ ولماذا ينتهي بك المطاف واقفا خلف رأسي؟

ضحكت، بينما أصدر هو زفرة ساخرة، قبل أن يعود للسؤال:

- وماذا كان تخصّصك؟

- بيولوجيا وجيولوجيا.

- هذا مشكل آخر. تخصّصات خارج السرب الذي يحلّق في سماء البلد. أنظر يا بنيّ، أنا لازلت أتساءل، لكنّي سأقول لك، البلد يتغيّر ظاهريّا

لكنّه راكد ضمنيّا. نفس المشاكل لازالت قائمة، والحلول هي لتغيير المظاهر لا غير. أعتقد أنك تفهمني؟

صمت قليلا وأنا أفكّ حزام المئزر، ثم أجبت بغتة:

- طبعا!

- هل انتهيت يا بنيّ؟

- بالصحة والراحة يا سيدي، قلتها وأنا أسحب المئزر عن كتفيه، بينما سخونة تلك الظهيرة القائظة، التي عدت فيها إلى قريتنا، أجترّ حقيبتي وخيبتي تلفح مجدّدا ذاكرتي.

غموض هذا الطبيب «السابق»، زال عنه الآن بعض الغبار.

ربما هو استثناء، أو نموذج لفئة من الناس الذين يحملون في صدورهم غيرة على البلد. هل تلقّيه لتعليمه العالي في بلد كالاتحاد السوفياتي، قبل سقوط جدران برلين، هو السبب لنظرته الجادّة تلك؟ أم أنّها أسباب أخرى وراء ذلك؟ ثمّ نحن طبعا لا نعرف الشيء الكثير عن ذلك البلد: الحرب الباردة وحروبها الموازية، الجيش الأحمر، ألعاب أولمبية سابقة، المعسكر الشرقي، الرؤوس النووية، أفلام هوليود عن عصابات تتاجر في كلّ شيء، المخدّرات والسلاح وحتّى النساء...، وحديثا نعرف بوتين وشاربوفا...

بوتين، حين يطلّ علينا عبر شاشة التلفاز، يبثّ العالم خطاباته الجادّة ونظرته الثاقبة دون أن يرمش له جفن، نقول عنه: «هذا الرجل، هو حتما يمثّل المعسكر الشرقي». أمّا شاربوفا، فنحن حين نراها تتسلّم بتنورتها القصيرة وابتسامتها الساحرة جائزة حازتها بعد ساعات من القفز والركض خلف الكرة الصفراء الصغيرة، لا نقول...، بل لا نفكّر حتّى فيما يسمّونه «المعسكر الشرقي»، أو الحرب الباردة أو... أو... فنحن عندها نكون قد نسينا التاريخ الروسي كلّه، بل إنّ كثيرا من الناس ينسون وقتها حتى أسماء أبنائهم.

وقد أخبرنا أحد كشّافة الصالون، أنّه ضبط ذات يوم بالرباط نادلا يعرفه، يعمل بمقهى بوسط المدينة، يسير مهرولا عبر زنقة «المامونية»، وهو يحمل حاملة أوراق جلدية زرقاء أنيقة، أثارت فضوله إلى درجة أنّه لم يتردّد في أن يسأله عمّا يحمل بين دفّتيها، ففتحها بخفة لتظهر من خلالها صور بجودة عالية وكأنّها أصليّة، لشاربوفا في أزهى حللها. سأله:

- أين تمضي بهذه القنابل جافلا هكذا أيها المخبول؟

ردّ النادل بعد أن أغلق حاملة الأوراق بنفس الخفة التي فتحها بها، مواصلا فراره:

- زبون محترم بالمقهى، طلب منّي أن أنسخ هذه الصور في المطبعة، على شكل صور أكبر.

- صور جدارية إذن؟

- نعم.

ضحك الكشّافة، ثم نسخ الضحكة نفسها، - على حدّ وصفه - وهو يسرد على مسامعنا القصّة قائلا:

- قلت لصديقي النادل: أجل، أجل، هذا زبون محترم.

وضحكنا نحن كذلك.

في الوقت الذي صار فيه الدكتور زبونا منتظما لصالوني، وبعد أن عرف الرواد الدائمون لصالوني بأمر دراسته في روسيا (الاتحاد السوفياتي سابقا)، صرت أخشى فعلا أن يتهوّر أحد هؤلاء المخبولين فيسأله بعفوية إن كان قد قابل شاربوفا أو رآها عن بعد على الأقل خلال دراسته هناك. وبحكم معايشتي لهؤلاء فمثل هذا الهذيان وارد الحدوث.

وشاربوفا، حسناء التنس كما يسمونها، أضحت قبل وقت ليس بالقريب مَضْرَبا للأمثال في صالوني، وذلك حين يجتمع الروّاد الشبان، الأكثر تعليما وثقافة في وقت واحد بالصالون. بدأ ذلك حين قام حمزة، البنكي،

بإلقاء وصف لفتاة أحلامه المستقبلية: «حسناء، شقراء، ملوّنة العينين، حريرية الشعر، ناعمة الملمس، ممشوقة القوام، مشرقة الابتسامة... لكن أن تكون متديّنة، تضع الحجاب، على خلق، طيّبة، مثقّفة...» عندها، قاطعه أشرف ضاحكا:

- قل تريد شاربوفا مسلمة يا أخي وخلّصنا.

فانفجر الصالون بضحكة موحّدة، ارتطمت بجدران الرصيف المقابل.

حكاية سمير

(2)

سمير يحكي...

خيوط نور بيضاء تتسلّل عبر ألواح النافذة معلنة قرب نهاية أرق طويل. لعلّها ساعة أو ساعتان فيرنّ منبّه هاتفي، فأنطلق صوب يوم جديد. دون انتظار، جلست على حافّة السرير وتعب غريب يعصر أعلى كتفيّ وحتّى الرقبة. بمقدّمة أصابعي ضغطت على مكان الألم. شعرت بجفوني تتمايل، لكني كنت متيقنا أنّي ما إن أعد إلى السرير حتى تنفتح من جديد. لذلك، قمت واقفا صوب الحمام ولطمتها بحفنات من ماء الصنبور البارد. أهل الدار كانوا بعد نائمين، وأبي سمعته يعود منذ ساعة تقريبا من صلاة الفجر، وهو حتما الآن يحرّك مسبحته بين أنامله بينما تتمايل جفونه من جديد.

دون إصدار حسيس، فتحت الباب وأغلقته مغادرا البيت.

سريعا ما احتواني هواء الصباح العذب، يُنعشني ويبدّد آخر أثر لرغبة في النوم. من حولي كان الكون جامدا صامتا، وكأنّي أقع فجأة في قعر بلدة مهجورة. رميت خطواتي وقد راحت نسائم باردة تلسع ذراعيّ العاريين. كنت أعرف وجهتي: مقهى «أدونيس»، قرب محطّة الحافلات الثانية بشارع «عمر بن الخطّاب»، فهو يفتتح أبكر من مقاه أخر. مشيت

سريعا، دون أن أعلم سبب عجلتي هذه، لكنّي كنت أعرف السبب وراء خفقان قلبي السريع.

في المقهى الذي كان بالكاد يبسط كراسيه وطاولاته، تناولت فطوري: شاي بالنعناع ورغيف ساخن بالجبن، اشتريته من محلّ أرغفة وفطائر في طريقي. بلعت فطوري ذاك بصعوبة، مُرغما معدتي على كسر صيام طويل قد باشرته منذ مساء البارحة. ثم قعدت أنتظر حلول الساعة الثامنة، الوقت الذي يفتح فيه المعلّم إبراهيم الوجدي، معلّمي، أبواب ورشته الصغيرة، حيث نعمل معا. بعدها سأجلس هناك أنتظر من جديد، حتّى وإن كان تمّة ما أنشغل به، فأنا سأنتظر أيضا، أنتظر أن يجيء برغامي بشاحنته الهوندا لنقوم بنقل الصالون إلى دار المصلوحي.

يا له من طعم! طعم الانتظار هذا. حلو وموجع في الآن نفسه. أريد نهاية سريعة له، رغم أنّي أجد في امتداده هذا لذّة غريبة. إنّه يفوق قدرتي على استيعاب الأمر. لكن ما يهمّني من مسألة الانتظار هذه، هو ألّا تفوتني فرصة رؤياها، رؤية ابنة المصلوحي، تلك الفتاة التي عبثت بعقلي، منذ العشية البرتقالية التي دخلت فيها الورشة رفقة أبويها لاختيار خشب وشكل صالونهم.

أنا أعرف السيد المصلوحي قبل ذلك، وأعرف الزنقة حيث يقطنون، لكني لم أنتبه من قبل إلى وجود قطّة وديعة تعيش معه بين نفس الجدران. لذلك وجدتني بعد ذلك المساء ذي السماء الأرجوانية أمرّ مرتين أو أكثر في اليوم قريبا من دارهم، أتباطأ في مشيتي، أقف دقيقة أو أكثر متظاهرا بقراءة شيء مهم على الهاتف، بينما أقوم بإلقاء نظرات خاطفة صوب باب دارهم ونوافذه، لعلّها تخرج في سخرة أو على الأقل تطلّ من النافذة. الأمر الذي لم يحصل طيلة أسبوعين من المحاولات. فانتهى بي المطاف إلى التوقّف عن ترصّدي لدارهم والدخول في حالة الانتظار: انتظار أن نتمّ إنجاز طلبيتهم، حتى يتسنّى لنا الاتصال بهم وضرب موعد التسليم.

لذلك، تحمّست كثيرا وأنا أعمل رفقة معلّمي على صالونهم، إذ واظبت على المجيء إلى الورشة باكرا ومغادرتها في وقت متأخّر، فقد كان همّي هو أن أنهي العمل في أسرع وقت ممكن، لكن مع حرص شديد منّي أن تكون نتيجة العمل في النهاية ليس صالونا متقنا فحسب وإنّما تحفة فنّية.

المعلّم الوجدي انتبه إلى مبالغتي هذه في التعامل مع طلبية المصلوحي، لقد لمّح إلى ذلك مرارا، لكنّني تجاهلته، بل تحاشيت فتح فمي عن شيء قد يقوده إلى اكتشاف أمري، الذي أحرص كلّ الحرص على إبقائه مخفيّا عنه، لأنّه إن عرف سيعمد بشدّة إلى منعي عن الذهاب يوم التسليم إلى دارهم، فقط، خبثا منه لا أكثر، ويذهب في المقابل هو رغم كونه صاحب الورشة للإشراف على عمليّة التسليم، حتى وإن كلّفه ذلك إضافة حمّال سيضطرّ المصلوحي للدفع له أيضا. أنا متيقّن من ذلك، فقد فعلها بي تلك العشية، وذهب بنفسه لدار المصلوحي لأخذ قياسات الصالون، المهمّة التي من المفروض أنّه منوط بي أنا القيام بها دائما. منعني حينها من الذهاب وقد رأى عينيّ تحومان بلا هوادة حول الفتاة. هكذا صار يبدو لي الآن، رجل خبيث يعترض كلّ طريق قد تأتي لغيره بالخير.

قبل انتقالي لورشة الوجدي الضيقة، كنت قد بدأت عملي بالنجارة في ورشة كبيرة بالحيّ، تعود ملكيتها لأحد الأثرياء. زاولت عملي هناك لمدّة سنتين تقريبا دون تلكّؤ أو تذمّر، أعمل بجدّ وصدق، حريصا على المواظبة وتنفيذ أوامر الرؤساء على أدقّ وجه. بخلاصة: لقد كنت عاملا «نجيبا»، إن صحّ هذا القول. استمر حال النجابة هذه شهورا طويلة إلى أن بدأ عمّي الطاهر يملأ رأسي بكلامه الغريب، والذي لم يسبق لي أن سمعت بمثله من قبل. مفردات عصيّة على الفهم، يباشر بها حديثه قبل أن يشرع في تفصيل مبهم. الرأسمالية الجشعة، البروتيلارية (سمير يقصد هنا البروليتارية)، العمل المتسلسل، العمّال هم رأسمال الاقتصاد، الطبقية، الغرب الإمبريالي، التوزيع العادل للثروات، الثورة على الأثرياء...

مفاهيم عديدة حفظتها عنه دون أن يسعني فهمها جيّدا، لكنّها أفضت في النهاية إلى إقناعي بترك العمل في «المصنع الصغير» والبحث عن عمل رفقة معلّم ما ندّا لندّ. أسأله:

- وما العيب في عمل الحالي؟

- إنّه نموذج مصغّر عن الاستغلال الرأسمالي للطبقة العاملة، فأنتم هناك تُستغلّون كما يُفعل بعمّال المناجم، تُجبرون على القيام بالأعمال الشاقة والخطرة، أليس حمل الألواح الخشبية على ظهوركم عملا شاقّا؟

- أجل.

- أوليس تمرير أصابعكم غير المحمية قريبا من منشار الناشرة الكهربائية شيئا خطرا؟

- بلى. صحيح يا عمّي.

- ثم يجيء أصحاب المال في سياراتهم الفاخرة، ببدلاتهم الأنيقة، يستعرضون تميّزهم عبر إصدار الأوامر والتوجيهات، ثم لا يهمّهم في النهاية أن يصاب أحدكم أو يُقطع أصبعه، أو يمرض صدره جرّاء غبار النجارة، أو يحلّ به أيّ مكروه كان، فما يهمّهم في البداية والنهاية هو آلاف الدراهم التي تنسكب في جيوبهم العريضة؟ وصدّقني، إن حدث وأصاب أحدكم أمر ممّا ذكرت على سبيل المثال لا الحصر، فصاحب المصنع سيقول له ببساطة وبرودة دم: «أنت لم تعد مفيدا لنا الآن.»... إنّه عالم شره، عالم الرأسمالية هذه.

الرأسمالية! مصطلح كان لايزال عالقا برأسي منذ أيّام الدراسة، لذلك تقبّله ذهني بسهولة. لكنّي أردت أن أفهم، أن أفهم جيّدا. أنا أعرف ما يعنيه الرأسمال، لكن هذه الرأسمالية، ما هي؟ هل هي مؤنّثه أم جمعه أم ماذا؟ ولماذا يقرنها عمّي كلّما ذكرها بصفة بشعة، يقولها وكأنّه يسبّها بحنق. كأنّ بينه وبين الرأسمالية ثأرا قديما؟

الآن، وبعد أحاديث عمّي المستفيضة حول الرأسمالية، صارت أذناي بارعتين في التقاط المصطلح، من التلفاز والمذياع حتى وقعت في أُلفة عجيبة معه، لكنّي لم أغامر يوما باستخدامه، في أيّ سياق كان، لأنّ المعنى، ذلك المعنى اللعين ظلّ بعيد المنال عنّي. ثمّ، وبعد شهور كثيرة، انبعث ذلك المصطلح في المكان الوحيد ربّما الذي أسمح فيه لنفسي بالاستفسار عن شيء دون خشية ردّ ساخر أو ممتعض ينمّ عن نظرة فوقيّة دفينة. أجل، إنّه المكان الوحيد الذي سأحصل فيه على الجواب الشافي، سواء اليوم، أو غدا أو الأسبوع القادم، لأنّ الأسئلة والاستفسارات والأخبار والمعلومات تظلّ معلّقة في سقفه إلى أن تتمّ معاينتها والبتّ فيها.

في صالون «شهريار» لحلاقة الرجال بشارع ابن خلدون، حيث كلّ شيء مباح ليُطرح للنقاش، قال أحدهم شيئا عن الرأسمالية، وببداهة منّي رميت بالسؤال في وجهه المقابل لي في كلّ مرايا الصالون:

- وما الرأسمالية؟

عمّ صمت ثقيل في الصالون العاجّ بروّاده، من زبائن ومتطفّلين كحالي. ومن المرآة الأمامية أطلّ عليّ وجه صديقي نبيل، الحلّاق، بتقطيبة على جبينه المتعرّق:

- إنّها نظام مالي واقتصادي عالمي، إنّه النظام السائد بعد سقوط الاتحاد السوفياتي.

هذا يوضّح بعض الشيء، لكنّ الشرح الشافي الكافي انتظرته حين دخل، بعد برهة من الزمن، أشرف...، كاتب المقال، كما ننعته، وقد وجدنا لا زلنا في تجاذب لأطراف الحديث المضطرب الدائر حول مفهوم الرأسمالية. وكعادته، أطرق السمع جيّدا لما يدور في الصالون، ثم راح يتدخّل بمعلومات متقطّعة، وحين وجد أن كفّة المعلومات تميل إلى صفّه، تناول بأسلوب لبق زمام المبادرة، وراح يخوض في الموضوع،

يبسطه أمامنا بسطا يجعلنا ننظر إليه وفق أبعاد مختلفة، قبل أن يعود إلى تجميعه في عبارة أو عبارتين. ومع تقدّمه في الحديث وفق هذا النحو، عاد خيط الفهم ينسلّ من رأسي مرّة أخرى. ولم يستطع دماغي إثر ذلك سوى التقاط كلمات متقاطعة: ربح، ملكية، شركات، أفراد، دولة، عمّال، العرض، الطلب، المنافسة، رأسمالية صناعية، تجارية... ثمّ تجلّت صورة عمّي وأذناي تلتقطان: «جشع الرأسمالية»، فانسدل حديثه الحانق أمامي. اندفعت متسائلا بينما أشرف كاتب المقال يواصل حديثه:

– عفوا، لكنّي أريد أن أعرف، هل الرأسمالية فعلا شيء سيّء؟

حكاية عبد الإله المنصوري ونادية

(2)

عبد الإله يحكي...

أيّ حظّ عاثر هذا الذي لاقاني فجأة بماضيّ الأسود البعيد، ليقلب حياتي الهنيئة رأسا على عقب؟

زوجتي أخذت الأبناء إلى بيت أبيها، وتطالبني بعد هذه السنين من العشرة بالطلاق. بل، والأكثر قسوة أنّها تريد منّي التزاما أمام المحكمة بالسماح لها بحضانة الأبناء دون الرجوع عن ذلك مهما كانت الأسباب. أي، حتّى وإن تزوجت هي بعدي، لن يكون من حقّي المطالبة بحضن الأبناء كما تسنّ على ذلك القوانين المعمول بها والأعراف.

أيعقل أن تتزوّج نجاة رجلا آخر؟ هل أستطيع تصوّرها تنام في سرير غير سريرنا؟ والأبناء؟ لمن سيقولون كلمة بابا؟ هل سأكون في السجن حينها؟ هل سينسون أنّي أنا هو أبوهم الحقيقي؟ وكيف سيعاملهم زوج أمّهم؟ في البداية ربما سيحن عليهم، لكن ما إن يرزق هو بأبناء حتى يتجاهلهم ويهملهم، بل ربما يقسو عليهم، يشتمهم ويعنّفهم حتّى. دون زواج، تستطيع أن تكفلهم. هي موظّفة ودخلها إضافة إلى النفقة التي أنا مستعدّ لدفعها بالأضعاف كفيلة بأن تعيّشهم بكرامة. ثمّ إنها ستكون ببيت

أبيها الذي يعزّهم أكثر من أيّ شيء آخر بهذا الكون، إنّهم بؤبؤا عينيه كما يقول. فلماذا تتزوّج إذن؟ إنّها تحكم قبضتها على عنقي حتّى أوّقع على ذلك الالتزام مقابل تغاضيها عن دعوى الخيانة الزوجية، التي وإن ثبتت ستكون أكبر خسارة لي هي فقداني لوظيفتي. لكنّي لا أريد أن أوقّع على ذلك الالتزام، لأنّي لن أستطيع التخلّي أبدا عن فلذات كبدي، بل حتّى هي لا أريد التخلّي عنها بسبب ذنب اقترفته أنا في حقّها وكرامتها. لا، لن أطلّقها، رغم أنّها تحبسني بين فكّي خيار صعب، إمّا الوظيفة أو الأبناء.

أنا مشوّش. تقصف رأسي مطارق كثيرة، وتأسر إرادتي أغلال لا أعلم كيف نبتت من أرض المضارع رغم أنّ جذورها تُسقى بأخطاء الماضي. هل العقاب الذي فررت منه ذات زمن تربّص بي ذات انعطاف واقتصّ منّي. ألم تكن الحادثة قصاصا كافيا؟ أم أنّها هي الحلقة الأولى من سلسلة النار التي ستحرق الأخضر واليابس قبل أن تحيلني رمادا؟ هل سينهار كلّ ما بنيت من شقاء السنين فيغدو رمالا تذروه رياح عقاب تأخّر حتى صار إعصارا؟ هل أندم على اليوم الذي قابلت فيه نادية بعد سنين من الهروب، أم أندم على اليوم الذي عرفتها فيه أصلا؟ أبغيّ رخيصة تخرّب حياتي وتهدم سعادتي؟ أهي عدالة القدر، أن يخرّب كلّ واحد منّا حياة الآخر وإن طال الزمن؟

أجل، لقد سرت بمحض إرادتي، مرّة أخرى، نحو هذا القدر. والخطوة الأولى من المسير نحو المصير كانت حين لمحت زميلي في العمل مراد يحمل فتاة عشرينية مثيرة في سيارته. سألت زميلنا الآخر عمر عن ذلك، فأخبرني أنّها صاحبته. قلت له: لكنّه متزوّج. لكنّ عمر لم يعقّب. بعد أيام رأيته يحمل فتاة أخرى في سيارته. فازداد فضولي لمعرفة ما يحدث معه. فعرفت من جهة أخرى أنّ مراد وعمر وآخرَين لا أعرفهما، يستأجرون شقة في مكان مجهول يتناوبون على جلب البنات لها وفق برنامج منظّم. اندهشت للفكرة، ففجّرت اندهاشي أمام عمر، الذي حاول الإنكار في

الأول قبل أن ينهار في النهاية ويقرّ بصحّة الخبر أمام إلحاحي الشديد لمعرفة التفاصيل.

إعجابي بالفكرة امتدّ إلى رغبتي المشاركة في اللعبة.

دعوت مراد وعمر إلى شرب قهوة على حسابي، وعرضت عليهما رغبتي الدخول معهما في هذه الشركة. رحّبا طبعا بدخولي معهم لأنّ حصة كلّ واحد منهما المدفوعة للإيجار ستنخفض بمعدّل عشرين في المئة، لكنّهما أخبراني أنّ ذلك لن يتمّ حتى يوافق عضوا الفريق الآخران. الأمر الذي لم يتطلّب أكثر من مكالمتين قصيرتين لتزفّ إليّ بشرى الموافقة ونحن بعد جالسون بالمقهى.

كانت الخطوة الأولى أن أتعرّف على ميدان اللعب. فأخذاني ذات مساء إلى الوكر السرّي لأتعرّف عليه وأستأنس بالتواجد فيه. هو شقة بعمارة في شارع تكثر فيه الحركة بحيث يصعب أن تميّز القاطن من العابر، تضمّ مساحتها الصغيرة غرفتين ومطبخا صغيرا وحمّاما، وجميع هذه القطع مجهّزة بشكل يتناسب مع طبيعة المكان الإغرائية. وإن كان أعضاء الشركة، التي صرت أنا منذ الآن عضوا فيها، يحرصون على إبقاء النوافذ مغلقة معظم الوقت، إلّا أنّ أوّل انطباع انتابني وأنا أستنشق هواء الشقة هو أنّ هذا الخليط من روائح سجائر وعطور نسوية وماكياج وأثاث جديد ورطوبة جدران... هو الأنسب لجوّ يجمع الإثارة بالرومانسية.

ونحن في طريق العودة، لم أجد حرجا في سؤالهما عن الطريدة، كيف أحصل عليها؟ فانفجرا ضاحكين. قال لي مراد:

- أنت تريد اللعب ولا كرة معك؟

صمت قليلا ثم اقترح:

- حسنا، لحسن حظّك بعد غد لديّ أوّل موعد مع فتاة جديدة، سأقابلها بمقهى، تقول إنّها لن تستطيع المجيء دون صديقتها. ما رأيك إذن أن تجلس أنت معنا وترى إن راقت لك صديقتها هذه؟ وعلى فكرة،

جلساتي تلك بالمقاهي لا تتجاوز النصف ساعة في أقصى الحالات، وهذا هو الوقت الممنوح لك لتقرّر ولتطيح بطريدتك في الشباك. بعدها، إن سارت الأمور معك بالإيجاب ستختار وقتا لك للعب في الشقة، وذلك حسب جدول البرنامج.

كمراهق سيخرج في أوّل موعد له مع فتاة، تأنّقت بأحسن الثياب، بعد أن حلقت رأسي وفق تصفيفة تظهرني أكثر شبابا، وضعت عطرا ثمينا أقتنيه لأوّل مرة، ثم غادرت البيت مبكّرا حتى لا أتأخّر قيد أنملة عن مراد، الذي أكّد عليّ في آخر مكالمة على ضرورة أن أسبقهم إلى المقهى حتّى يلحق بي والطريدتان.

طبعا لم يفت زوجتي أن تسألني في عجب إلى أين أمضي يوم السبت عصرا بهذا العطر الفوّاح وهذه الأناقة غير المعهودة؟ أجبتها أنّي على موعد مهمّ، مع مسؤول بالوزارة، قد وضّب لي أحد أصدقائي الذي هو نسيب له، لقاء معه.

طبعا، لقد كانت تلك كذبة. بل كانت أوّل حقارة ونذالة أتفوّه بها، معلنا عبرها موت شيء اسمه ضمير حيّ تجاه زوجتي وأسرتي. بلعت ريقي بمشقّة وأنا أشغّل محرّك السيارة، متأملا تقطيبة جبيني على المرآة العاكسة، دون أن أجرؤ على مدّ يدي ومسح العرق عن مقدمة رأسي.

كانت تلك بداية نهاية استقرار حياتي الأسرية. وكان القدر المحتّم، الذي سيسحق عظامي بين صخرة وجبل، محجوبا عن بصري وبصيرتي عند انعطاف ظهر على حين غرّة على الطريق المعبدة التي انطلقت عبرها بسرعة قصوى، انعطاف كان قطعة من طريق منسيّ في الماضي، انبعثت من جديد في زمني هذا، لتحدث بحياتي كلّ هذا الضرر.

جلست، والتوتر يأكل أطرافي، بمقهى الشرفة الكبرى، في انتظار دام لما يقارب الساعة. ثمّ ظهر مراد عبر باب شرفة المقهى الفسيح، يتوسّط الطريدتين، يتجاوز في اتزان الطاولات ويضاحكهما بخبث. كنت أنا

أطالع في جريدة، فعدت إلى فتحها أمام وجهي متظاهرا بعدم رؤيتهم، وبلا مبالاتي بما يجري من حولي.

وصلني صوت مراد من وراء الجريدة وهو يسارع إلى تقديمي لهما. وكان قد أخبرني عبر الهاتف أن صاحبته اسمها هناء، وأنّه سيعمد إلى تقديمهما لي بالأسماء حتى يتسنّى لي التعرف على طريدتي المقترحة منذ البداية. وضعت الجريدة أمامي فوق الطاولة واستقمت واقفا مادّا يدي لمصافحتهما بلباقة احترام مسؤول لي بالعمل. وهما كذلك رسمتا لي بشفاههما الحمراء على وجهيهما الملوّنين بإفراط بسمتين شهيتين.

جلسنا جميعا للمائدة. شرع مراد في حديث خافت مع هناء التي راحت تضحك في خجل زائف على كلّ كلمة يهمس لها بها. أمّا وفاء، طريدتي المحتملة، والتي جعلتني الإثارة الطافحة من جسدها وزينة وجهها أتغاضى عن كونها لا ترقى إلى درجة المقبول في معيار الجمال خاصّتي، فقد راحت تلعب بأناملها موجّهة عينيها نحو الأسفل، متصنّعة انتظارا مدروسا وترقّبا هادئا لمبادرة منّي. وبينما أنا أسحق أصابعي مع بعضها في توتّر، وقف النادل قبالتي مبتسما، فكانت تلك هي الفرصة لأباشر الكلام:

- ماذا تشربين؟ سألتها.

عصير برتقال إذن، بل عصيران، وقهوتان، إحداهما هي الثانية لي بعد الأولى التي استهلكتها وقت ساعة الانتظار. ورشفة أولى من الكأس الساخن الذي سرعان ما وضع أمامي جعلتني أسعى دون تردّد إلى فتح أيّ حديث كان مع الفتاة العشرينية. أسئلة، وطرائف، وتلميحات خفيفة، جعلتني أدخل في جوّ الفتاة، وأدخلها هي كذلك في جوّي، بينما ازدياد شعوري بالإثارة جرّاء تبادل النظرات والتلميحات جعل فكري يحلّق سريعا نحو الشقة السرية، والتفكير في الوقت الذي يمكن أن أختاره بجدول البرنامج.

استدراج فتاة إلى وكر الذئاب هو أمر أسهل ممّا توقّعت، بل إنّه صار أسرع في هذا العصر ممّا كان عليه أيّام الدراسة، أي قبل زهاء عقدين من الزمن. وكأنّ وثيرة العالم المتسارعة تلقي بتأثيرها على كلّ مناحي الحياة، حتّى على أقذرها. فاليوم، لم تعد ملزما بافتراء كذبة كبيرة على مسامع فتاة حالمة، كأن تعدها مثلا بالزواج، أو تأسرها بحكايات خرافية عن شخصيتك وعائلتك وأحلامك في الحياة، ثم تضيف على المقادير الأولى كذبة شاعرية تعبّر لها من خلالها عن مدى حبّك لها. تظلّ تُكرّر هذه الأكاذيب كلّ يوم على مسامعها، وفي كلّ مرة يكون الإلقاء بصياغة جديدة وتفنّن في الأداء، حتّى إذا استيقنتَ أنّ الطعم قد علق في حلق السمكة، قُمتَ بسحبها بهدوء نحو اليابسة. أمّا اليوم، في عهد السمارتفون والصورة عالية الوضوح، فيكفيك أن تقلّها في السيارة لعشر دقائق ثم تقترح عليها ببساطة الذهاب معك إلى الوكر، ليجيئك الرد المقتضب: «حسنا!». فتيات هذه الأيام في أغلبيتهن، لم يعد يهمّهن الزواج، والحصول على رجل للزمن، وتكوين أسرة وبيت، كما كان يشغل أمهاتهن، بل هن صرن يحملن شعارا آخر: «أريد أن أعيش الحياة!»، هذا ما اكتشفته عبر تجاربي مع فتيات الوكر كما صرت أسميهنّ. ووفاء، فتاة الوكر الأولى، بعد جلستنا تلك بالمقهى رفقة صديقتها ومراد، ضربت معها موعدا آخر في نفس المكان، وحسب توجيهات من الذئبين الآخرين، مراد وعمر، فبعد الحديث قليلا بالمقهى أخذتها في جولة عبر السيارة، دامت لربع ساعة، وانتهت عند باب العمارة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أخون فيها زوجتي خيانة عمليّة، حتى وإن قلت إنّ مشاعري ظلت معلّقة بحبال حبّها، غير أنّ الإثارة ونشوة التحدي والمكر الذي عاد للاشتغال بعد ركود السنين، أشياء أعمت بصيرتي وضلّلت بوصلتي، فتخبّطت في مستنقع لذيذ، بلعني ولم يطرحني إلّا بين يديّ السوط الذي جلدني.

كانت تلك أعظم خطيئة أقترفها في حياتي. عدت ليلتها إلى البيت في وقت متأخّر على غير عادتي. وكان عليّ إيجاد مبرّرات مقنعة ونجاة تسألني عن سبب كلّ هذا التأخر بعينين مرتابتين. كنت لأشعر بالندم حينها، لولا أنّ انتشائي بنجاحي في مهمتي الأولى بجلب فتاة يافعة إلى الوكر اللعين غلب حتّى على مخاوفي من أن تكون نجاة قد شكّت في شيء. لقد كان إحساسا لذيذا، كمراهق نجح أخيرا في أخذ رقم هاتف فتاة ثمّ عاد إلى أصحابه تحت وابل من تصفيقاتهم. وكذلك مراد اتصل بي في الغد يسألني:

- كيف سارت الأمور؟ فوجدتني أردّ في فخر وسرور: على أحسن ما يرام.

وبينما أنا متريّث قليلا قبل الاتصال بوفاء من أجل لقاء جديد، باغتتني هي بعد يومين بسيل من الرسائل القصيرة على الهاتف تصف شوقها المتّقد لي ورغبتها الملحّة في مقابلتي. كنت أقرأ الرسائل وأنا جالس على كرسيّ مكتبي بالعمل، وابتسامة أقوى من عضلات وجهي أشعر بها ترتسم بوضوح عليه، بينما سيول من العرق تتولّد على جبهتي وتحت قميصي. تخيّلتني كفارس استعاد مرّة أخرى فروسيته. وشعرت بالفرق بين ما يمكن أن تقدّمه لك فتاة جامحة وبين ما تقدّمه لك زوجة هامدة. ومادامت الحياة المفعمة بالشباب والبهجة وروح التحدّي تدعوني لأعيشها فإنّه لا يحقّ لي إلّا أن أمنح لنفسي الحقّ في عيشها.

حكاية الدكتور عمر

(2)

الدكتور عمر يحكي...

أنا لا أتحدّث كثيرا في السياسة. أقصد السياسة المحلية، بل لعلّي لا أحبّ ذلك، وتجتاحني حالة من النفور حين أسمع الناس يخوضون في نقاشات مملّة ومكرّرة عن شؤون البلاد السياسية. عندها أقول لهم ببساطة: إنّ البلاد تمضي، هكذا تمضي وفقط. طبعا أنا مستاء، بل إنّي كذلك مستاء منذ زمن بعيد، وعلى وجه الدقّة حينما رجعت إلى المغرب بعد إتمامي لدراستي للطبّ في روسيا وقد تمّ القذف بي إلى مستشفى ملعون، فصرت أحمل على كتفيّ أعباء آخرين وأدفع ثمن قرارات خرقاء لم تكن لي فيها ناقة ولا جمل.

حين حلّقت الطائرة فوق مطار موسكو في رحلة العودة، ارتجّ قلبي داخل صدري ارتجاجا فاق ارتجاج الطائرة العنيف. قلت بفم مدهوش وأنا أتابع عبر النافذة الصغيرة مشهد الأرض وهي تتباعد: ها أنا ذا عائد إلى الوطن. وحين حطّت الطائرة ثم توقّفت أخيرا في مطار الدار البيضاء كان قلبي قد انزلق من صدري، يسبقني نازلا عبر السلالم شوقا لاستنشاق هواء الوطن. فكيف كنت سأتحمّل البقاء في الطائرة لحظة أخرى وقلبي

راح يتجوّل بين حارات الوطن وشوارعه، ثم يرتاح في ظلّ شجرة برتقال قبل أن يعود للقفز بين أسطح البيوت البيضاء وأرصفة الطرقات الرمادية وصخور الشواطئ الصفراء، يتأمّل وجوها ملوّنة قد مزجت ملامحها الصحراء بالبحر بالجبل؟ كيف سأقعد ملتصقا في خمول بكرسيّ الطائرة وهي الآن قد رست فوق الأرض التي راح قلبي يشتمّ عبق ترابها حين يغسله وابل المطر؟ يا ليتها كانت تمطر الآن فعلا، حتّى أغرف من أوّل بقعة تراب مبلّل حفنة منه أقبّلها وأنا أستنشق أريجه العطر!

أنا الآن أخطو أوّل خطوة على أرض الوطن، فتلتصق قدماي بالمكان، بينما عاصفة دفء تجتاحني. ثمّ تتحوّل العاصفة إلى إعصار وعيناي تلتقطان ملامح تلك الوجوه الساطعة بين الحشود كشموس ناعمة، تتقدّم صوبي كتلة واحدة، وتشملني بتيّار ساخن من العواطف، فما كان لدموعي إلّا أن استجابت لقوّة اللحظة تسيل بتفاصيلها الدقيقة، بينما قلبي أحسّه قد عاد مرتاحا إلى صدري.

بعد أشهر قليلة من رحلة العودة تلك، وجدتني أزاول عملي الحلم بمستشفى بمدينة صغيرة بعيدا عن بيت العائلة بحوالي ثلاثمئة كيلومتر، مدينة أضحت مباشرة مكان استقراري الجديد. في البداية انكببت بشغف على العمل وأنا أرى فيما أقدّمه من إخلاص وتفان خدمة للوطن، فلماذا أذهب للدراسة بالخارج ثمّ أعود للعمل هنا؟ أليس لكي يستفيد أبناء الوطن من العلم والتجربة التي جئت بهما؟ وما دام قد اجتمع بقلبي حبّ الطبّ والبلد فالحافز في أداء الخدمة سيكون مضاعفا. هذا أمر جيّد، لكن حين انتبه إليه مسؤولو المستشفى استغلّوه وبشكل بالغ الإفراط. لقد تحوّلت مع مرور الوقت إلى المنقذ الذي لا يتردّد في تلبية نداء الوطن حتّى وإن كان ما أقوم به خارج نطاق صلاحيّاتي. لقد كنت أعمل لأسبوع أو أكثر دون مغادرة المستشفى وفق شكل جعلني أداوم طيلة ساعات الأسبوع إلّا لوقت قصير من النوم بمهجع أطباء الحراسة تقطعه في كثير

من المرات حالات طارئة وافدة، أكون أنا هو الطبيب الوحيد المتواجد حينها. لقد كانت تجربة مريرة، فقد رأيت من الأهوال ما لم يخطر ببالي من قبل. ومادامت مسؤولية مواجهة ذلك تلقى على عاتقي وفق هذا البرنامج الذي لا يمنحني فرصة التقاط أنفاسي، ثم يعود ليتكرّر مرّات ومرّات، فقد تصوّرتني كجنديّ في معركة حامية الوطيس، مهمّته إنقاذ كلّ جرحى ومعطوبي ومرضى الحرب الذين خرجوا للقتال رفقته.

لقد تحمّلت ذلك، ولا أفهم الآن كيف كنت أتحمّل ذلك؟ هل احتججت يوما؟ قلت لمدير المستشفى شيئا؟ وقفت منفعلا وسط اجتماع جمع كلّ العاملين بالمستشفى وصرخت في وجوههم: حرام عليكم ما تفعلونه بي. هل لطمت طاولة الاجتماع ثم صرّحت لهم: أنتم تستغلّون حبّي للوطن وشغفي بهذه المهنة وتستغبونني؟ هل بذاكرتي شيء كهذا؟ أم ماذا؟ لا يوجد؟ ألأنّه لم يحدث؟ هل تحمّلت كلّ تلك الويلات دون أن أعترض أو أحتجّ؟ هل أنا مستكين إلى هذا الحدّ الفظيع؟

بعد مرور السنين الطوال، وبعد أن نزعت البدلة البيضاء الناصعة، والتي أضحت من جرّاء ما شهدت شهباء شاحبة، مضطرّا من على جلدي، فتحوّلت، كما يتحوّل كلّ شيء بغرابة في هذا البلد، من الطبيب المعالج إلى الموظّف الإداري، واصل حبّ الوطن تأثيره على علاقتي بمهنتي الجديدة، وظلّت غيرتي على شؤونه ونمائه حاضرة ويقظة. فهل يتمّ استغلالي الآن في العمل كما حدث في الأوّل؟ المهم أنّ الأمر لن يكون في حدّة ما سبق.

رغم ذلك، رغم كلّ عشقي وغيرتي على الوطن إلّا أنّي لا أحبّ الحديث في السياسة الوطنية. أتحدّث في الرياضة، في أحوال المجتمع، في الثقافة والفنّ، لكن السياسة، هكذا مجرّدة، فإنّي أتحاشى بعفوية الخوض في حماقاتها.

وعلى النقيض تماما، فأنا أتحدّث كثيرا في السياسة الدولية، بل أعشق

ذلك. أتابع مستجدّاتها باهتمام، وأشارك في النقاشات الجارية حولها بقوّة وحضور. ولديّ آرائي الخاصة فيها. وإن كان كثير من الناس لا يتفقون معي فيها وينتقدونها إلّا أنّي أتشبّث بها بقوة، وأدافع عنها بشراسة. فمثلا، أنا أعتبر أن العالم مازال ثنائيّ القطبيّة، رغم أنّ الاتحاد السوفياتي قد تفكّك وصارت كلّ دولة من دويلاته تهتمّ بشؤونها الخاصة، إلّا أنّ روسيا دولته المركزية قد حافظت على هيبته، على الأقلّ سياسيا، لا سيما في عهد بوتين الجديد. أضف إلى ذلك دولا أخرى تتشبّث بولائها للمعسكر الشرقيّ، كالصين، القوة الاقتصادية الثانية في العالم، وكوريا الشمالية التي ترعب جيرانها الرأسماليين بصواريخ نووية تمتلكها هي الهزيلة اقتصاديا وهم الرائدون في الصناعة لا يحوزونها، بل وتتحدّى بذلك حتى كبرياء الولايات المتحدة. وماذا عن كوبا كاسترو وفنزويلا تشافيز وغيرهما؟ ألا يمثل كلّ هؤلاء القطب العالمي الثاني؟ أليسوا ندّا للقطب الآخر الذي يعلن هيمنته على ما تبقّى من العالم بعيدا عن الاحتكاك المباشر بهم؟ ألم تعترض بارجات روسيا مؤخّرا الأسطول الأمريكي في البحر الأبيض المتوسط عندما تقدّم نحو السواحل الشرق أوسطية؟ وماذا عن استخدامها للفيتو إلى جانب الصين، وتدخّلها في سوريا عسكريا، أليس هذا دليلا واضحا على حضورها السياسي والعسكري أيضا؟ ألم تتدخّل قبل ذلك في الشأن الأوكراني والقرمي؟ ألا يثبت هذا وجهة نظري أنّ نظرية القطب الأوحد هي مجرّد كذبة ووهم؟

لكنّ أغلب الناس يتصدّون لآرائي ويسخرون في أحيان كثيرة. والقليل فقط من يرى فيما أقول وجهة نظر قابلة للنقاش. وأنا في النهاية لا أهتمّ لآرائهم المتزمّتة، ولا أشغل بها بالي حتّى، فأنا أعلم أنّ جلّ الناس يرون في هذه المسألة دائما عكس ما أرى.

قد يعتقد البعض أنّي شيوعي. لكنّي لست كذلك بتاتا. فمبادئ الشيوعية لا تهمّني بشيء. وأنا لا أخوض كثيرا في صراع الأيدولوجيات،

فما يهمّني في النهاية هو الأفعال، لذلك فأنا أرى الصراع في العالم من الوجهة السياسية لا الإيدلوجية، حتى وإن كانت هناك روابط بين الوجهتين، إلّا أنّ تحليلي غالبا ما يروم المواقف والأحداث لا الرؤى والأفكار.

حكاية نبيل

(3 – قصاصات حلاقة)

شهريار يحكي...

«الحلاق البارع هو الذي يعرف شكل الحلاقة التي تناسب كلّ شخص.»

حينها، كنت بالكاد متدرّبا أنتقل من صالون إلى آخر، وكانت أناملي غير قادرة بعد على التحكم في المشط والمقص وفق الشكل المطلوب، لذلك فقد مثّلت لي هذه الفكرة طموحا أكبر من سقف المرحلة التي ظللت أتخبّط في قاعها لعدّة أشهر، فرأيت أنّه من الأجدر الاحتفاظ بها في مكان غير ذاكرتي، حيث من المحتمل جدّا أن يطالها النسيان أو التشويش مع زخم عبور الأيام وما يحمله الزمن في طيّاته من أحداث وأشياء، لذلك، تناولت المقصّ وقصصت الجزء من الجريدة حيث كتبت العبارة، التي قالها حلّاق إنجليزي متمرّس، ضمن حوار أجرته معه جريدة التايمز حول أسرار الحلاقة، والذي ترجمته إحدى جرائدنا ونشرته. ثمّ ألصقت القصاصة في زاوية الجدار المقابل للسرير حيث أنام. هكذا فقط، اطمأننت على ترسّخها وبقائها قريبا منّي أطول وقت ممكن، ما دمت أفتح عينيّ كل صباح وأغمضهما كلّ ليلة عليها.

التصاق القصاصة بالحائط أمام عينيّ، جعلها تلتصق مع مرور الوقت بذاكرتي، لذلك طفت على تفكيري من جديد، بعد زمن، حين وجدتني قد صرت أخيرا حلّاقا يمتهن حرفة تشذيب الرؤوس.

هو قال «شخص»، ولم يقل «رأس»، و«شخص» تشمل «رأس». هكذا بدأت فكّ شفرات العبارة التي نطق بها ذلك الحلّاق الإنجليزي الشيخ، فكنت أتمهّل ما استطعت قبل أن أحرّك المقص فوق الرؤوس، وقبل أن أترك الآلة الكهربائية تحصد الشعرات. أمنح لنفسي وقتا لدراسة تضاريس الرؤوس، وتأمّل الوجوه، والتدقيق في النظرات. قبل ذلك، يكون الهندام وطريقة إلقاء السلام وأسلوب الخوض في الحديث قد مرّت جميعا بفحص سريع ومكثّف.

وكلّ هذا يبقى في النهاية نسبيّا. لأني في آخر كلّ يوم عمل، كنت أراجع في ذاكرتي الرؤوس التي مرّت تحت رحمة مقصّي، أكانت نتيجة الحلاقة ملائمة لهؤلاء الأشخاص، أم أني حلقت لهم جميعا على نفس المنوال؟ حين يطلب منك زبون أن تحلق له حلاقة معيّنة، فهو يكون قد أزال عن كاهل الحلّاق مسؤولية تحديد الحلاقة الملائمة. أما الذين يطالبون بحلاقة لمناسبة معينة يعزمون حضورها، فالحلاق سيبالغ قليلا في التفنن لتبدو حلاقة المناسبات مغايرة لأي حلاقة عادية. أم ما قاله الحلاق الإنجليزي، فهو أمر تركت مسألة الخوض فيه، مع هؤلاء الذين يسلّمون لك رِؤوسهم لتفعل فيها ما تشاء.

في معهد الحلاقة، أذكر أنهم صنّفوا لنا نوعين من الحلاقة، حلاقة عاديّة، وحلاقة تخصّ الموظفين والمدرّسين والمحترمين. والتقنيات بين الصنفين تختلف، وكذلك استعمال الأدوات. وقد درّسونا ذلك كأساس من أسس مزاولة حرفة الحلاقة. لكن لا أحد منهم أخبرنا بما قرأته في تلك الجريدة وجعلت منه قصاصة أعلّقها. لعلّه ليس أمرا يُدرّس أو يعلّم، بل أظنّه نتاج مزيج من الموهبة والتجربة وقوّة الملاحظة والذكاء... أشبه

بخطّة يضعها مدرّب كرة قدم. إنّه مزيج. ويتغير حسب ظروف كلّ مباراة.

في مجلّة أخرى، متخصّصة في الموضة والأزياء وجدت شيئا آخر يصلح أن يُقصّ ويُعلّق أمام نظري: «الحلاقة ليست مجرّد حرفة، إنها فن، والحلاق يحمل بين أنامله رسالة ذوقية، تبلّغها رؤوس الخارجين من صالونه.». إذن، فالذوق، والجمال، هي أشياء كان عليّ أن أراعي حضورها وأنا منكبّ في سعيي لتحقيق المقولة الأولى. وإن كانت ذات طبيعة اعتباطية، ومبنية على أحكام ذاتية، قد تختلف من شخص إلى آخر، إلّا أنّها في النهاية تعكس حسّا إبداعيا من طرف الحلّاق.

أما كون الحلاقة فنّا، فهذا أمر يقال لكبار مصمّمي القصات والتصفيفات، الذين لا يلامس مقصّهم إلا شعر نجوم السينما، ومشاهير الرياضة، والأثرياء عبر العالم، أما حلّاق مثلي، يعجّ صالونه بمختلف أنماط البشر، من حرفيّين وتجّار وباعة متجوّلين وحرّاس ليليين وطلّاب وبعض الموظّفين والمدرّسين... وغيرهم، فكلمة فنّ بمعناها الهائل، هي شيء ينتمي لعالم الخيال لا غير. أنا لا أستنقص من قيمة ما أقوم به، لكنّي لا أريد أن أكون واهما، وأنا الذي أقضي يومي أعارك لإرضاء هذا الزبون وذاك، مقابل أجرة تتأرجح بين العشرة والعشرين درها كأقصى حدّ.

حكاية سمير

(3)

سمير يحكي...

ابنة المصلوحي، تلك التي أجهل اسمها، ذات العينين الدائريتين، تزيدهما اتساعا رموش ساطعة، تشبهان الشمس كما يرسمهما الصغار على الكراسات والأوراق البيضاء، تلك الفتاة الهادئة، أوقعتني بلا هوادة محترق القلب في شباكها.

لكم انتظرت هذه الساعة!

شاحنة برغامي الهوندا تضجّ المكان بسعال محرّكها العليل، فيقفز قلبي داخل صدري غبطة ورهبة. سألني برغامي نازلا من عربته:

- هل أنت مريض؟ فمك شاحب ووجهك مصفرّ كالبطيخ.

- لم أنم جيّدا البارحة. أرق لعين يا صاحبي.

- وما سبب هذا الأرق؟ هل نوى الوجدي الاستغناء عنك؟

- وهل يجرؤ؟ أين سيجد مساعدا مثلي يطيق بلادته.

- احذر أن يسمعك!

- إنّه يسمع، أذناه لا يفوتهما التقاط طنين ذبابة.

– ماذا قلت أيها الكلب؟ قالها الوجدي خارجا عبر باب الورشة.

– أنا أمدحك يا معلّمي.

– وهل يسمّون هذا مدحا في بلدكم؟ يسألني بينما برغامي ينفجر ضاحكا.

– إن كان أن تنعت أحدا بالكلب، كما تفعل أنت دائما، مدحا في بلدكم، فما قلته في حقّك تعتبره عشيرتي غزلا.

– باشر عملك أيها الجرو! المصلوحي سيفكّ فكّك إن تأخرت دقيقة زيادة.

– كيف تحدّث معلّمك بهذا الشكل؟ همس لي برغامي وأنا أمدّه «السدّاري» الأوّل ليضعه في صندوق شاحنته.

– إنّه وغد يا برغامي، وهكذا عليك أن تكلّم الأوغاد.

– لقد سمعتك أيها الكلب.

– ألم أقل لك يا برغامي أنّ أذنيه...؟

– سأصعد إلى البيت لتناول الفطور، وأنتما واصلا تنكيتكما حتى يجيء المصلوحي يقتلع أضراسكما.

صعود المعلمّ لتناول فطوره أراحني كثيرا، فقد ضمنت قيامي بمهمّة التسليم، لذلك حثثت برغامي على الإسراع في شحن العربة قبل رجوعه.

من بعيد لمحت دار المصلوحي، وارتقبت سطوع العينين الشمسيتين من النافذة المشرّعة، بينا عربة برغامي المتهالكة تموج بنا متجاوزة حدبات أرض الزنقة المتقاربة.

لكنّها لم تطلّ. عندها قلت إنّي لن أراها ما لم أصعد هذا الدرج. وبيت المصلوحي مكوّن من طابقين إضافة إلى الطابق السفلي. ربما هي في الطابق الثاني الآن، والصالة في الطابق الأول، أو العكس. رحت أفكّر سريعا في الاحتمالات.

ثم نزل المصلوحي. وجدت وجهه قبالة وجهي، يضع كعادته نظّارتين بنّيتين لا أدري أهما لتحسين النظر أم شمسيتان، أم أنّه يضعهما هكذا فقط؟ وماذا عن عينيه؟ أهما كعينيها؟ أم أنّها قد ورثتهما عن أمها؟ أنا لم يسبق لي أن حدّقت في عينيّ أمها، لا في تلك المرة حين زاروا الورشة، ولا في أيّ مرّة قبلها. وهل أنا أجرؤ؟ ولا أعتقد أن أحدا آخر سيجرؤ مهما امتلك من رباطة جأش، على التحديق في عينيّ زوجة المصلوحي، حتى وإن كان ذلك من خلال صورة لها بالبطاقة.

قال إنّ الصالة في الطابق الثاني، بينما يتمايل في اضطراب شاربه الأسود الكثيف، الذي يتدلّى كرزم من البصل، حاجبا شفته العليا كلّية، يزيده هيبة وحضورا، ويزيدني أنا فزعا من مجرّد تصوّر أنّه قد شكّ بما تموج به نفسي تجاه ابنته.

بدأت أنا وبرغامي رحلة الصعود والنزول قصد حمل «السدادير» الخشبية إلى حيث أشار المصلوحي. كان باب الطابق الأول مغلقا، بينما كان الطابق الثاني مقفرا إلّا من جسد المصلوحي الضخم الذي وقف في البهو يتابع حركاتنا الرتيبة. لم تستغرق عملية نقل القطع الخشبية طويلا، مادامت أجسادنا تستجيب لا إراديا لنظرات صاحب الدار المستعجلة.

انتهى كلّ شيء سريعا، أسرع مما تصوّرت بكثير. ووقفت أنا وبرغامي ننتظر حدوث شيء. وإن كنت أنا أترقّب إطلالة من صاحبة العينين الشمسيتين، فرفيقي كان ينتظر مما لا شك فيه إكرامية إضافية من المصلوحي. لكنّ الظاهر أنّ السيد المصلوحي قد هان عليه أن نظلّ معلّقين في خلاء الزقاق، لذلك فقد أطلّ من نافذة الطابق الثاني مجلجلا بصوته تجاهنا:

- ماذا تنتظران؟ تدبّرا حالكما مع المعلم، فأنا سأدفع له هو وليس أنتما.

صعد برغامي الشاحنة، وطلب منّي توجيهه حتى تصير العربة في وضع

مناسب للخروج من الزقاق. رفعت بصري بحذر تجاه النافذة، فابتسمت مطمئنا أنّ وجه المصلوحي قد عاد أدراجه. وما كدت أتحرك من مكاني لمتابعة حركة عجلات عربة برغامي حتى لفت انتباهي انفتاح باب الدار الخارجي. عادت الرهبة لتربكني وأنا أتصوّر المصلوحي يندفع من دراه جافلا وهو يضع وجهه قريبا من وجهي مؤنّبا بصوت عال يصاحبه رذاذ من اللعاب:

- ألم أطلب منكما الانصراف أيها الوغدان؟

لكن ما وصل سمعي، وأنا بعد واجم ببصري صوب الباب، كان صوت برغامي يستحثّني التدخل، وقد ارتطمت عجلتا شاحنته الخلفيتين بحجر أو شيء مغروس في الأرض.

ازداد صوت برغامي ارتفاعا حتى أضحى كسبّ أو صراخ، حين استغرق زمن استجابتي لندائه الأول وقتا أكثر من اللازم، بينما رددت أنا على ذلك مخاطبا نفسي: «فلتذهب أنت وعربتك اللعينة إلى الجحيم!»، قلت ذلك لأنّي كنت مشدودا، مسحورا، مغلولا بخيوط أشعة ناعمة، بعثتهما صوب قلبي المتردّد شمسان سطعتا على حين غرّة من الباب الموارب.

راح قلبي يرفرف كعصفور غادر بالكاد قفصه، بينما حلّقت ابنة المصلوحي كحمامة رشيقة عبر فضاء الزقاق. وقف برغامي عن يساري صارخا في أذني:

- هل أصابك الصمم، أم تبحث عن شيء لعين ضاع منك؟

- اسبقني إلى الوجدي حتى ألحق بك.

لم أستوعب ما قاله برغامي وهو يحرّك يديه بانفعال كأنّه يخاطب عربته، بينما انطلقت أنا مهرولا في أثر الحمامة، دون أن يفوتني الالتفات صوب النافذة حتى أتكون متيقّنا أن المصلوحي لم يعد لمدّ عنقه عبرها من جديد، وقد تخيّلته ينصت على مضض لثرثرة زوجته وهي تمجّد في انبهار التحفة الفنية التي أُلحقت بأثاث دارهم قبل قليل.

حكاية عبد الإله المنصوري ونادية

(3)

نجاة تحكي...

أيعقل هذا؟ هل صحيح ما وقع؟ هل واقعيّ ما يجري؟ أنا لا أصدّق الأمر. أريد أن أصدّق لكنّي غير قادرة إطلاقا على استيعاب ما يجري. هل أحلم؟ هل أنا نائمة وهذا مجرّد حلم، بل كابوس لعين يجعلني أصدّق أنّ ما يجري فيه من أحداث هي حقيقية فعلا؟ أجل، ربما هو مجرّد كابوس، فذهني ليس حاضرا كما يجب، وكأنّه غير موجود، كأنّي تركته في مكان بعيد، كأنّه ليس ذهني، أنا لا أتقبّله أو هو لا يتقبّلني. عقلي، عقلي طار. طار بعيدا عنّي، بعيدا... هل أنا فاقدة للوعي الآن؟ يا الله! ما الذي يحدث لي؟ ما الذي يجري؟ إنّني أختنق. أضلعي تنحشر داخل رئتيّ. وقدماي لم يعد لهما وجود. لا أشعر بهما. أنا واقفة؟ أمشي؟ بل أنا أطير في االهواء، أقصد في الفراغ، فلا أرض تحتي، ولا سماء فوقي، أنا وحدي، وحدي داخل فجوة بلا أبعاد.

خبران، نزل الأوّل على رأسي كالصاعقة، وقبل أن أتجرّعه كفاية، نزل عليّ الثاني كطوفان من وحل أنكسني إلى الأرض وأغرقني في دوامة.

مع الصباح الباكر اتصل بي شرطيّ، لم أدر كيف حصل على رقم

هاتفي، يخبرني أنّ زوجي قد تعرّض لحادثة، وأنّه قد نُقل إلى المستشفى وحالته ليست خطيرة، فلا داعي لأن أهلع. لكنّني هلعت، بل ولولت ولطمت وخرجت في بيجامتي وشعري المنكوش أكاد أحطّم باب دار جارتي فاطمة، أستنجد بها أن تهدّئني وتثبّتني.

تركت الأولاد عندها بعد أن ألبستني جلبابي ومنديل رأسي، ومسحتْ وجهي بماء من الثلاجة بارد. ثم مضيت جافلة إلى قسم الشرطة حيث أشار إليّ الشرطيّ المتصل، رغم إلحاح فاطمة عليّ التريث قليلا حتى تعمّ بعض الحركة بالخارج، لأنّ الوقت كان لايزال باكرا. مع ذلك أكترث لما تقول، ولم أنتظر حتّى أن تستيقظ إحدى الجارات الأخريات فترافقني.

قطعت كلّ تلك المسافة التي تفصل بين البيت والشارع الرئيسي بأسرع من البرق، حتى أنّي لم أكن أعي من أين تمرّ بي قدماي، أو إلى أين تقودني تلك الأزقّة كثيرة اللفات متشابهة نوافذ البيوت والجدران والأبواب، لكن وجدتني في النهاية واقفة في الشارع أترقّب عبور حافلة أو سيارة أجرة كبيرة كانت أو صغيرة. انتظرت طويلا أم قليلا؟ لا أستطيع التحديد، لكنّي أتذكر ألّا سيّارة أجرة عبرت الشارع من قريب أو بعيد وأنا في وقفتي العجيبة تلك، في ذلك الصباح الباكر الغريب، وعقلي متحفّز إلى حدّ أنّه أوشك على أن يغيب.

كانت تلك حافلة التي استقللت، أوّل حافلة ربما خرجت للخدمة في ذلك الصباح. كنت أعلم أنّها ستوصلني إلى قسم الشرطة دون أن أفكّر في ذلك أو أراجعه في ذاكرتي. كأنّ عقلي المتيقّظ إلى ما فوق المعقول كان يشتغل في استقلالية عن تحكّمي. بل هو الذي كان يقودني في ذلك الصباح. هل هو ما يسمّونه اللاوعي؟ العقل الباطن؟ مهما يكن اسمه، فالمهم أنّه أوصلني إلى المكان الصحيح.

أخبرت الشرطيّ الذي استوقفني في الباب عن المكالمة التي تلقّيت فدلّني على مكتب، دخلته وأنا أرتعش. طلب منّي الشرطي الجالس

هناك، والذي يبدو أنّه ضابط أو مسؤول الجلوس أمام مكتبه في الكرسي. جلست. وقبل أن يقول شيئا سألته والدموع تتدفّق فوق وجهي:

- أخبرني يا سيّدي، ما الذي جرى لزوجي؟ هل هو بخير؟ وأين هو الآن؟ أريد أن أراه يا سيّدي وأطمئن عليه؟ أرجوك أن تدلّني بأي مستشفى هو الآن؟

- اطمئنّي يا سيّدتي زوجك بخير.

كان صوته غارقا وثقيلا، ووجهه لا تظهر عليه أدنى علامات القلق، الأمر ربّما الذي حمل إلى نفسي المنهارة بعض الاطمئنان. فمسحت الدموع عن وجهي ومنخاريّ بكمّ جلبابي، وتمهّلت قبل أن أطرح أي سؤال آخر.

- سنحتاج إلى بياناتك. هل أحضرت معك البطاقة؟

- لا لم أفعل، نسيت يا سيّدي. سأذهب لإحضارها من البيت فورا.

قلتها وأن أهمّ بالوقوف، لكنّ الضابط استوقفني حين قال:

- لا، لا يهمّ. حتّى تحضريها في المرّة القادمة.

وأنا أعود للجلوس، سألته وقد رجعت دموعي تسابق بعضها:

- المرّة القادمة؟ ولماذا هناك مرّة قادمة؟ هل حصل مكروه لزوجي؟ أخبرني الحقيقة يا سيّدي أرجوك.

- أقسم لك بالله أنّ زوجك على ما يرام. فقط بعض الجروح الطفيفة.

- جروح؟

- جروح طفيفة يا سيّدتي، كالتي تحدث لك حين تقشّرين الخضار بسكّين المطبخ. لذا أرجو أن تهدئي حتى أستطيع القيام بعملي ودون هدر لمزيد من الوقت.

ثمّ طلب منّي موافاته ببعض معلوماتي الشخصيّة، والتي راح يدوّنها الشرطي الآخر الجالس في الجهة اليسرى للمكتب. ثمّ سألني عن زوجي

أين كان البارحة. بدا سؤالا غريبا. فأجبت وعيناي أحسّ بهما تتمدّدان نحوه:

– في مهمّة عمل خارج الرباط. المفروض أن يعود منها اليوم مساء.

– وهل تعوّد استخدام سيارته الخاصّة في مأموريات العمل؟

– طبعا لا. هو دائما يترك سيّارته ويذهب في سيارة المصلحة التي يقودها السائق.

– وأين يتركها عادة؟

– في موقف السيارات خلف العمارة.

– لكنّي سأؤكّد لك يا سيّدتي أنّ سيارة زوجك لم تُبت الليلة الماضية في الموقف الذي ذكرتِ خلف عمارتكم.

– كيف هذا يا سيّدي؟ أين تركها هذه المرة؟ أم أنّها سرقت؟

– لم تكن سيّارة زوجك متواجدة البارحة في مكان مبيتها المعهود لأنّ زوجك هو الذي أخذها.

– في المهمة؟

– في مهمة. لكنّها ليست مهمّة عمل كما تظنّين، لأنّ زوجك البارحة ظلّ بمقرّ عمله طيلة النهار يزاول واجبه المهنّي. وإنّما المهمّة التي خرج فيها كانت مهمّة شخصيّة، وسرّية أيضا. سرّيّة عليك أنت على وجه التحديد.

– سيّدي أنا لا أفقه من كلامك هذا شيئا. هل ترمي إلى أنّ زوجي يتاجر في المخدّرات مثلا؟ طرحت هذا السؤال مازحة ذاك المزاح الذي يكبح توسّع الهواجس في الرأس.

– بل يا سيّدتي، قالها ثمّ تنهّد بعمق، زوجك كان مع امرأة. والحادثة التي تعرّض لها كانت بواسطة سيارته الخاصّة، وكانت هذه المرأة أو الفتاة بصحبته. وكانا منتشيين، أي شاربين.

هل سمعت ما قاله حتّى النهاية، أم أنّي غبت عن الوعي قبل أن يكمل، ومع ذلك ظلّ صوته يصل إدراكي؟ وهل أنا فعلا فقدت الوعي حينها؟ أم ماذا كان ذاك الشيء الذي وقعت فيه؟ حفرة؟ هاوية؟ دوّامة؟

حكاية الدكتور عمر

(3)

شهريار يحكي...

الدكتور عمر، الطبيب السابق غريب الأطوار، صار كلّما يزور صالوني إلّا وحوّل جلساته الهادئة إلى معترك لنقاشات ساخنة. فيكفي أن يصادف وجوده عندي بثّ نشرة أخبار عن الصراعات الدائرة بالمنطقة العربية، أو أن يتحدّث بذلك أحد الجالسين بالصالون أو يطرح سؤالا حوله، حتّى يتصدّى الدكتور لذلك بتعقيب بنبرة واثقة وصوت مسموع من الرصيف الآخر. وبالتدريج، وفق خطّ تصاعدي في الأخذ والردّ، تشتبك الأصوات وتتعالى، وتتداخل الآراء وتتصادم، فيعمّ الضجيج من حولي، وتهتزّ الجدران والسقف، فلا أعود أميّز من الجدال الدائر شيئا، ولا حتّى الحفاظ على التركيز المفروض على الرأس أو الوجه المستسلم تحت رحمة الأدوات الحادّة بين أصابعي.

قد تخونني ذاكرتي، لكنّي أكاد أجزم أنّي لم أقابل شخصا يستخدم كلّ هذه الطاقة في نقاش هكذا. إنّها ليست طاقة كلام فقط، بل إن جسده ككلّ يتفاعل، كمسرحي كلاسيكيّ فوق الخشبة، أو كمطرب يؤدّي بإحساس صادق. وحتّى أكون دقيقا، فالأمر المدهش في كلّ هذا الانفعال لا يتعلّق

بحركات اليدين المعتادة أو الرأس، بل إنّ هذه الطاقة الكبيرة النابعة من تشبّثه الشديد برأيه تجعل صدره يتفاعل. أجل، كديك غاضب ربما. فهو يدفعه بشكل غريب إلى الأمام، وكأنّه في حالة انقضاض. تنتفخ أوداج عنقه، وتتقلّص عضلات وجهه، ثم يحتقن العنق والوجه بلون أحمر ساخن. تجفّ شفتاه حتى تصيرا رماديتين، وتجحظ عيناه، ويسيل العرق على جبهته وذقنه كخطوط مطر تتدلّى على الزجاج. عندها يكون صوته قد جلجل الفضاء، وكاد يصمّ الآذان. لكنّي، وحتى أكون منصفا في حقّ الرجل، فالدكتور عمر لا يكون منفعلا بالضرورة على هذا النحو المبالغ فيه عند إبداء رأيه، بل إنّ حالة الانفعال هذه تبلغه عندما يقابله تصعيد حادّ من أحد مجادليه. وهم كثر طبعا. لأنّ أراءه بصراحة تستفزّ آراءهم. فهو دائما يلسع أعصابهم حين يقول لهم: «أنتم لا تفكّرون، بل تنقلون ما تسمعون في الإعلام العربي دون فرز أو تصنيف.»

أمّا أنا، فموقفي من هذه الصدامات الحادثة في صالوني ومن المواجهات المحتدمة على الساحة العربية هو الحياد. فالأمور قد اختلطت عليّ منذ زمن. فأنا لم أستطع مواصلة تأييدي للربيع العربي مثلا، والذي عقدنا عليه أبراجا مشرقة من الأمل، ثمّ رأيناها تهوي فجأة نحو دمار وأطلال وضياع، وتجترّ في إثرها آلافا من الضحايا وملايين من اللاجئين. وحيادي هذا لا يثير حفيظة الدكتور عمر إطلاقا، بل على العكس هو يجد فيه فرصة لشقّ طريق نحو تفسيرات مفصّلة على مسامعي، لعلّ الهدف من ورائها هو إقناعي ببعض مواقفه وموافقته في بعض آرائه. وأبرزها هو كون الربيع العربي خريفا وليس ربيعا. وهذا النعت منه غالبا ما كان مقدمّة لمعركة كلامية حامية الوطيس.

ذات مساء، صادف أن كان حمزة جالسا بالصالون في انتظار اجتماع باقي أعضاء الشلة، وبينما قناة إخبارية عربية تقدّم فيلما تسجيليا عن ذكرى

أوّل شرارة أشعلت فتيل الربيع العربي، المتمثلة في حادثة إحراق الشاب التونسي البوعزيزي لنفسه، صرّح الدكتور عمر كعادته بصوت ساخر:

– أيّ ربيع عربي هذا الذي يحكون عنه؟ بل هو خريف قد أصاب أرجاء الأمة العربية، فأتى على أخضرها ويابسها.

انتبه حمزة جيّدا له وهو يتكلّم، فردّ عليه حانقا:

– الخريف الذي تتحدّث عنه قد أسقط الطواغيت.

– وماذا بعد سقوط الطواغيت؟ انظر إلى ما صارت إليه كلّ تلك البلدان التي نال منها ربيعكم، إنها تعيش حروبا أهلية وطائفية، لاجئون ومشرّدون، قتلى ومعطوبون، دمار وخراب ومجاعات...

قاطعه حمزة:

– ذاك هو ثمن الحرية. لا حرية للشعوب دون تضحيات.

– أجل، لكن حين تكون التضحيات في سبيل الوطن، وليس والوطن يخرّب.

– أو ليست تلك الثورات في سبيل الوطن؟ لقد كان لزاما على تلك الشعوب أن تنفجر ذات يوم في وجه ما تذيقها طواغيتها من خنق وظلم واستخفاف. أليس حريّا بها أن تعلن عصيانها وترفع صوتها وتشهر ثورتها وقد استباح هؤلاء الطواغيت أوطانها وأرزاقها وحرياتها؟

عندها انتفض الدكتور عمر في كرسي الحلاقة وقد كان شعر رأسه تحت رحمة مقصّي، ثم دار بزاوية مائلة نحو حمزة وردّ على كلامه بصوت غاضب:

– وهل تستبشر أنت خيرا من ثورات تباركها أمريكا وحلفاؤها؟

– أمريكا لم تجد من وسيلة تحمي بها عملاءها الطواغيت وقد خرجت شعوبهم بكلّ أطيافها تقلّعهم عن كراسيهم. ولا تنسَ أنّ أمريكا لم تكن لتستطيع التدخل لإنقاذهم والعالم كلّه يتابع: قنوات عربية وأخرى أجنبية

حكاية نبيل

(4)

شهريار يحكي...

بعد ثلاث سنوات بالحيّ الجامعي، وثمانية عشر شهرا بشقّة أخي محمّد المتواجدة بحيّ «مابيلا» بالرباط، اتخذت قرار سلك طريق العودة إلى القرية.

لملمت كلّ أغراضي، بما في ذلك قصاصاتي المعلّقة، والتي وضعتها بحرص داخل ملفّ من الورق المقوّى، والذي أنزلته بعناية إلى قاع حقيبة السفر بشكل أفقي، حتى لا يصيبه اعوجاج أو ضرر جرّاء احتكاكه بالأشياء الأخرى المكتظة بإسراف داخل الحقيبة، ثمّ ودّعت الغرفة، غرفتي، رغما عن أنف الألفة التي صرت أكنّها لها.

لم يكن من بدّ لبقائي هناك. فالدراسة، المهمّة التي خرجت من أجلها، قد أخفقت فيها. الحلاقة، زورق نجاتي الأخير من وصمة العار وأفواه الشماتة، قد حصلت على ديبلومها، وقد استوفيت أيضا ما قدرت عليه من تدريب في صالونات بالجوار. ثمّ إنّ أخي قد تقدّم أخيرا لخطبة فتاة، تشتغل معلّمة معه في نفس المدرسة، وقد اتفقا على أن يكون العرس مطلع غشت القادم. لذلك وجدت أنّه من الأفضل أن أخلي له السبيل

للتصرف في بيته استعدادا لاستقبال العروس. وحتما، فإن غرفتي تلك ستصير حسب مخطّط الزوجين القادمين شيئا آخر، غير ما كانت عليه زمن تواجدي بها. على الأقلّ، فهما سيضطران لترميم ما أحدثته في جدرانها من آثار لصاق وصباغة مقشّرة وثقوب مسامير وبراغي استخدمتها لتعليق ملابسي وبعض الأغراض الأخرى.

رجوعي إلى القرية في هذه المرحلة، عكس المرات السابقة، كان حاسما ونهائيّا، فلا شيء عاد يربطني الآن بالمدينة. وكان لزاما عليّ التفكير في الخطوة القادمة، وما يتوجّب عليّ القيام به، بدل السير رفقة القطيع أو حرث الأرض، أوسقي الأحواض، أو ما شابه ذلك من أعمال روتينية يتقاسمها أبي وأخي البكر إدريس وأبناؤه على طول فترات نهار البادية الطويل. فقد صرت أنا أتملّص من هذه الأشغال، خصوصا بعد الفترة الطويلة التي قضيتها بالمدينة، والتي امتدت إلى أكثر من أربع سنوات بين أعوام الجامعة وشهور معهد الحلاقة، حيث حوّلني الاحتكاك بناسها وعمرانها وطبيعة الحياة بها، إلى شابّ شبه مديني، فيديّ لم تعودا خشنتين، وقدميّ لم تعودا قويّتين، وبشرتي أضحت أقرب إلى البيضاء، ولم أعد أطيق تقابل الشمس مع وجهي لفترة طويلة، ولا قادرا على تحمّل الظمأ، ولا البرد، ولا حمل الأثقال أو جرّها... فكنت أمضي اليوم على طوله متمشّيا بين الحقول الصفراء، أتلذّذ باستنشاق رائحة ما تبقّى من سنابل بعد الحصاد وفد لفحتها شمس الظهيرة القائظة، أو أتنزّه عبر التلّال في المساء حتى أبلغ طرف الغابة، ثمّ أقفل عائدا أتابع مشهد الرعاة يسوقون قطعانهم نحو الحظائر، تتبعهم ظلال شمس الغروب الطويلة.

كان أخي إدريس يحاول جذبي إلى مساعدته وأبنائه على حمل كيس قمح أو خضار، حرث حوض أو جني غلّته، إدخال القطيع إلى الزريبة أو صدّه عن التوجّه صوب حقول الضيعة، ولم أكن ألقي لطلباته تلك بالا، بل أصطنع تذمّرا من تواكله الدائم على الغير في إنجاز أعماله البسيطة، ثمّ

أمضي مبتعدا. وكان أبي يتابع كلّ ذلك في صمت، وكنت أدرك أنّ تهرّبي هذا عن أداء أعمال الضيعة يغضبه. ولم يدم كظمه لغضبه هذا طويلا... فذات صباح وأنا واقف عند باب الدار أتثاءب في كسل، مستمتعا بتأمّل قبّة السماء الممتدّة فوقي في زرقة صيفية لا متناهية، فوجئت به يتقدّم على مهل عن يساري، يرتدي حذاء مطريّا، ويحمل معولا وقد شمّر عن ساعديه، حتّى إذا صار في مواجهتي، نظر إليّ في حسرة، ثم التفت ناظرا إلى المعول المستند إلى الجدار جواري.

لم أكن قادرا على مواجهة نظرة أبي الجادّة، وما كنت لأكسر له أمرا، وإلّا فإنه سيعدّني مخنّثا قد دلّلته المدينة وأوهنت طبيعة الحياة فيها عوده، وهذا أمر لا أطيقه. لذلك وجدتني، وبعد بضعة أسابيع من رجوعي، أتراجع عن تملّصي، وأعود ذلك البدوي، حنطيّ البشرة، صلب العود، الذي يسوق القطيع لساعات تحت شمس البادية ذات اليوم الطويل، دون تذمّر منّي أو تلكّؤ.

حكاية جدّي الأكبر، الملقّب بالراعي

نحن بدويون بالفطرة، أو فلنقل بالوراثة. جدّي الأقدم، الذي عُرف باسم الراعي، نزل ذات زمن بعيد بالمنطقة المتاخمة للنهر الذي ينحدر غير بعيد عن قرية الغوالم (على بعد مائة كيلومتر تقريبا جنوب الرباط)، الرابضة على رأس التلّ تاجا عليه. جاء طالبا زادا من طعام وشراب من أهل الوادي الفسيح، بعد أن نفدت مؤونة سفره، التي كانت تتجدّد عند كلّ بيت أو دوّار زاره في طريق رحلته الطويل، مهمّة اضطرّ إلى خوضها جرّاء ما حلّ بقبيلتهم وما جاورها من قحط وكساد. دفعه أبوه، ما دام هو الابن الأعزب الوحيد بين إخوته، إلى الخروج بحثا عن عمل يعود منه برزق كيفما كان قبل حلول الشتاء. فمؤونة البيت من قمح وشعير مخزّن في المطمورة، وقدّيد معلّق أسفل الأسقف في طريقها إلى النفاد. وحصاد هذا العام أيضا، لن يأتي بشيء يبهج. فالسنابل الخاوية تنتصب في شموخ فارغ، وأشجار الفاكهة المتناثرة قرب البئر لم تتفتّح إلّا بثمرات قليلة قد ذبلت وانكمشت حول نفسها قبل أن تبلغ النضج. أضحت كذلك حين لم يعد أحد من أهل البيت يجرؤ على دفق دلو من ماء الجبّ يروي سيقانها الشاحبة، إلّا ما اندلق أو تطاير من رذاذ عن غير قصد عند سحب الدلو أو سكبه في الجرّات، قبل حمله إلى الدار. ولن تصمد البقرة الوحيدة التي لم تعد تذر إلّا كوبا من اللبن طويلا. وسيكون بيعها بثمن زهيد في أحد

الأسواق القريبة حلّا من بين الحلول القليلة التي تراود أباه كلّما غاص بصره في المنحدرات التي ترسمها على جسدها الهزيل عظامها البارزة. أمّا الدجاجتان، فيوم الاضطرار إلى ذبحهما، سيكون عند العائلة الكبيرة بمثابة يوم عيد.

في تلك الأيام، خرج كثير من أبناء القبيلة بحثا عن عمل، رزق، صدقة، أو أي شيء. مثله تماما. جلّ هؤلاء مضى في اتجاه الغرب، صوب المدن والبحر. أمّا جدّي الأكبر فقد قرّر السير شمالا.

قبيل انصرافه نظر بإصرار إلى الحمار القصير، الذي بدا أحسن حالا من البقرة الحمراء، وقبل أن ينطق بما يدور في رأسه، كان والده قد فهم:

– لا تفكّر في ذلك حتّى! إنّه الوسيلة الوحيدة المتبقّية لي للذهاب إلى الأسواق.

رمى جدّي كيس الزاد على كتفه، وأحكم قبضته على عصاه. وبينما أصوات دعوات مبحوحة ترتفع، انطلق يرسم طريقا وسط الأحراش والقفار دون أن يفكّر في الالتفات. ظنّ في البدء أنّ مسيرة ثلاثة أيّام أو خمسة أو أسبوعا على أكثر تقدير ستكون كافية لتبلغه غايته. غير أنّ كلّ البيوت والدواوير التي مرّ بها خلال أسبوع رحلته الأوّل عارضا نفسه للعمل بدا أنّ أهلها هم أبأس حالا ممّن ترك خلفه. ثمّ هم بالكاد ناولوه قطع خبز من شعير يابسة مدهونة في أحسن الأحوال بطبقة رفيعة من سمن مملّح حين سألهم طعاما. أمّا حين سألهم عملا، فإن رؤوسهم فقط هي التي كانت تردّ بحركة أفقيّة بطيئة تُبقي نَفَسَه اللاهث منحبسا في صدره. لذلك، سرعان ما اعترى جدّي يأس ثقيل في بداية رحلته، فما عاد يسأل أحدا بعد ذلك عن العمل، فقط، يجمع ما استطاع من طعام كيفما كان لتجديد زاده، وبأيّ وسيلة كانت: فتارة هو يسأل الناس، وتارة يمدّ يده لثمار شجرة ببستان محظوظ، وتارة يقف على صبية يرعون بقرا، فيستلقي تحت إحدى البقرات جاعلا فاه يستقبل ما يدره عليه عصر يده للضرع من

لبن، بينما الصبية الرعاة ينفجرون في ضحك بريء جرّاء تصرّفه الغريب. ووجد في ثمار البلوط والتوت البريّ ونبق السدر وغيرها من الثمار البريّة بلسما لشبح الجوع الذي ظلّ يمشي خلفه.

واصل جدّي رحلته، والتي لم تخل من مخاطر عبر محطّاتها العديدة. فقد طاردته الكلاب، ومرّت قريبا منه مجموعات الخنازير البرية الهائجة أكثر من مرّة، حيث أدرك حينها المغزى من نصيحة أبيه المتكرّرة: «تجنّب ما استطعت السير طويلا في الغابات...». قابل حمقى ومشرّدين ومجاذيب. شاهد تجّار الكيف يعبرون في عجلة الطرقات البشرية يسوقون دوّابهم التي تئنّ من ثقل ما تحمل ومن طول الطريق التي تقطع. مالوا بنظراتهم عليه، كانت سكاكينهم الطويلة العريضة تظهر لامعة من تحت أكياس الخيش التي تستر ما تحتها، وربما لتقيه أيضا من حرّ أو قرّ.

بعد أسبوع آخر من السير، عاد جدّي للسؤال عن عمل. هذه المرة تكلّلت محاولاته بالنجاح عندما وجد أهل بيتٍ هُم في حاجة إلى من يساعدهم في نقل كومة حجارة، جلبها سيل عبر ذات يوم، قريبا من دارهم حيث يعزمون على بناية حظيرة لماشيتهم.

بلا مقدّمات رمى جدّي يديه بين أيديهم، دون ادخار أدنى جهد حتى يكون عند حسن ظنّ مشغّليه. تناول الطعام رفقتهم. ونام في حوش غير بعيد عن دارهم. ولم يسألوه كثيرا عن قبيلته أو سبب خروجه منها، فما كان يشغلهم أكثر هو العمل الذين هم في صدد إنجازه، وأيضا الحرص على أن تظلّ الماشية التي يسوقها الصغار على مرأى من عيونهم ذات النظرات الصقرية.

بعد أن تمّ العمل، أعلن جدّي عزمه المغادرة، لكنّهم استحثّوه البقاء لمساعدتهم في أشغال البناء، استبشر جدّي خيرا وسألهم عن كم سيدفعون له مقابل كلّ عمل. بدا أن سؤاله هذا لم يرقهم إطلاقا، أو أنّهم لم يتوقّعوا سماعه.

- ندفع لك ماذا وأنت تأكل وتشرب وتنام من مالنا؟

- أجر ما عملت وما سأعمل؟

- ذاك هو أجرك: أن تأكل مما نأكل وتشرب وتنام. هل كنت لتحلم بمثل هذا وأنت شريد في الأرض فقير.

- لكنّي هنا من أجل المال. لقد خرجت من قبيلتي لأعمل وأعود بشيء: مال أو قمح أو شعير، أي شيء يفيد أهلي في محنة القحط والجوع.

من بين رجال البيت الثلاثة تحرّك أكبرهم سنّا، وهو الآمر عليهم، بلحيته البيضاء المعقوفة إلى الأمام، وعمامته رديئة الثوب، رافعا عصاه المصقولة حتى صارت في مستوى وجه جدّي، ثم وبحركة مركّزة وضع مقدّمتها في تجويف صدره وهو يرغمه، دافعا إيّاه بها، على التراجع.

- إذن فلتمض في سبيلك، لا شيء لك عندنا.

- بلى يا سيدي. فقط، أجر ما عملت وأغرب عنكم.

- بل ستغرب الآن ودون شيء.

هذه المرة، وكزه بشدّة حتى كاد يسقطه، فتراجع إلى الخلف بضع خطوات. عندها تناول الثلاثة من الأرض حجارة. تراجع جدّي خطوات أكثر. ثم راحت أيديهم ترمي ما بين أناملها صوبه وقد أطلق ساقيه للريح.

أسبوع جديد، يمضيه جدّي سائرا دون هداية: جوع وتصريف لماء قليل، برد نازل ليلا وحرّ حارق نهارا، يأس وتعب. وفي اليومين الأخيرين خلاء عظيم: لا بيوت ولا خيام، لا مواشي ترعى ولا نبات... لا حياة.

«هل أنا على مشارف الصحراء؟ المفروض أنّي أسير شمالا لا جنوبا. هل أخطأت في وقت سابق في تحديد الاتجاه؟ أم أن القحط قد زار هذا المكان أيضا؟»

لم يكن من خيار لديه غير السير قدما، إما أن تصدم بصره كثبان رمال

تؤكّد هواجسه، وإمّا خروج من هذه الأرض الفلاة التي ابتلعت الكثير من تفاؤله.

بعد ساعات راحت تتغيّر التضاريس، تلال صغيرة من دوم وسدر. على الأقلّ ضمن من بين الأشواك «غازا» ونبقا. ملأ كيسه بثمار الأشجار البرية، ومستندا على عصاه سار بروح جديدة في صعود ونزول يتجاوز التلال المتقاربة بشكل لم يمنحه فرصة استجماع أنفاسه. ثم عند بلوغه إحدى القمم، لاحت له خيام متناثرة قد جاورتها غابة أشجار بلوط كثيفة من جهتين، فما كان منه إلّا أن حرّر صرخة أمل، قد كادت الأرض الجرداء التي طواها طوال ساعات أن تقتلعه منه.

رجل يحمل حطبا على حماره، استوقفه جدّي يسأله طعاما وزادا لرحلته. دلّه الرجل على بيت عند الوادي:

– ذاك بيت كبير القبيلة، لن تجد طعاما أحسن من الذي عنده.

بيت كبير يحفّه بستان أشجار تتدلّى في ازدحام ثمارها المتنوّعة ناضجة شهيّة، وقد بدا أن مجرى ماء يمرّ قريبا من المكان، الذي فاح خضرة وهواء عذبا. عند مدخل البستان استوقفه رجل شاهق يحمل معولا لم يجفّ وحله بعد. تردّد جدّي وقد رماه الرجل بنظرة طويلة غير مرحّبة. وحين أدرك جدّي أن الصمت بينهما لن يبلغ نهايته، ألقى السلام وانتظر الردّ، الذي طال قليلا قبل أن يحدث.

– جئت أسأل طعاما وزادا لسفري.

انتظر قليلا لكن لا ردّ. تقدّم جدّي بخطوات حذرة حتى صارت ملامح الرجل الضخم أكثر تجليّا.

– لقد أخبروني أنّ صاحب هذا البيت رجل كريم، ولن يردّ لي طلبا.

ظلّ الرجل الضخم محدّقا في جدّي دون أن ينبس بحرف. ولم يقطع الصمت الذي بدا سرمديا إلّا صوت خشخشة انبعثت من داخل البستان.

التفت جدّي فإذا برجل يتقدّم نحوهما، تعلو وجهه بسمة عريضة، قد تدلّت لحيته أنيقة، وفاحت من جلبابه الزاهي رائحة مسك أو عطر طيّبة.

– مجذوب أم شريد؟

قال الرجل وقد اقترب أكثر من جدّي.

– مجرّد عابر سبيل يا سيدي.

ردّ جدّي في أدب وخجل.

– إذن فأنت ضيف عندنا، نطعمك حتى تشبع، ونسقيك حتى ترتوي، ونزوّد بزاد لسفرك.

بعد أن أكل جدّي الأكبر حتى شبع من قصعة الكسكس المعدّ بالشعير والبصل الأخضر واللبن ولحم الدجاج، وأتبعها بعنقود عنب وحبات تين، ببيت كبير القبيلة الذي استضافه بفناء داره، أحبّ أن يتمشى قليلا عبر الحقول المجاورة في انتظار أن يعدّوا له زادا لسفره. لكن، وما إن وقع نظر جدّي الأكبر على النهر الجاري رقراقا، يبسط سخاءه على الأرض والناس، واندهش للخضرة الشديدة التي تكسو جنباته، والفاكهة الشهية التي تتدلّى من أغصان بساتينه في عذوبة واسترخاء، وضاع بصره في الحقول التي تدثّر التلال القريبة في أناقة وخيلاء، حتّى وقع قلبه في جوف معدته، وانتفضت أحاسيس مضطربة بصدره، فانبسطت تقاسيم وجهه حنطيّ اللون، قاسي جلد البشرة، كثيف الشعر، بينما فكرة وهّاجة تضيء ما بينه وما بين الأفق السماوي الأزرق.

حمل جدّي الأكبر كيس الزاد على كتفه. سار بضع خطوات ثم وقف ملتفتا صوب شيخ القبيلة وبعض الرجال الذين ودّوا أن يتمّوا واجب الضيافة مع هذا الغريب الذي نزل بقبيلتهم هذا اليوم. وهم يهمّون برفع أيديهم استجابة لكلمات شكر وامتنان متوقّعة الصدور منه، فإذا به يعود أدراجه، حتى إذا فصلته خطوتان عن شيخ القبيلة، طرح عينيه أرضا وأعلن بصوت ارتد صداه إليه:

- ألا أجد عملا عندكم يا سادة؟

ضحك شيخ القبيلة ومن معه ثمّ قال:

- وماذا تريد أن تعمل عندنا؟

- أيّ شيء يا سيّدي، أيّ شيء.

فكّر كبير القبيلة قليلا ثمّ قال:

- حسنا، ذلك قطيعي من غنم وبقر، مشيرا إليه عند التلّ، صار عدد رؤوسه كبيرا بحيث يعجز أحفادي الصغار عن سوقه والاعتناء به كما يجب. فإن كان بمقدورك يا بنيّ حمل أمانة رعيه والاهتمام به والحرص على سلامته على كاهلك، فسأقول لك مرحبا بك في قبيلتنا، وإن لم تكن قادرا فلا تورّط نفسك في الأمر، فأبنائي شداد وسريعو الغضب.

عضّ جدّي على أسنانه، وقطّب جبينه في حزم:

- أقدر عليه بإذن الله. وسأكون عند حسن ظنّك وأبنائك.

بنى جدّي خيمة صغيرة عند التلّ المقابل لبيت شيخ القبيلة، وزاول عمله بجدّ وتفان. وسُرَّ مشغّله لذلك. وبعد شهور، قبيل الشتاء، سرّحه لزيارة أهله شهرا. فذهب إليهم على بغل محمّل بمؤونة من قمح وعدس وشعير وكبش صغير. ثمّ عاد بعد الشهر محمّلا على البغل خلف ظهره فتاة ملفوفة في إيزار. كانت تلك هي جدّتي الكبرى.

وهناك، أقصد هنا في نفس هذا المكان الذي سمعت فيه هذه الحكاية عدّة مرّات حتّى حفظتها، من جدّتي وعمّاتي وأمّي أيضا، ومن كثير من الناس في الجوار، أسّس جدّي رفقة جدّتي الشجرة التي أنا غصن من غصونها. ولم يملّ جدّي الأكبر من مزاولة الرعي لزمن طويل جدّا، حتّى صار نعت الراعي ملازما له ولأبنائه وذريّته، رغم أنّ أولاده حين كبروا انصرفوا إلى أشغال أخرى. لكنّ نعت أبناء الراعي ظلّ متوارثا في ذاكرة أجيال القبيلة حتّى بلغنا نحن، بحاضر الأيّام.

حكاية سمير

(4)

سمير يحكي...

حمامتي، ابنة المصلوحي، ذات العينين التي تشبه الشمس كما يرسمها الصغار، والتي لا أعرف بعد اسمها، اكتشفت أنّها طالبة بالجامعة، لكني لم أنتبه إلى اسم الكلّية التي ولجت عبر بابها.

فبعد أن تركت برغامي يسبّ عربته الهوندا، ومعلّمي الوجدي يسحق بفكّيه المسامير والبراغي غيظا من خروجي في الصباح دون رجوع، صعدت دون تردّد الحافلة خلف ابنة المصلوحي وصويحباتها، ثم نزلت وراءهن في نفس المحطّة، وقد كان هدفي من مطاردتي الميدانية هذه هو لفت انتباهها صوبي، حتّى تعلم أنّي هنا من أجلها، تركت عملي ووقتي لأمشي خلفها. وأعتقد أنّ مطاردتي قد حقّقت المرجوّ منها، لأنّ نظراتي المصوّبة نحوها طوال وقت رحلة الحافلة، أفلحت في جذب نظراتها الخجولة لتتلاقى معها في أكثر من مناسبة. أيضا، وأنا أسير خلفها ورفيقاتها عبر المسلك الترابي الطويل الذي يفصل المحطّة عن باب الكلّية كانت إحداهن تلتفت صوبي مرارا، وكأنّها تجيب عن استفسار صديقتها إن كنت لاأزال في لحاقهن أم رجعت في حال سبيلي. ثم حين همّت

حمامتي بقطع الطريق العابرة أمام مدخل الكلّية التفتت هي بنفسها صوبي، ورمقتني بنظرة جادّة، جعلت قلبي يرفرف كالعصفور داخل قفص أضلعي.

«إنّه العشق إذن، قد حلّ بك...».

هكذا قال لي أصحاب السمر بالصالون حين حكيت لهم عن قلبي الذي رفرف داخل صدري، وعن ليلة الأرق التي قضيتها ممدّدا فوق السرير، وما تلاها من صباح ملؤه الترقّب والانتظار. حدّثوني جميعا بنفس الكلام، ثم راحوا يغنّون أغان مشرقيّة ومغربيّة قديمة، ويضحكون كالسكارى، ويتأوّهون كالمرضى. ثمّ ساد صمت ثقيل، لم يخفّف من وطأته إلا انصراف آخر الزبائن، الذي كان ينصت لما يدور حوله باهتمام وفضول، قبل أن تشرد العقول كلّها من جديد، وكأنّ الجميع دخل في سبات عميق. بينما ظللت أنا ألفّ بعينيّ صوب وجوههم الغارقة في التيه، أترقّب تعقيبا، إجابة، أيّ كلام يطرد الشعور بالعزلة الذي انتابني فجأة.

راح نبيل يكنس الأرض، ويجمع الأدوات، وينفض المآزر. فعل كلّ ذلك دون أن ينبس بحرف. وواصلت أنا الانتظار وقد صرت أحرّك قدميّ وأشبك أصابعي في توتّر. لكن آهة عميقة انبعثت من الركن القصيّ أفشلت مشروع السكوت العقيم وحفّزت أذنيّ للالتقاط، فتكلّم مُصدرها، كاتب المقال:

– احذر أن تنجرف بعواطفك حدّ الهيام خلفها، دون بصيرة ولا تفكير، فكثيرة هي النهايات غير السعيدة!

ثمّ بدا وكأنّ الجميع قد تذكّروا محبوباتهم، وقصص عشق عاشوها، لم يجنوا من ثمارها غير أحزان وآهات لازال صدى زفراتها ينبعث لحدّ الآن عبر أنفاسهم، إذ راح كلّ منهم يلقي على مسامعي نصائح وتحذيرات سوّدت أمام وجهي دنيا العشق التي أنا، كما قالوا، مقبل عليها. نظرت صوب نبيل، الذي كان قد اقتعد كرسيّ الحلاقة الأسود الجلديّ، ولفّ به تجاهنا، فقابلني بنظرة واثقة، ثم ابتسم قائلا:

- العشق يا صديقي حلم ورديّ جميل، ليس عليك أن تحذر أو أن تتردّد، الحيرة تقتل حلاوته، وتصبغ سماءه بلون القلق القاتم. دعك من قصصهم الفاشلة وعش أنت حكايتك الخاصّة! لا تفوّت على قلبك المغرّد فرصة التحليق هذه.

- هل سبق لك وعشت قصة عشق سعيدة يا نبيل؟ بشّرني، فهؤلاء سدّوا شهيّتي وقصّوا بمقصّك ذاك جناحي فرحتي.

أجابني نبيل بعد أن ضحك من تشبيهي:

- لا، صراحة لم يسبق لي ذلك. لكنّي في المقابل أعيش على حلمها، قصة عشق، أتخيّلها، أترقّبها، وأتوقّع حدوثها بإحساس متفائل، لذلك قلت لك عش قصّة عشقك، فأنت على الأقلّ بدأت تكتب سطورها، ولا تجعل النهاية تصير هاجسك منذ اللحظة. وصدّقني هؤلاء الأوغاد جميعا يتوقون لخوض قصص عشق جديدة.

- أووووه، أووووه، تكلّم أشرف، كاتب المقال، وهو مستند إلى الخلف على أريكة الصالون السوداء الجلدية، ما كلّ هذا التفاؤل بقصص العشق يا نبيل؟ لماذا لا تحكي له عن قصّة الأستاذ حسن وزميلته هناء؟

انتفضت من مكاني:

- إنّه رجل متزوج، هل عاد ليعشق من جديد؟

- لا، لا. هذه حكاية حدثت قبل زواجه. ردّ أشرف.

- قبيل زواجه بقليل. أكمل حمزة.

- أنا لم أفهم شيئا من كلماتكم المتقاطعة هذه.

- أنا أيضا أريد سماع هذه الحكاية. تحدّث عادل.

- نبيل يعرفها. قال أشرف.

- أنت كذلك تعرفها. ردّ نبيل.

- أنا أقصد التفاصيل. أنت سمعتها من مصادر عديدة. وحان الوقت لتسردها كاملة على مسامعنا.

- الآن؟ في هذا الوقت المتأخّر؟

- بل هو أحسن وقت. قالها حمزة.

- وسمير؟ إنّه يحتاج لحديث يحفّزه وليس قصة حزن كهذه.

ضحك أشرف:

- دع أمر سمير عليّ.

- وهذا برّاد الشاي يسخن. قال عادل وهو يشعل الموقد إلى جواره.

- وهذه السجائر، هديّة منّي. تكلّم حمزة وهو يسحب علبة تبغ من جيب معطفه ويضعها على طاولة الجرائد.

نظر نبيل صوبي وكأنه ينتظر تأكيدا أخيرا منّي. صراحة، وسط هذا الجوّ، وبحضور جميع أعضاء شلّة السمر، وقلبي لا زال يرفرف داخل صدري، سأكون مغفّلا إن أنا رفضت هذا العرض.

حكاية عبد الإله المنصوري ونادية

(4)

نجاة تحكي...

لا، لم أذهب لزيارته في المستشفى الذي نُقل إليه رغم أنّ ضابط الشرطة القضائية اقترح عليّ ذلك. ولم أنتظر مغادرته له، إذ حملت الأبناء وجمعت كلّ أشيائي وتوجّهت إلى بيت والديّ.

كنت غاضبة ذلك الغضب الذي يجعلك تتصرّف بشجاعة ولا مبالاة. أبي وأمّي وإخوتي لم يعارضوا قراري هذا، بل ظلّوا فقط واضعين خدودهم على أكفّهم ويراقبون. ربما الصدمة ألجمتهم عن الكلام وخشّبتهم عن أيّ حراك. فقط كنت أسمع لازمة أمّي التي كانت تردّدها وهي تتنهّد في جلستها وسط الدار، أو واقفة في المطبخ تعدّ شيئا:

- ابن الحرام.

أمّا الصدمة فقد جعلتني أصير امرأة أخرى فجأة. حانقة، شديدة اللهجة، وصارمة في قراراتي. فلم يكن أحد يجرؤ سواء كان من قريب أو بعيد أن يناقش معي خطوة قرّرت خطوها. لكنّي في خلواتي، بعيدا عن الأعين، كنت أبكي بلا صوت أو أنين، بكاء شديدا، كنت أصرف نار الحزن المتّقدة في قلبي ينابيع حارّة، تسيل شلّالات تنحت تجاعيدا

على خدودي. أجل، لقد كنت أراني أشيخ سنوات عقب كلّ ليلة أمضيها ووجهي إلى الوسادة، أبلّلها في صمت.

كان أطفالي الثلاثة ينامون إلى جواري في الغرفة الصغيرة ببيت العائلة. ورغم حرصي الشديد على كبح سيل دموعي إلى أن أتأكّد من خلودهم للنوم العميق، إلّا أنّي كنت أفاجأ بأحدهم قد صحا يسألني حين بلغه صوت شهقاتي:

- أمّي، ماذا بك؟ هل أنت مريضة؟

- أنا فقط أسعل يا صغيري. عد للنوم يا حبيبي.

- إذن أنت مريضة.

- أجل تعبة قليلا.

في اليوم الذي تلا ليلة الحادثة، والتي فضحت خداع عبد الإله، وكشفت لي عن حقيقته، اتصل هو أخيرا بي. أخبرني أنّه غادر المستشفى وأنّه مودع الآن في سجن قسم الشرطة، وأنّه يُجري معي هذا الاتصال بعد أن ألحّ في طلب ذلك من ضابط الشرطة، ثمّ راح يتوسّل إليّ أن أسامحه. قلت له أن يتوقّف عن بكاء التماسيح هذا، لأنّ لا فائدة منه. قلت ذلك فقط. ثم أقفلت الخط. ولم يسمع منّي كلمة عتاب واحدة.

لكنّه عاود الاتصال بي، طالبا منّي القدوم إليه لمعالجة الأمر. لكنّني رفضت، وأخبرته أنّ معالجة الأمر ستتمّ أمام قاضي الأسرة، لأنّي أريد الطلاق وحضانة الأبناء الدائمة، إن أراد عدم دخول السجن والحفاظ على وظيفته. غاب صوته زمنا. وأنا انتظرت ردّه. ثمّ سأل، في دهشة من أفاق إثر دفقة ماء بارد على وجهه:

- ماذا؟ قاضي الأسرة؟

وكان المحامي الذي قمت رفقة أبي بزيارة له من أجل الاستشارة حول الموضوع قد أكّد لي، أنّي أستطيع النيل من زوجي لأنّ الخيانة الزوجية

تكاد تكون ثابتة عليه عقب اعتراف المرأة، العاهرة، التي كانت صحبته بذلك، إضافة إلى تحقيقات الشرطة معه، والتي أفضت إلى تورّط عبد الإله مع أصحابه في كراء شقة من أجل ممارسة الرذيلة.

أفهمني المحامي أنّ زوجي مهدّد بفقدان وظيفته إن لم أتنازل له أنا عن قضية الخيانة الزوجية. وما أريده أنا هو الطلاق والنفقة، مع تخلّيه التام عن حضانة الأبناء لي مهما يحدث، حتّى وإن عزمت أنا الزواج. فهو لم يعد يستحقّ بعد اليوم أن يكون أبا لأبنائي. لذلك فقد وجدتها فرصة سانحة للمساومة بذلك على هذا، أي بالقضية على الطلاق وتخلّيه عن الحضانة.

وحين لم يجد عبد الإله منّي تجاوبا، راح يخبط خبط عشواء، في كلّ الأرجاء. اتصل بأخي الأكبر عبد القادر الذي أبلغه أنّي أعدّ مع المحامي لقضيّة الطلاق، فتوسّل إليه أن يكلّمني للعدول عنها، لكنّ أخي ضحك ملء شدقيه وقال له:

– فُكّها بأسنانك يا من عقدتها بيديك.

أنا صراحة لم يكن يعجبني تنكيت أخي عبد القادر الثقيل المعهود معنا بالبيت، لكن في هذه المرة ابتسمت في بهجة وهو يحكي لنا عن الحديث الذي دار بينهما وكيف نال هو من عبد الإله بأجوبة ساخرة رادعة. على الأقلّ هذا يردّ لي بعض الاعتبار. على عكس موقف أبي الذي لم يوبّخه أو يشتمه على أدنى تقدير، وإنّما اكتفى بالقول له:

– نجاة لا تطالب إلّا بحقّها بعد الذي ارتكبته في حقّها...

هذا ليس كافيا كردّ من أب تعرّضت كرامة ابنته للإذلال من زوجها وبهذه الطريقة التي جعلتها في أبشع صورة أمام الناس، على عكس أمّي التي اختنق حنقها داخل صدرها، فصارت كلّما سعلت إلّا وسبّته بأقبح الألفاظ، وكانت كلّما سمعته يتكلّم عبر الهاتف إلّا وانهالت عليه بالشتائم والتوعّد والدعوات. بل إنّها في إحدى المرات خطفت الهاتف من يدي وصمّت أذنه بضجيج من أسوء الأوصاف.

وعبد الإله لم يرد الاستسلام، لأنّه واصل الاتصال بنا، كلّ ساعة طيلة ذلك اليوم الذي سبق مثولنا أمام القاضي الأوّل في قضيّة خيانته لي. لكنّي حين ضقت ذرعا ببكائه الصبياني على الهاتف، قلت له:

– لم يعد هناك كلام يجمعنا على الهاتف. موعدنا أمام القاضي غدا وبعده أمام قاضي الأسرة مثلما قلت لك. وهذا الهاتف أنا سأقفله.

ثم أنهيت المكالمة في وجهه.

في نفس تلك الليلة، وبعد أن راجعت رفقة أمّي وأخي عبد القادر ما أوصاني المحامي بقوله عندما يسألني القاضي، لم يغمض لي جفن حين حلّ وقت نومي المعتاد. بل حتّى الدموع التي ألفت سيلانها كلّ ليلة قبل الخلود للنوم وكأنّها وصفة دواء، كالحبوب المهدّئة للأعصاب التي وصف الطبيب لجارتي عائشة تناولها حتّى تستطيع النوم بشكل طبيعي وتطرد الأرق الذي أضحى ملازما لها، من يوم أن بعثت ابنها عماد للدراسة بكندا، حتى تلك الدموع الساخنة انحصرت ينابيعها ليلتئذ. وغاب الحزن عن قلبي أيضا. كان فارغا، قلبي. وكنت كمن تحلّق هاوية في فراغ فسيح. كنت أنظر في العتمة، وأرى قصّة حياتي التي لم يكتب لها الاكتمال. وها أنا أضيع في دوّامات الأيام. أطلب من زوجي الطلاق، زوجي الذي عشقته حدّ الجنون، وعشت معه أحلى الأوقات، ثمّ خانني هكذا ببرودة دم، دون أن يكون قد صدر عنّي أنا شيء يدفعه لارتكاب هذا الجرم في حقّي وحقّ أبنائه. أجل، وهؤلاء الأبناء ينامون الآن إلى جواري في سلام، دون أن يدركوا حقيقة مجيئنا إلى هنا ومكوثنا كلّ هذا الوقت دون ظهور والدهم لحدّ الآن. ودون أن يعلموا أنّي في صدد حرمانهم منه إلى الأبد. أفكّر في هذا فأتذكّر أيامنا الحلوة الجميلة. بدء بيوم تقدّم عبد الإله لخطبتي من أهلي، مرورا بيوم حفل الزفاف، ثم رزقنا بأوّل مولود، بنتنا زينب ذات العشر سنوات، ثمّ المولود الثاني، ابننا فريد، ذي السبع سنوات، ثم آخر العنقود، وديع ذي الثلاثة أعوام، وصولا إلى سفرنا

الصيف الأخير عبر خطّ من مدن الشمال الساحلية، وما شمله من زيارة لعدّة مواقع، وما تخلّله من أوقات طيّبة ممتعة يصعب على امرأة قليلة السفر مثلي، نسيانها هكذا بسهولة. وبين كلّ ذلك، أحداث سارّة كثيرة، وحياة هادئة هنيئة.

فما الذي جرى؟ ما الذي حلّ بعقله؟ ما الذي جعله يقدم على ذلك؟ يشارك في إيجار بيت لجلب بنات الطريق وغيرهن من الساقطات؟ ثم ينتهي به المطاف مع عاهرة محترفة في حادثة سير على الطريق. هل لي أنا دخل في ذلك؟ هل فرّطت في حقّ من حقوقه؟ هل نكّدت عيشته كما يقال في المسلسلات المصرية؟ هل لم أعد أملأ عينيه؟ أم أنّ عينه خضراء أصلا كما يقال ولم أكن أدري أنا أو أحسّ؟ أمّي دائما كانت تهمس لي بألّا ثقة في الرجال، وأنّهم كالثعابين، يتلّوون في كلّ اتجاه.

– حتى أبوك هذا الذي شاب شعر رأسه ولحيته، ويكاد ظهره يشكّل قوسا صغيرا، لا تثقي بنواياه حين يتعلّق الأمر بالنساء.

قالت ذلك مشيرة بإيماءة من رأسها إلى والدي الممدّد قريبا منّا على «السداري» يتابع بتركيز شيئا على التلفاز. فضحكت، أستغفر الله، وأنا أتصوّر أبي كثعبان مستلق فوق صخرة في سكينة تحت حمّام شمس.

حكاية الدكتور عمر

(4)

الدكتور عمر يحكي...

اليوم، أنظر الى البلد فأقول ما نحن الآن؟ ما الذي صرناه اليوم؟ كأننا نهوي في هوّة دون قرار. أين ولى ذلك الأمس الذي كنا نحلم فيه بالغد الجميل؟ أين رحل بعيدا وانزوى عن الأنظار في ركن من الماضي البعيد؟ حتى ذكراه أضحت بطعم مقرف غريب. أننكره اليوم ونتبرّأ من أحلامنا القديمة؟ أم نكف حتى عن الحلم؟ فأجيال هذه الأيّام لا تعرف أن تحلم مثلما كنا نفعل نحن. جيل الثورات؟ لقد كنا ثوريين أكثر منهم. بأفكارنا ليس بالأبواق والسعي مع كل قطيع. لقد كانت لدينا قناعاتنا. ليس مثلهم يتبعون كل من هب ودب. كل من تكلم في مكبر صوت مسموع تبعوه. إنهم جيل دون هوية ودون بوصلة اتجاه. لا يدرون من أين أتوا ولا يعلمون إلى أين يمضون. أيتمسّكون بالتقاليد؟ أيحافظون على الدين؟ أم ينغمسوا في العولمة حتى القاع؟ أيصفقون لأمريكا أم يسبونها؟ أيحقدون على فرنسا باعتبارها المستعمر الذي أذلّ أجدادهم، أم يتبعون ثقافتها باعتبارها داعمة للحداثة وحاضنة للحريات؟ هل إسبانيا عدو قديم أم حليف جديد؟ وماذا عن برشلونة وريال مدريد؟ ألا يوجد غيرهما في أوربا لنشجعه؟ أم أنه جيل

لا يمتلك حتى الحق في الاختيار؟ وكيف يختار وهو جيل لا يريد أن يزعج عقله ويضيع وقته العبثي بقليل من التفكير؟ كيف بلغنا هذا الحال؟ أم هي تراكمات ما سبق؟ هل جيلنا هو السبب؟ هل نحن من بالغ في أن يحلم حتى انتحرت الأحلام من قاموسنا؟ أم فقط تغيّرت طبيعة الأحلام؟ في الماضي كانت أحلامنا جماعيّة أم اليوم فكل فرد يحلم في عزلة عن الآخرين؟

اليوم، ومنذ سنين، أتوجه إلى عملي دونما رغبة عندي في الحديث عن شيء آخر خارج إطار العمل. نعقد اجتماعات بليدة ونناقش أشياء تافهة. ونقول ونحن نصرف وعودا إلى بعضنا البعض، أنّنا سنبذل قصارى جهدنا لننجح هذا الأمر. وحتى إن وفينا بوعودنا تلك وعملنا بجهد وتفان فالنتيجة تكون دائما ألّا شيء يتغيّر. لا شيء! ثمّ ننصرف بعد ذلك راكضين في مضمار حياتنا اليومية الخاصة بكلّ واحد منّا، صوب أحلامنا الفردية. ننكبّ على ما يعلق على أعناقنا من مسؤوليات تجاه البيت والأبناء. أمّا العمل، فهو بالنسبة لي لم يعد يتجاوز كونه وسيلة لكسب العيش لا غير، أمّا ما كانه بالنسبة لي بالأمس، فقد انعدم من رأسي مذ نزعت البذلة البيضاء ورميت بها في قعر دولاب ملابسي. لن أكذب على ذاتي ولا حتّى على الآخرين فأقول لهم إنّي أحبّ عملي الجديد هذا أكثر ممّا أحببت مهنة التطبيب. مستحيل طبعا. لقد آمنت منذ رجوعي من روسيا إلى أرض الوطن والتحاقي بالمستشفى أنّه مقدّر لي أن أكون طبيبا ولا شيء آخر غير طبيب. لكنّي اليوم لم أعد كذلك. ربّما الطبيب يسكن روحي، لكنّه لم يعد حاضرا في حياتي. فلماذا ظهر فجأة إذن في ذلك اليوم وجعلني أرتدي البذلة البيضاء وأتصرّف كما يليق بطبيب مخلص لمبدأ «علاج الناس فوق كلّ اعتبار!» غير عابئ بما قد يجلبه عليّ تصرّفي هذا من عواقب وويلات؟ لقد صفّق المرضى المتكدّسون في قاعة الانتظار لي بحرارة، حتّى أن بعضهم عاد أدراجه دون تلقّي العلاج وقد أحسّ أنّ حاله تحسنّ فجأة، كما أخبرني رجل الأمن، الذي يحرس الباب الداخليّ للمستشفى.

لقد كانوا مسرورين بما صنعت، بل إنهم استحثّوني عدم نزع البذلة البيضاء حتّى أنظر فيما يعانونه من أوجاع وأمراض، لولا تدخّل رجل الأمن وهو يقول لهم: «إنّه ليس طبيبا!». وهل أنا فعلا لست بطبيب؟ هل حقّا لم أعد طبيبا؟ هل مجرّد ورقة رسمية كفيلة بأن تنزع عنك البذلة البيضاء وتلبسك إيّاها؟ هل الأوراق والشواهد والديبلومات هي التي تحدّد من نكون وأيّ الأعمال المخولة لنا مزاولتها؟ لكنّي لبست البذلة البيضاء، وأنا أرى الدم يسيح فوق الأرض والرجل المصاب يكاد يغمى عليه من كثرة ما نزف. لم أعر الأوراق والقوانين والرسميات اعتبارا، مادام الطبيب البارع الذي درست وعملت لسنوات حتّى أراه يتحقّق، لايزال ساكنا في روحي وحاضرا بذهني وجوارحي.

في ذلك اليوم، كنت قد توجّهت بمعيّة زميلين لي إلى أحد المستشفيات التابع للمندوبية حيث نشتغل للقيام بمعاينة توسعة، قد أُجريت على أحد أجنحته. عند دخولنا المستشفى كان كلّ شيء اعتياديا، حشد من المرضى والمصابين ينتظرون أدوارهم بباحة الانتظار. همهمة نساء وصراخ أطفال وبكاء رضّع وسعال شيوخ. ويرتفع فوق كلّ ذلك صوت ممرض أو رجل أمن في محاولة لتنظيم الولوج إلى قاعة الفحص، أو نهر لأحد المرضى لا يعرف أين يذهب أو أين يقف أو يجلس لينتظر. كمثلها من مستشفيات الوطن، فوضى في انتظام.

قمنا بعملنا. عاينّا المكان الجديد، وشربنا كؤوسا من الشاي رفقة المدير وبعض الأطر بمكتبه الجميل، وطمأناه إلى أنّنا سنحمل أخبارا سارة إلى المندوبية في تقريرنا. ونحن نهمّ بمغادرة مكتبه صافحنا بحرارة، ثمّ طلب من أحد الممرضين مرافقتنا إلى الباب الداخليّ.

لكن، وبعد تقدّمنا عبر الأروقة الملتوية التي تفصل مكتب المدير بباب المستشفى الداخليّ، بدا لنا الوصول إلى المخرج غير ممكن، فقد كان الناس، المرضى ومرافقوهم يتكدّسون في الباحة ويقفلون بأجسامهم

المتزاحمة العبور إلى الباب. توقّفنا أمامهم. وحاول الممرّض الذي كان رفقتنا إبعادهم عن الطريق، لكنّهم بدوا كالغائبين عن الوعي أو المخدّرين. كانوا ينظرون صوبنا ثمّ يواصلون الكلام. فقد الممرّض أعصابه سريعا، فانفعل في وجه رجل الأمن طالبا منه إزاحتهم عن الطريق. عندها، ورجل الأمن يمدّ يديه للدفع بهم قليلا إلى الخلف، انتفض الحشد في وجهه ووجه الممرّض. ارتفعت أصواتهم وأيديهم مردّدين نفس العبارات:

- الرجل ينزف كثيرا... الرجل يكاد يموت.

نظرنا تجاه الكرسي الخشبيّ الطويل المخصّص لجلوس المنتظرين، فإذا رجل فوقه في وضعية بين الجلوس والاستلقاء، يمدّ قدميه في استرخاء على الأرض، بينما بركة صغيرة من سائل قاتم تتشكّل أسفلهما، وقد جلس إلى جواره فتى في العشرين يمسك يده. اخترقت الحشد المتجمهر حوله. وما كدت أصل حتى كان طبيب الدوام يخرج من باب قاعة الفحص رافعا صوته في وجه المتكدّسين أمام باب قاعته:

- اذهبوا للإدارة واشتكوا! لقد أخبرتكم أنّي لن أستطيع فعل شيء له، خذوه إلى مستعجلات مستشفى ابن سينا إن أردتم إنقاذه!

- وأين سيارة الإسعاف؟

صاح بعض الناس.

- لا سيارات إسعاف عندنا.

- بل هناك واحدة واقفة في الساحة.

- هل ستعلّموننا عملنا. فضّوا هذا التجمّع وإلّا لن يحظ أحد منكم بالفحص.

عاد الطبيب إلى قاعة الفحص، وما كاد الحشد يعود لرفع أصواته، حتّى كان رجل الأمن رفقة ممرّضين يقومون بدفع الجميع تدريجيا خارج الباحة. عندها تقدّمت نحو الفتى المرافق للرجل المصاب وسألته:

– ماذا به؟ قلتها وأنا أميل برأسي ملقيا نظرة متفحّصة على مكان النزيف بفخذه.

– لقد تعثّر وسقط فوق قطع حديد حادّة.

– هل أنتما ميكانيكيان؟ فقد كانا يرتديان بذلتين زرقاوين مرقّعتين ببقع سود.

– لا، نحن حدّادان.

بلغني صوت الرجل وهو يئنّ بشكل خافت. لقد كان موشكا على فقدان الوعي. وفكّرت أنّه حتى وإن تمّ نقله إلى مستعجلات السويسي، فإنّ استمراره في النزيف هكذا على طول الطريق سيكون مخاطرة كبيرة.

جلت ببصري بحثا عن الممرّض الذي كان رفقتنا، فوجدته يساعد في إخراج الناس، تقدّمت نحوه، ثمّ سألته إن كانت هناك قاعة فحص ثانية، مجهّزة بمستلزمات التطبيب، فأشار لي إلى باب في آخر الرواق:

– تلك قاعة التمريض. لكن فيما تريدها؟

أومأت برأسي تجاه الرجل المصاب:

– لأنقذه.

– لا، لا يا سيّدي. لا تورّطني في ذلك.

– أنا مبعوث من المندوبية من أجل معاينة هذا المستشفى، أنت ستفتح باب القاعة، والباقي على مسؤوليّتي.

– فلتطلب ذلك من المدير أوّلا!

– حسنا، ناولني المفتاح. واذهب أنت أخبر المدير!

– لا، لا تورّطني أرجوك.

– بل أنت تورّط نفسك هكذا. المندوبة ستشتاط غضبا إن علمت أنّ مصابا نزف في مستشفاها حتّى الموت، وأنكم جميعا تواطأتم على ذلك.

ثمّ إنّي سأكون مضطرّا لكتابة تقرير وبعثه من مكتبي إلى الوزارة، أصف فيه تواطؤكم هذا. وأنت تعرف طبيعة عملي. إنّه في مقام مفتّش نيابي.

اختلطت الدهشة والخوف والقلق على وجه الممرّض، فسحب دون تفكير جديد مفاتيحا من جيب بذلته، ثمّ فرز واحدا منها بين أصابعه:

– إن كان على مسؤوليتك، فهذا هو المفتاح. ستجد كلّ ما قد تحتاجه في الخزنة أسفل المنضدة الرخامية.

ثمّ سألني وهو يضع المفتاح في يدي:

– هل أنت متأكّد؟ هل سبق لك...؟

قاطعته:

– لقد عملت طبيبا لأكثر من عقد من الزمن.

وبينما بقي الممرّض متخشّبا، يبتلع الدهشة في مكانه، طلبت من الفتى وبعض الأشخاص الواقفين قريبا حمل الرجل والسير به رفقتي إلى القاعة، موضّحا لهم كيفيّة فعل ذلك دون تعريضه للألم أو أيّ زيادة في النزيف. في حين كان يلحق بي أحد زميليّ وهو يهمس لي:

– ماذا تفعل أيّها المجنون؟ إنّك تقضي على نفسك.

– دعه! فقط دعه ولا تشوّش عليه! ردّ عليه الزميل الآخر وهو يشدّه من يده نحوه.

فتحت باب القاعة. ثمّ طلبت من هؤلاء الرجال وضع المصاب برفق فوق السرير. نظرت بتمعّن إلى مكان الإصابة. كانت قطعة كبيرة من الحديد قد اخترقت فخذه، وكان الجرح فعلا غائرا، والنزيف متواصلا، بينما كان الرجل المصاب في طريقه إلى فقدان الوعي، وأنّي ما إن ألمس الحديدة حتى يفقده تماما.

طلبت من الجميع مغادرة القاعة. أقفلت الباب خلفهم فإذا بي ببذلة بيضاء معلّقة في مشجب الباب. دون تردّد تناولتها. ثمّ ارتديها دون أن

أهتمّ إن كانت بذلة ممرّض أو طبيب. وقفت أنظر إلى فخذ الرجل المسودّة بالدم. لم يعد يئنّ. لم يكن ينظر صوبي ولا لأيّ شيء. كان بؤبؤا عينيه قد صعدا إلى فوق، وغابا خلف الجفنين النصف مقفلين.

كان العرق بدأ بالسيلان على جبيني، ويداي ترتعشان. لم يكن أمامي كثير من الوقت، وقد يقتحم عليّ أحد العاملين هنا الباب في أيّ لحظة. استدرت نحو الخزانة أسفل المنضدة الرخامية، فتحت بابيها الصغيرين، تناولت من رفوفها كلّ ما قد أحتاج إليه ووضعته فوق سطح المنضدة، وما إن عدت مستديرا صوب سرير المصاب، حتّى كان الطبيب الذي يسكن روحي قد عاد للانبعاث من جديد.

حكاية الأستاذ حسن الوردي وأسرته

(2)

شهريار يحكي...

الأستاذ حسن ليس صعب المراس، لكنه أمام مقترح أمه بالزواج كان كذلك.

انقضى صيف ذلك العام وقد أخفقت كلّ محاولاتها في تغيير موقفه الثابت كوتد دُقّ ثلثاه في الأرض، رغم استنجادها بكثير من الأقارب الذين لا يقدر حسن أن يكسر لهم خاطرا أو يصدّ لهم طلبا. مضى إلى تعيينه سعيدا، وهو يستنشق عبير أوّل يوم بعيدا عن إلحاح أمه الرهيب.

من مدينة سلا إلى مدينة تطوان حيث نيابة التعليم، ومنها إلى البلدة حيث مركزية المجموعة المدرسية التي أُلحق بها، وهناك تمّ دلّه على المدرسة الفرعية التي سيدرّس بها، عند قمّة الجبل.

بقمّة الجبل أخبره الأستاذ المعطي زميله في الفرعية أنّ باستطاعته السكن بقاعة الدرس كما فعل كلّ من سبق تعيينهم هنا، لأن السكن هنا غير متوفّر ولن يكون كذلك في السنوات القادمة على الأقلّ، وأنّ سكن القسم خير له من بناء كوخ في الجوار، هذا إن سُمح له بذلك. ثم أخبره أن الأمور تسير هنا وفق السيناريو التالي: ستقطن في القسم لسنوات قليلة،

ثم ستضطر للزواج، ومنه ستنتقل للسكن بالبلدة، ومادام دخلك لن يسمح لك بشراء سيارة، فأنت إن لم تشتر دراجة نارية أو دابة فإنّ مرور بعض العربات والدواب عبر الطريق الترابية يوميا سيساعدك في التنقل بين البلدة والجبل.

- هل سأقطن بمفردي بالجبل؟

كان هذا هو الهاجس الأول الذي خطر ببال الأستاذ الشاب وهو يشعر وكأن قبّة السماء تكاد تلامس رأسه، لكنّ الأستاذ المعطي همس في أذنه ضاحكا:

- كيف ذلك وعائلة مكونة من خمسة أفراد تجاورك؟

- من؟

- عائلة الأستاذ أحمد. إنّه يقطن بالقسم رقم واحد.

- وكيف يعيشون جميعا في قاعة الدرس تلك؟

ضحك الأستاذ المعطي قبل أن يوضّح:

- عندما تتعرّف على السي أحمد لن تعود لطرح مثل هذا السؤال.

ثمّ وضع يده على كتفه:

- هيا يا ولدي، احمل حقائبك وتعال أعرّفك على مقرّ سكناك وجيرانك.

بقاعة الدرس المنقوش على بابها الرقم «ثلاثة»، أرشد الأستاذ المعطي زميله، الوافد الجديد، كيف ينشئ داخل قاعة الدرس بيتا له: مطبخ صغير، غرفة نوم عبارة عن سرير، غرفة جلوس بها طاولتان من تلك التي يجلس عليها التلاميذ... وحسن طبعا، لم يفكّر حين خروجه من بيتهم أنّ أوّل ما سيكون في انتظاره هنا هو إنشاء مسكن له، لاعتقاده أنّ التعيين لا يختلف كثيرا عن فترة التدريب، حيث مبنى الداخلية المجهّز بضروريات السكن من سرير وفراش وطاولة ودولاب ومرحاض... لذلك فقد طلب منه

الأستاذ المعطي أن يتناول ورقة وقلما ويسجّل قائمة بكلّ ما سيحتاجه في إنشاء المسكن، وعرض عليه مرافقته يوم الأحد إلى مدينة تطوان قصد اقتناء كلّ اللوازم.

- مفهوم؟

- نعم، مفهوم. أجاب حسن، قبل أن يستطرد سائلا: وماذا عن المرحاض؟

ضحك الأستاذ المعطي حتى تدلّى لسانه بين فكّيه:

- أمّا المرحاض يا صغيري فهو في أيّ مكان شئت، في هذا الخلاء الرحب.

سوق البلدة الأسبوعي هو يوم الخميس، وهو يوافق أحيانا الاجتماعات التي يعقدها المدير بالمركزية مع جميع المعلّمين، بما في ذلك هؤلاء العاملين بالفروع البعيدة. علم حسن هذه المعلومة قبل أن يجلس في قاعة مستطيلة تنبعث منها رائحة الجير حديث الالتصاق بالجدران، والتي يقصف جنباتها صمت لا يقطعه إلّا صوت عربة تتدحرج عبر الطريق التي تخترق البلدة كشارع رئيسي، قبل أن تلفّ عبر منعطف هائل في اتجاه مدينة تطوان.

ذلك الاجتماع كان مميّزا بالنسبة لحسن. وذلك لسببين، أوّلهما كونه أوّل اجتماع له بالمدرسة، وقد رحّب به المدير عند افتتاح الجلسة، كعضو جديد في هيئة التدريس العاملة بالمدرسة تحت رئاسته، وهذا أمر جعله يشعر بأهمية المهمة المنوطة به في هذا المكان القصيّ المعزول بين تضاريس المنطقة الجبلية. وثانيهما، وهذا هو الأهمّ، أنّ قلبه انتفض سرورا حين اكتشف وجود معلّمة شابّة، جميلة وأنيقة ضمن المجتمعين. إنّها هناء، زميلة سابقة له بمركز تكوين المعلّمين، والتي كانت تُسيل لعاب جميع الشبان بالمركز، بمن فيهم هو، الذي ظلّ يلفّ حولها من قريب وبعيد بحثا عن فرصة تفتح له خلالها بابا للعبور، لكنّها ظلّت بعيدة المنال عنه،

فتوّجت نفسها بعد ذلك أميرة في عينيه. ثمّ ها هو القدر يجلسها عن بعد بضعة مقاعد منه، في مكان صغير ومعزول، بعيدا عن كلّ الذين اعتبرهم منافسين له. حينها تذكّر اعتراضه الشديد أمام رغبة أمّه في تزويجه، ففكّر أنّ صموده ذاك قد كان من أجل هذا اليوم، وأنّ هناء في النهاية قد كانت مقدّرة له. يعيش معها قصّة حبّ قويّة في هذا الجبل الساكن، ثمّ، وبعد أن يوفّر بعض المال الكافي، يتقدّم لطلب يدها من أهلها بمدينة فاس.

– هناء، كيف حالك؟ قال لها بعد أن همّ الجميع مغادرا قاعة الاجتماع.

– بخير. قالتها بحذر.

– ألم تتذكّريني؟

– كنت معنا بالمركز، صحيح؟

– أجل، حسن الوردي.

– آه، ربّما تعرّفت إلى وجهك، لكنّي لا أتذكّر اسمك.

– أمّا أنا، فأتذكّر وجهك واسمك كاملا: هناء بنجاري.

نظرت في اتجاه قمّة الجبل في صمت وهي تتقدّم في ساحة المدرسة.

– أنا أعمل هناك.

قالها مشيرا بأصبعه نحو ظلّ المدرسة بالجبل.

– جيّد. قالتها وهي تواصل المسير.

– وأقطن كذلك هناك. ضحك، ثم أكمل، في نفس القسم الذي أدرّس به.

ابتسمت أخيرا، فشعر بالثقة تملأ صدره، ثم سألها:

– وأنت؟ أين تقطنين؟

– ليس بعد، أنتظر أن يجد لي المدير مكانا في سكن الممرضات بالمستوصف.

- ألم تستأنفي العمل بعد؟

وكأنّها لم تسمع سؤاله قالت:

- أعذرني، أنا مستعجلة. سيارة الأجرة التي تقلّني في الانتظار.

- إلى أين؟

- إلى تطوان.

- هل تقطنين هناك؟

- أجل، عند خالتي.

همّ أن يسألها، «كيف تتحمّلين السفر ذهابا وإيّابا كلّ يوم إلى هناك؟»، لكنّه أحكم الخناق على لسانه عند آخر لحظة.

- طريق السلامة إذن، قالها وهو يتابعها تغادر باب المدرسة.

***

في عناد وجفاء، تتمدّد الليالي المظلمة القارسة، في قمّة الجبل الذي يلفّه الصمت ويغلّفه الظلام المطبق، والذي يتوسّع في كلّ الأرجاء بلا نهاية. ويجلس حسن في ركن بيته، القسم، ملتحفا دثارا من صوف، بينما المذياع إلى جواره يجاهد لالتقاط موجة تبثّ شيئا بلغة يفهمها، إذ أن قوّة بثّ إذاعات إسبانيا التي تحتلّ السماء تجعله يوشك أن يصدّق أنّه في مكان ما خارج حدود الوطن.

يمكث لساعات من الليل الطويل يحلم بعينين مفتوحتين، فيتصوّر أنّ هناء باتت زوجة له، وأنّهما يقطنان بالبلدة في سفح الجبل، حيث الدفء، ورائحة طاجن لحم وخضار مرويّ بزيت الزيتون البلدي، تعدّه له على مائدة العشاء، تحلّق في سماء المكان... وهي، هناء، ماذا يمكن أن ترتدي له بعد أن يقفلا خلفهما باب الدار؟ فستانا مطرّزا؟ بيجامة قطنية برتقالية اللون؟ أم قفطانا مرصّعا بالعقيق والسفيفة؟

ينهض حسن حين ينتبه، وهذا حدث معه في أكثر من مرّة، إلى أنّ

الجوع في هذا الجبل وحش ضار يرفض الاستسلام، ليشعل نار الموقد الغازيّ على ما يفضل في الإبريق من شاي، ثمّ يسكبه ساخنا في كوب زجاجي، يعصر سخونته بين راحيته المتصلّبتين بردا قبل أن يرشفه بنهم مع قطع الخبز التي يغطسها في صحن زيت الزيتون. يدفع جوعه إلى حين، عبر هذه الوجبة الاضطرارية، قبل أن يعود أدراجه ساحبا فوق جسده المرتعش الدثار الدافئ، ومناديا بصوت يكاد يكون مسموعا من وراء الجدران على هناء، يدعوها أن تستلقي إلى جواره.

حين تشرق الشمس، وتتدفّق أشعتها في حنان أموميّ تمسح السواد عن وجه الجبل، يفتح حسن عينيه على حين غرّة، وزقزقة عصافير مبتهجة بحلول الضياء تغرق السقف القرميدي فوقه في سيمفونيتها اللامتناهية، عندها، وبعد أن يجول ببصره في ربوع المكان، يكتشف، بيقين تامّ في هذا الوقت، أن هناء التي نامت إلى جواره تهمس في أذنه طوال الليل قصصا وأشعارا، قد انصرفت، وأنّ هناءِ، الأخرى، الحقيقية، ستكون عمّ قريب، هناك في مدرسة البلدة، والتي تبدو ساحتها لامعة من قمّة الجبل في هذا الوقت من النهار، تصدح بصوتها العذب طالبة من عصافيرها في القسم ترديد إنشادها. ويمرّ النهار، وهو يفكّر في ذلك، في أنّها هناك، على بعد بضعة كيلومترات منه، وأنّه هو هنا، ينتظر حلول يوم الخميس، يوم السوق المرخّص للأساتذة فيه، بتواطؤ علنّي، بزيارة البلدة لبعض الوقت، ومنه تجديد الولاء للمدير. وهذه هي فرصته الوحيدة والسانحة لرؤيتها عن كثب، وتبادل أطراف حديث يجده دائما هو في النهاية قصيرا وغير متماسك الفقرات.

بعد أسابيع، وجد حسن نفسه قد ألف الحياة بالجبل، فالوحشة المفزعة التي صاحبته في الأيام الأولى، إلى درجة أنّه لم يكن يطمئنّ إلى النوم إلّا بعد تسرّب نور الفجر يدفع الظلام الدامس ويطرد الأشباح والهواجس، قد تراجعت تدريجيا وتبدّدت في استسلام. ومادام طيف هناء يزوره في

كلّ ليلة يلاغيه ويؤنسه، فإنّ الضجر من الاستلقاء في وحدة رغم الضجيج الذي يحدثه المذياع، اندحر وقد صار وقت الخواء ملكا لثراء الخيال. لكن حسن كان يفكّر في جدوى هذا الخيال، المنتصر هنا على الملل والخوف والخواء؟ فبينه وبين الحقيقة المتوهّجة بمدرسة البلدة واد عريض وعميق من الحجارة والانحدارات. وعليه هو إذ ذاك، التفكير في جسر متين يعبر به، بدل تلك الحبال المهترئة التي يتشبّث بها قليلا قبل أن تطرحه بعيدا دون أن توصله إلى مرفأ هناء. إنها الحصيلة التي خلص إليها بعد وقت من الدوران داخل دوّامة أحاديث متكسّرة، يفتعلها، كلّما واتته فرصة اللقاءات الأسبوعية مع ساكنة كيانه ومكتسحة أفكاره. والأمر صار يتطلّب أكثر من مجرّد تفكير، أو انتشاء طفولي بتبادل كلمات عابرة، وابتسامات قد لا تتعدّى كونها مظهر لباقة زمالة لا أكثر، ترسمها هناء على وجهها اللؤلؤي بخفّة وثقة من يجيد التحكّم في ملامحه كما يتحكّم بمشاعره.

حسن الذي كان تلميذا بالأمس صار اليوم معلّما. وسعادته لا توصف حين يقف ببدلته ناصعة البياض أمام تلاميذه الصغار يؤدّي واجبه بشغف والتزام. وما بين السبورة والطبشور والقلم والدفاتر يضيع حسن في حلم طفولي بديع، مسافرا في عالم تصبغه ألوان بريئة، وتنيره عيون لامعة متلهّفة، وتجمّله أصوات عذبة صادقة. لكنّ أمرين يشوّشان على صفاء ذهنه ويعكّران تدفّق مشاعر وجدانه: السكن في وحدة عند قمة هذا الجبل الموحش، وهناء تلك التي لم يعد قادرا على تحمّلها ترفرف بعيدا عن بستانه. والأمران متربطان ببعضهما، والحلّ كامن في ضرورة الحسم مع هناء، فالظفر بها هو السبيل الوحيد الذي سيسكن أوجاع قلبه ويجعل مسألة السكن بالبلدة حتميّا لا اختياريا. لذلك حين رآها يوم سوق البلدة، قادمة كفراشة هادئة نحو مبنى الإدارة قبيل موعد الاجتماع، بينما هو داخل من باب المدرسة المقابل للسوق، انتابته حمّى طارئة جعلته يندفع صوبها كحصان جافل، دون أن يعير أدنى اهتمامه لأيّ شيء آخر. وهي

حين رمقته يهرول صوبها مثيرا من حوله غيمة من غبار ساحة المدرسة، سرّعت خطواتها بشدّة متجاوزة نقطة الالتقاء المحتملة، قبل أن تلج قاعة الاجتماع بمبنى الإدارة وقد تركته خلفها على بعد بضع خطوات.

مناورة هناء الذكية لم تثن إصرار حسن على المواصلة، إذ أنّه دخل القاعة خلفها ليجدها وقد جلست على كرسيّ مقابل للباب عند طاولة الاجتماع. رمقته بنظرة حذرة حين رأته قد اقتحم المكان فسارعت إلى سحب كرّاسة من حقيبتها الجلديّة البرتقالية، ثمّ فتحتها بين ذراعيها فوق الطاولة دون أن تعود إلى النظر تجاهه. أمّا هو فقد توقّف إلى جانبها مباشرة ملقيا عليها التحية، قبل أن يسحب كرسيا ويجعله في مواجهتها عن بعد نصف متر تقريبا من كرسيّها.

- هناء، قالها متنهّدا.

- نعم يا حسن؟، تكلّمت ووجهها لايزال إلى الكرّاسة.

- لا أعلم من أين أبدأ حديثي؟ ولا أريد أن آخذ من وقتك الشيء الكثير...

- تحدّث إذن...

- بصراحة، وقد راح يفرك بشدّة يديه، أنا...، أنت...، أنا معجب بك يا هناء!

جمعت هناء الكراسة بحركة منفعلة ثم أعادتها إلى الحقيبة.

- وما المطلوب منّي أنا إذن؟

- أريد الارتباط بك؟

تطلق هناء ضحكة صارخة.

- كيف تطلب منّي الارتباط ونحن بالكاد نعرف بعضينا؟

- لكنّنا نشتغل في نفس المجموعة المدرسية، ودرسنا في نفس الوقت في مركز واحد.

– وهل تعتقد أنّ هذا كاف؟ أيّ شخصين يعملان معا أو يدرسان معا يرتبطان؟

– طبعا لا... ما يموج داخلي ليس مجرّد إعجاب بزميلة لي في العمل أو الفصل، أنا أفكّر كلّ ليلة فيك يا هناء، وكلّما لمحت مقلتاي هامتك الجميلة إلّا وارتجّ قلبي وارتعشت أضلعي...

– أرجوك يا أستاذ حسن توقّف عن هذا... نحن زميلان لا أكثر...

– أنا أطلبك بصدق يا هناء...

– وأنا قد أجبتك بصدق أيضا حين قلت لك أنّي لا أعرفك جيّدا...

– إذن فأنا أطلب منك تعارفا بيننا.

– توقّف عن هذا يا أستاذ حسن، كيف تطلب طلبا غريبا هكذا؟

– لا ليس غريبا، يمكن لنا التنزه قليلا بتطوان، نجلس بمكان مهذّب ونتحدّث لبعض الوقت... عندها على الأقلّ ستأخذين فكرة عنّي، ثمّ...

– ثمّ ماذا؟ أنت تتحدّث إلى فتاة محترمة...

– لا، لا تسيئي فهمي أرجوك، نيّتي صادقة...

وقبل أن يضيف حسن كلمة أخرى، كانت أصوات المدير وباقي المعلّمين تبدّد جملة واحدة سكون القاعة.

كان على حسن أن ينتظر أسبوعا بأسره من أجل محاولة جديدة مع هناء. ورغم أنّه اقتنع بجدوى حديثه هذا في إيصال جوهر طلبه إليها بشكل جليّ ومباشر، إلّا أن مرور أسبوع بلياليه الموحشة الطويلة، بين الجدران الكئيبة الباردة، وهناء تغرّد قريبا بعيدا عنه في سماء البلدة، أشياء جعله التفكير المستمرّ فيها يدخله في حالة من التوتّر الشديد من أوّل ليلة، لا سيما وأنّ هناء – الطيف – التي كان لا يفوتها أن تزوره كلّ ليلة قد غابت هي الأخرى، فتركته يعارك في انفراد تامّ ضراوة برد الجبل وقسوة أصداء كلمات هناء –الحقيقية– التي ظلّت تتردّد طوال الليل كالرصاصات

الحارقة في صدره. أسبوع طويل يمضي، أرق وشوق وقلق. ثم يجيء يوم سوق البلدة، فيوظّف حسن كلّ مهاراته من أجل الحظي بفرصة للاستفراد بها. لكنّ هناء تسمع بصبر نافد لأشعاره، ثمّ تتركه ساهما غارقا في أنهار عرقه وتمضي كسراب يتلاشى عند الأفق.

ثمّ أسابيع وأسابيع تمضي، ويوشك الموسم الدراسي على الانقضاء، بينما لم يجن حسن من محاولاته الملحّة للتقرّب من هناء غير جفاء، جعلها تتحوّل في حقيقتها الوجودية إلى مجرّد طيف ثان. وحتّى الأحلام العذبة التي عاش فيها صحبة طيفها الأوّل في خواء ليل القسم ووحشة الجبل، تحوّلت بدورها إلى آهات يزفر بها قلبه الفتيّ، وأوجاع تدقّ أضلعه الطرية، فتتشوّه معاني العشق، وتتوقّف سفن خياله عن السفر صوب الأفق الوردي الفسيح.

لم يجد حسن من بلسم يهدّئ نار جراحه غير ما يبثّه المذياع من أغاني حزن ودموع. يجلس خارج القسم بليل الجبل الموحش الطويل فوق كرسيّ المعلّم الخشبي الحديديّ، وقد علّق المذياع بالنافذة العالية لجدار القسم الخلفيّ. عبد الحليم حافظ ومحمّد الحياني وآخرون، يصدحون بألحان الشوق والحرمان، فتسحب قلبه المنفطر معها عبر أمواج من الكلمات والموسيقى والأصوات الدافئة المنكسرة إلى عمق من الضباب والضياع، بينما يحلّق خياله عبر نظراته الفارغة، في سماء الجبل السوداء، قبل أن يهوي به صوب أضواء متباعدة تنير محيط بيوت البلدة الجاثمة كقطعة من جمر عند امتداد السفح وكأنّها شفق جديد. هذه المرة، لا ينتظر حسن فجر يوم جديد، لا يوم سوق البلدة، ولا ساعة اجتماعات المدير، بل ينتظر هذا الليل السرمدي الحزين، ساعة بثّ أغنية حزينة بصدق عبر الأثير، حيث لم يعد للخوف مكان من الظلام أو الخواء أو الجبل. لأنّ بالقلب اشتعلت جمرة تحرق كلّ إحساس، حتى وإن كان هذا الإحساس شعورا فطريا بالخوف أو القلق.

ذات ليلة، جلس الأستاذ حسن خلف القسم، مع المذياع وكأس شاي ساخن. كان الأستاذ حسن كعادته ساهما في الفراغ الدامس المطبق على البلدة المضيئة أسفل. ثم فجأة هبّت نسمة منعشة لامست أسفل ذقنه، فانبعثت من داخل صدره تنهيدة قويّة حرّكت جفونه الذابلة وأوقفت شعر رأسه، فوجد نفسه على غير عادته قد راح يفكّر. أجل، هذه المرة فكّر حسن، فتوصّلت أوعية دماغه المتحفّزة لشيء، ثم قرّر. هناك رصاصة واحدة متبقّية بين ما تبقّى من أيام الموسم الدراسي، لن يتركها تبرد بين أضلعه دون أن يشحنها في بندقيّته.

حلّ يوم الاجتماع المدرسي الأخير، فرصة حسن الأخيرة. هذه المرة، اختار تنفيذ الهجوم بعد الانتهاء من الاجتماع وليس قبله. حين يتصافحون مصافحة الوداع في ساحة المدرسة، وحيث تتحرّك المشاعر وتختلج، ستكون هناء هي آخر شخص يصافح، وسيحرص هو على أن يكون هو أيضا آخر شخص تصافحه هي، فيكون ذلك ذريعة لفتح الحديث مجدّدا معها، ومن ثمّة المشي معها على انفراد حتّى خارج باب المدرسة. هذه المرة يجب أن يأسرها بكلماته، ويجعلها تطّلع عن كثب على جراح فؤاده التي تنتظر وصفة دواء من صيدليتها. تلك رصاصته الأخيرة، يجب إطلاقها، ويجب أن تصيب الهدف بدقّة.

– لن أستطيع العيش بدونك يا هناء.

كانت تلك آخر عبارة أطلقها وقد توقّفا معا عند بوّابة المدرسة، بعد كلام كثير ظلّ طوال وقت استفراده بها يسرده على مسامعها، وقد اتخذت هي موقف الذي ينصت دون أن يعقّب.

– لماذا أنت صامتة؟ السكوت يعتبر علامة الرضا في مثل هذه المواقف.

«هل اعتقد الأستاذ حسن فعلا في تلك اللحظة أنّ سكوت هناء هو موافقة؟ أم أنّه فقط أراد أن يناور صيامها المفرط عن الكلام؟». راودني

هذا السؤال وأنا أنصت لهذا الجزء من قصة حسن يرويه لي الأستاذ سعيد، زميله بالمهنة، ورفيق دربه في التدريس من يوم أن جمعهما القدر بمدرسة عمر بن الخطاب التي يشتغلان بها جبنا إلى جنب لحدّ اليوم، بينما مقصّي يقطع دون هوادة ما اختلط من شعر أسود وأبيض على رأسه.

«لا أعلم يا بنيّ، ولم يخطر على بالي أن أسأله هذا السؤال.» ردّ الأستاذ سعيد على سؤالي ثم حرّر ضحكة قصيرة بصوت عال.

أمالت هناء عنقها قليلا، ثبّتت نظرتها تجاه الطريق وكأنها تعيدها من سرحان بعيد، ثم ابتسمت. كانت أجمل بسمة يراها حسن ترتسم على ملامحها العذبة فتزيد محيّاها سحرا وإطلالتها تألّقا، بينما نسمة لطيفة تعبر فتراقص خصلات من شعرها الكستنائي الحريري فوق جبينها الذهبي. رقص قلب حسن داخل صدره كحقل من سنابل غمرته رياح مساء صيفي معتدل، ثمّ عبرت كلّ أسطوانات أغاني المذياع الحزينة ذاكرته السمعية سريعا واندثرت. ابتسم حسن، وانتظر. انتظر أن تقول هذه الحورية شيئا. انتظر أن يخرج من بين شفتيها الرحيقيّتين خبر يروي ظمأ نهاراته ويضيئ ظلام ليلاته. فجأة، أحسّ حسن أن قلبه قد انقبض. توقّف. لم يعد يخفق. لأنّ الظاهر أنّ هناء لم تكن تبتسم له، وإنّما للشابّ الذي يتقدّم نحوهما.

ظلّ فؤاد حسن منقبضا وهو يتابعه يقبّل هناء على خدّها، فتتحرّر هي من صمتها وتبلغه:

- أستاذ حسن، أقدّم لك خطيبي، الأستاذ مراد. إنّه يعمل مدرّسا بتطوان. سنتزوّج هذا الصيف، بعد أسابيع قليلة. ومع الدخول المدرسي، الموسم المقبل، سأضع طلبا للالتحاق بالزوج، ومع وجود معارف لأبي بالوزارة سيستجاب لملفّي سريعا، وسأرحل عن هذه البلدة اللعينة، ولن أفتح عينيّ كلّ صباح على هذا الجبل البشع. عفوا، نسيت أن أقدّم لك يا مراد الأستاذ حسن، زميل لي بالمجموعة المدرسية. وعلى فكرة، هو يشتغل هناك في قمّة الجبل، ويقطن بقاعة الدرس التي يدرّس بها.

ختمت هناء حديثها بضحكة مزدرية، ثم أدارت وجهها عن حسن قبل أن تلفّ ذراعها حول ذراع خطيبها، ويسيرا معا يترنّحان حتى صعدا سيارته المركونة عند حافة الطريق. عندها، عاد قلب حسن للخفقان من جديد. لكن، وفق إيقاع مغاير تماما.

في تلك الليلة، وراء القسم بقمّة الجبل الذي ازداد توحّشا وبردا، وبينما المذياع عند النافذة يبثّ أغاني عشق كلاسيكية حزينة، يسحب المعلّم الشاب سيجارة ملفوفة إلى جوار أخريات في قطعة ورق جريدة من جيب قميصه، يشعلها ويدخّن. يدخّن لأوّل مرة في حياته، دخان عشقه الصادق، وسراب الحبّ الطفولي البريء.

حكاية سمير

(5)

سمير يحكي...

عندما سمعت، وأنصتّ بإمعان لقصة الأستاذ حسن مع زميلته بذلك الجبل المظلم البعيد ونهايتها السوداء المؤلمة، لم يغف لي جفن في تلك الليلة أيضا. فقد ظلّت الحكاية تتكرّر أمامي عشرات المرات والمرات، حتى اكتشفت أن وقت التحاقي المحتوم بورشة الوجدي قد حلّ.

لقد سببت هؤلاء الأوغاد طوال ساعات النهار اللاحق وأنا أجاهد لفتح عينيّ للتمييز بين مليمترات «الميترو» أداة قياس الطول. شتمتهم أيضا - باستثناء نبيل باعتباره لم يكن يرغب في الحكي في البداية إلّا بعد إلحاحهم -، لأنّي صرت أتصوّر بنت المصلوحي وهي تصفعني على خدّي بكلماتها الجارحة كما فعلت هناء مع الأستاذ حسن.

الآن هم يتجمّعون كلّ ليلة في الصالون بعد انصراف آخر الزبائن، يرشفون كؤوس الشاي الساخن، يدخّنون، ويقهقهون وهم يستحضرون حكاية الأستاذ حسن وبعض المواقف الشبيهة الطريفة. وأجلس أنا في الركن المجاور للباب دون رغبة منّي لشرب شايهم القاتم المرّ، أرمقهم بنظرات من الحنق والغضب، ولا أشاركهم هذا الجنون بضحكة، ولا

حتى كلمة. أريدهم أن يتوقّفوا عن ذلك، لأنّي أريد أن أكلّمهم، أن ينصتوا لي، فأنا أحتاج لمشورتهم فيما أنا مقدم عليه.

– في البداية، يجلب العشق لك السعادة دائما، ثم تكتشف عند نهاية الحكاية أنّه مجرّد وجع، جرح جديد تضيفه إلى ما بك من جراح وما لأحلامك من انكسارات.

قالها أشرف، كاتب المقال، بعد أن عرج على قصة عشق عاشها، ممّا اضطرني أخيرا إلى الانتفاض في وجوههم:

– كفى أيها السفلة! أنا أحتاج إلى مشورتكم وليس حطّكم لمعنوياتي.

فجأة صمتوا، وراحوا جميعا ينظرون صوبي، ويحدّقون في وجهي وكأنّهم يفكّرون. ثم راحت الاقتراحات تنهال عليّ من كلّ حدب وصوب. بدوا منتشين بالشاي المغليّ وغيوم دخان السجائر التي تكاد تحجب رؤية وجوههم:

– أنت تتبعها حتى باب الجامعة، إذن لماذا لا تستوقفها وتكلّمها؟ اعرض عليها صداقة، تعارفا في البداية...

– بل ابعث لها رسالة مكتوبة مع صديقة لها. هي طريقة كلاسيكية، لكنّها تبقى ناجعة. صدّقني.

– كفاكم يا قديمي الطراز! نحن نعيش اليوم في عصر التكنلوجيا، عصر السرعة والرقميات. البنات اللائي يعملن رفقتي بالبنك لا يتعرّفن على الشبان إلّا عبر الفايسبوك، ولا يقبلن بأساليب آبائكم وأجدادكم. اسمع يا سمير، جد اسمها وأضفها إلى حسابك.

– بل أنصحك أن تكون حذرا يا سمير. المصلوحي رجل شديد، والظاهر أن يده تسبق عقله، وحتى تتّقي شرّه تقدّم لخطبتها مباشرة.

– ...

هدّأت اقتراحات الأصحاب توتّري، لكنّها زادت حيرتي. هل عليّ أن

أختار واحدا منها؟ أم ماذا؟ فهي تبدو جميعها معقولة، وفي نفس الوقت تبدو نهاياتها غير محمودة العواقب. لا سيما وأنّ قصّة الأستاذ حسن لم تزل مشاهدها تعبر أمامي.

أمضيت ليلة بيضاء جديدة في التقلّب بين اقتراحات الشلة، والتقلّب على السرير أيضا، بين اليمين والشمال، الظهر والبطن. وعندما حلّ الصباح، وبدأت الحركة تدبّ في الشارع والبيت، غفوت أخيرا ولم أستيقظ حتّى العاشرة والنصف. ففوجئت وأنا ألج الورشة بالمعلم الوجدي حانقا، يرمقني بنظرة غريبة ويقول لي:

– حالك لا يسرّ هذه الأيام. وعملك صار زبلا. أنظر إلى هذه الطاولة المائلة!

– آه، لا عليك فأنا لم أنهها بعد.

– ومتى ستنهيها؟ أنا أفتح الورشة مع التاسعة وليس مع الحادية عشرة. ماذا أقول للزبون، أنّ سي سمير يبيت في سمر مع أصحابه فلا يستطيع الاستيقاظ باكرا من أجل عمله. ثم أين ذهبت ذلك اليوم وتركتني وبرهامي نقلب الدنيا ولا نقعدها بحثا عنك؟

كانْ دوّار قلة النوم يضغط عليّ فعجزت عن الردّ، فواصل هو النيل منّي:

– اسمع جيّدا، هناك نجّارون ماهرون كثر لا يجدون ورشة للعمل بها.

أدار ظهره لي وصرّح:

– أنت طبعا تفهم قصدي.

هذا الكلام، أو التهديد، سواء اعتبرته مباشرا أو غير مباشر، سأسمعه منه مرارا وتكرارا في الأيام اللاحقة، بصيغ مختلفة، وكأنّه يتفنّن في ذلك، على حسب قول عمّي: «الرؤساء في العمل يتفننون في الكلام، حين يتعلّق الأمر بإذلال عامل أو مستخدم». عمّي الذي كان يعمل مساعد تقنيّ

بمصنع أسلاك الطائرات، والذي أحيل على التقاعد المبكّر، الاضطراري، قبل بضع سنوات، رغما عن أنفه، توصّلت أخيرا إلى معرفة سبب أو أسباب الحقد الذي يضمره لما يسمّى رأسمالية. فأنا حين حكيت قصة صرفه المبكّر من العمل لشلّة السمر بصالون نبيل، وأنّه لا ينفكّ يسبّ الرأسمالية وكلّ ما يلفّ حولها من مفردات ومفاهيم، قام نبيل وأشرف وحمزة بربط الأحداث ببعضها البعض وفق شكل بدا لي غريبا في البداية. فحسب تفسيرهم، فالأزمة الاقتصادية التي ضربت أوربا وتأثّرت جراءها الشركات الأوربية، قد انعكست تبعاتها على مصنع الأسلاك الذي هو فرع لإحداها هنا بالمغرب، وللتقليل من حجم المصاريف والخسائر فقد عمدت جلّ تلك الشركات إلى صرف عدد من العمال والموظّفين، وعمّي كان أحد هؤلاء الضحايا.

حفظت هذا الكلام، التفسير، عن ظهر قلب، وسارعت إلى استظهاره كما هو على مسامع عمّي عند أوّل زيارة له بدارنا. ابتسم عمّي حتى ظهرت نواجده الصفراء المائلة مؤكّدا صحة هذا الربط بين الأزمة الاقتصادية وإحالته هو على ما يسمّيه تقاعدا اضطراريا. لكنّي لم أكن أنا قد فهمت بعد. فترك عمّي، لأوّل مرة ربما، سبّه وتنديده الشرس بالرأسمالية وراح يبسّط لي الأشياء والمفاهيم التي كان يستعصي عليّ دوما فهمها.

أخيرا، صار بإمكاني أن أقول شيئا عن الرأسمالية. إنّها هذا النظام المالي الذي تتعامل داخله الشركات والمصانع والأبناك والمتاجر وغيرها وفق مبدأ الربح والخسارة، إنّها ببساطة كلّ شيء يعتمد على رأس المال ويتعامل به. وهي حتما شيء جشع، لأنّها كانت السبب وراء طرد عمّي المسكين من عمله الذي ظلّ متفانيا فيه لسنوات طوال. وهي ما قد يدفع المعلّم الوجدي للتخلص منّي أنا أيضا ذات يوم، حتى يتفادى النزر اليسير من خسارة قد يحدثها انشغالي هذه الأيام بمسألة قلبي الذي يرفرف داخل

صدري، يومٌ صرت أراه أقرب من يوم إقدامي على فعل شيء مع ابنة المصلوحي غير السير خلفها وصويحباتها حتى باب الجامعة.

وحتى أستبق الوجدي، فلا أمنحه فرصة إذلالي والنيل منّي كما فعلت شركة أسلاك الطائرات بعمّي، سارعت إلى سؤال هذا الأخير إن كان يريد الدخول معي في شراكة بمنحي استغلال الدكان الذي أهداه صهره، أب زوجته، لابنته يوم زواجها بعمّي. هذا الدكان المتواجد بحيّ الفردوس، كان مستأجرا في البداية لبقّال، ثم إسكافيّ، ثمّ بائعة أثواب، قبل أن تستغلّه زوجة عمّي يوم صرفه من العمل في أعمال خياطة نسائية، لكنّها قبل شهور توقّفت بعد كساد أصاب حرفتها، جرّاء تفضيل زبوناتها للجلابيب الجاهزة حسب وصفها.

حكاية نبيل

(5)

شهريار يحكي...

هل أصابتني لعنة جدّي الأكبر؟

منذ اليوم الأوّل الذي سقت فيه القطيع أمامي عبر المراعي والغابات، بعد رجوعي الأخير إلى القرية، ومخاوف تستوطن كياني وتتجدّد في كلّ صباح أفتح فيه أبواب الحظائر وأسمح للحيوانات الأليفة أن تسبقني، من أن يكون مشيي هذا خلف القطيع بداية لحلول لعنة الراعي، جدّي الأكبر، عليّ بعد أن نجا منها كثيرون من أجيال العائلة السابقة والحاضرة.

هذه الهواجس الملازمة لي كناموس المستنقعات العنيد، تأكّدت حين أضاف والدي بعض البقرات إلى القطيع. خمس بقرات ابتاعها أحد أقاربنا الساكن بالمدينة، ودفع بها لتكون تحت رعايتنا مقابل اتفاق أجهل أنا بنوده. بعد ذلك بأيام قليلة، طلبت منّي جارتنا العجوز القاطنة بالتلّ من جهة الغابة، والتي ننعتها بخالتي فاطنة، أن أسوق قطيعها الصغير رفقة قطيعي، لأنّ شوكة صبّار انغرست أسفل قدمها. ولأنّها استهانت بضراوة شوك الصبار، راحت تدلّك المكان المصاب كلّ مساء بحجر تتركه حتى يستعر قرب موقد النار، ظنّا منها أنّ الحرارة ستدفع بقدمها إلى طرح

الشوكة خارجا، ثم تعود للسير على قدمها المصابة طيلة النهار الموالي. ومع مرور الوقت، تعفّن مكان الشوكة ثمّ انتفخت قدمها، فلم تعد فردة حذائها اليمنى تتّسع لحجم القدم الجديد.

بقدم منتفخة وجرح متعفّن، إضافة إلى ظهرها المقوّس، صار المشي طيلة النهار خلف القطيع أمرا شاقّا على العجوز. وفي انتظار أن تلفظ القدم الشوكة ويندمل جرحها وتعود إلى حجمها الطبيعي، فإنّ رعي قطيع الخالة فاطنة أضحى من مسؤوليّتي، وبذلك بنت فكرة لعنة جدّي الراعي عشّا وحطّت في سكينة فوق رأسي.

وحتّى تكتمل أبعاد مهنتي الجديدة، صارت خالتي فاطنة في كلّ مساء، وحين أعرج على بيتها، لأسلّمها أمانتها، تجلب لي من داخل دارها قدرا من لبن بارد ونصف خبزة من شعير محشوة زبدة وعسلا. تفعل ذلك في كلّ مرة، ثم تظلّ أمامي مستندة على عكّازها المعقوف تحكي لي عن أبنائها الذين رحلوا بعيدا، وعن بناتها المحجوزات في البيوت بين الأشغال وصرامة الأزواج، وعن ابنها، العاق كما تنعته، مسعود الذي يقطن في الطرف الآخر من الغابة، والذي لهث خلف زوجته، على حدّ وصف الخالة فاطنة لحالته، فذهب يشتري أرضا ويبني عليها بيتا ويترك أمّه للوحدة والنسيان بين جدران بيت العائلة المتداعية، فلا يزورها إلّا يوم السوق في طريق عودته، جالبا لها معه بعض الحاجيات. وبسبب جلوسي هذا في كلّ مساء لتناول تلك الوجبة البسيطة اللذيذة، فأنا قد حفظت عن غير قصد أسماء أبنائها وأحفادها أيضا. وتمنّيت، لولا مخاوفي من التصاق لعنة الراعي بي إلى الأبد، لو أستطيع الاستمرار في رعي القطيع لها، لأنّي لم أكن صراحة قادرا على الاستغناء عمّا صرت أصفه بألذّ خبز وأعذب لبن مخيض ذقتهما في حياتي.

أنا الآن صرت راعيا. ملابسي، مأكلي ومشربي، عصاي وهيئتي، كلّ هذه الأشياء تواطأت لتحوّلني إلى راع أصيل. وحتى الناس الذين

يقابلونني في الطريق رفقة القطعان يندهون عليّ بالصفة عينها، فأستجيب أنا لنعتهم مستسلما لشباك اللعنة التي صارت تطبق الآن جيّدا عليّ أكثر من أيّ موسم مضى. «لا فرار إذن!»، هكذا كنت أخاطب نفسي وأواسيها. ولا ألومها، ما دام هذا العمل متوارثا، وما دام هو أهون بكثير من أعمال أخرى يتكلّف بها أخي إدريس وأبناؤه، أعمال لم تصبني لحسن الحظ لعناتها.

إلى متى سيتسمر هذا الحال إذن؟ أفكّر أحيانا في سبيل إلى الخلاص وأنا أتصوّرني أتزوّج من بنت فلاّح في الجوار أو بنت راع مثلي أتقاطع معه ذات يوم السبيل فيعرض عليّ الزواج منها. أتذكّر الغرفة بشقة أخي محمّد، قصاصات الحلاقة، وشوارع المدينة التي لا تهدأ. أفكّر في الفتيات المتزينات، في أيام الجامعة، في المستقبل الذي صار ماضيا، وفي حقيبتي السوداء التي رميت بها بركن ما بالبيت، بعد أن أفرغتها من آخر ما حملت: كرّاسات محاضرات، أوراق امتحانات، أوراق بيضاء، قلمان أو ثلاثة، آلة حاسبة قديمة، حقيبة حمام صغيرة بها أدوات الحلاقة التي اقتناها لي أخي محمّد كتشجيع منه لي على الاستمرار في المعهد، والذي كان يدفع لي حتى تكاليفه، وأشياء أخرى نسيتها. أفكّر في كل ذلك، وأنا مستلق على ظهري فوق العشب الأخضر الشائك، محاطا بحوافر الأبقار والأغنام ورأسي إلى السماء الزرقاء الصافية في أشسع امتداد. لكنّي كنت مقتنعا أنّ التفكير، مجرّد التفكير فقط، لن يحمل الكفاية لتخليصي من هذا الأسر اليومي الرتيب.

السوق الأسبوعي، يوم الأحد، يعتبر يوم عطلتنا الوحيد. على الأقلّ نحن في راحة من أشغال يوم البادية الطويل حتى العصر. لكنّي على عكس الآخرين الذي كانوا يستأنفون أعمالهم ما إن يبدأ قرص الشمس في السير نحو الاحمرار، فقد كنت أنا، وبتعمّد وتواطؤ، أواصل إكمال يوم العطلة إلى آخره، فأظلّ متسكّعا بين مقاهي القرية، حيث ساحة السوق،

ودكاكينها، أجالس زملاء الدراسة القدامى وبعض أبناء الجيران، نحتسي الشاي، نتسامر، ونلعب الورق. فلا أعود أدراجي إلّا والنجوم قد رصّعت في لمعان جوف السماء.

ذات سوق وأنا مشدود الانتباه إلى شوط لعبة الورق التي أنا مشارك فيه، نزلت يد بشرية بقوّة على كتفي فتشتّت كلّ الانتباه.

- لقد انتظرت ظهورك اليوم كلّه.

كان ذلك عبد العالي الحلّاق. وقبل أن أعقّب أو أعود بنظري إلى ساحة اللعب أكمل:

- بعد أيام يحلّ عيد الأضحى كما تعرف. والزبائن سيتوافدون عليّ بالأفواج. الصالون الصغير في مثل هذه الحالة يكتظّ، فلا أريد أن يرحل بعضهم إلى صالون آخر من طول انتظار دوره مثلما حدث معي اليوم...

حين أكمل حديثه، كنت قد فقدت تركيزي على اللعبة كلّية. لم أفز بذلك الشوط، وانسحبت من الأشواط التي تلته، فرياح فوز آخر كانت تطيح بكلّ الرايات البيضاء المنتصبة بعناد على أبراج قلعتي.

هل نجوت أخيرا من لعنة الراعي؟ على الأقلّ، ورغم استمراري في سوق القطيع، قد صارت لي مهنة أخرى غير ذلك العمل المملّ والرتيب. أجل، لقد صرت اليوم أعمل كحلّاق احتياطي يستعين به حلّاقو القرية يوم السوق الأسبوعي وفي أيام الأعياد، حين تكتظّ صالوناتهم الضيقة برؤوس بشرية ينبت فيها شعر كثيف قد طال في مبالغة وغير انتظام، تزيد سمك وصلابة شعيراته طبقات من أوساخ وقشرة ودهون قد تراكمت فيه منذ شهور، من القمّة وحتى الجذور، فراحت الحشرات الدقيقة تصول وتجول بينها في ارتياح وخمول، تؤانسها رائحة عفن طافية، تصفع وجه الحلّاق بسخونة ما إن يقف خلف الكرسي في تهيؤ لبداية عملية الحصاد الطويل.

حكاية أشرف

(1)

أشرف يحكي...

حلمي وأنا طفل صغير هو أن أصير صحفيّا. يسألني الأقارب وأصدقاء العائلة ذلك السؤال الأزلي الذي يطرحه الكبار على الصغار الذين لا يعرفون من الدنيا إلّا البيت والمدرسة واللعب: «ماذا تريد أن تصير عندما تكبر؟»، فأجيب واثقا: «مذيعا!»، فيفتحون أفواههم في عجب ويضحكون. وقد كانوا يظنّون أنّ والديّ هما اللذان أوصياني بذلك. لكنّ الحقيقة أنّي أنا من كان يتمنّى بمحض إرادتي أن أصير كهؤلاء المذيعين الأنقين الذين يظهرون كلّ يوم على شاشة التلفاز ويقدّمون أخبارا وبرامجا. كان ذلك في المرحلة الابتدائية وربما قبلها حتى بقليل. ومع تقدّمي في السنّ والدراسة صار هذا الحلم يترسّخ على مرمى طموحي، لا سيما وأنّ العالم السمعي البصري انفتح انفتاحا مبهرا عبر الفضائيات، وأضحى مقدمّو البرامج والمذيعون ببعض القنوات العربية ساطعين كنجوم السينما والمسلسلات. لذلك وأنا في الإعدادي وبداية الثانوي كنت أجلس بالبيت لوقت طويل فارها فاهي أمام شاشة التلفاز أنتظر ظهور نجومي المفضّلين، بل وأسهر لوقت متأخّر لمشاهدة ما فاتني

من حلقات برامج معادة. وحين أطفئ التلفاز وأستلقي في فراشي للنوم، أظلّ أتقلّب على كلّ جنباتي وأنا أتخيّلني أقدّم برنامجا أو أدير حوارا، ثمّ أهمس في سكون الليل بين ثنايا أرقي الطويل: «نعم. يجب أن أصير ذات يوم كهؤلاء.»

بالموازاة مع ذلك صارت تستهويني أيضا قراءة بعض ما يُكتب في الجرائد التي كان أبي يجلبها باستمرار إلى البيت، وفهمت أنّ الصحافة التلفزيونية والمكتوبة متقاربتان. ثمّ بالتدريج صرت أتراجع عن الحلم الأوّل مقابل حلم جديد، هو أن أصير صحفيّا بجريدة. فكّرت في ذلك وأنا في السنة الختامية للثانوي، وقد صار كتّاب الأعمدة الثابتة بالجرائد يأسروننا نحن الشباب المقبل على فهم ما يموج به عالم الكبار، خصوصا في شطّه السياسي. في هذه المرحلة بالذات أصرّ عليّ أبي، أستاذ اللغة الفرنسية بالسلك الإعدادي، أن أكمل مشواري الدراسي في التخصّص العلمي، رافضا بذلك رغبتي «اللاواعية» حسب وصفه، في أن أصير صحفيّا.

كانت خيبة أمل كبيرة لحقت بوالدي حين لم أحصّل على معدّل جيّد في البكالوريا يخوّل لي الولوج إلى إحدى تلك المدارس والمعاهد العليا التي كان يتمنّى رؤيتي طالبا بصفوفها: الطبّ والصيدلة، هندسة، إدارة مقاولات... وحتى المعهد العالي للإعلام والاتصال، والذي أرسلت ملفّ الترشح لولوجه خلسة منه، باعتباره يخرّج صحفيّين، هو الآخر كان لا يقبل إلّا بالمعدّلات المستحسنة. فالتحقت في نهاية المطاف بكلّية العلوم، شعبة رياضيات وفيزياء، بأمر من والدي. لكنّي غادرتها بعد شهور حين انتفخ رأسي بالأرقام والمعادلات. غضب أبي أشدّ غضب. وصرف جزء من غضبه هذا في وجه أمّي. صاح فيها:

– نهاية مدلّلك هذا أن يمسح الأحذية في المقاهي أو يبيع السجائر على الأرصفة.

تطأطئ أمّي رأسها في استكانة قبل أن تستجمع بعض شجاعتها في دفاع عنّي:

– منذ طفولته وهو يحلم أن يكون صحفيّا، وأنت حرمته من رغبته.

– كوني عاقلة يا امرأة! المستقبل لا يُبنى على أحلام صبْية ورغبات طارئة، إنّما بالتخمين الجيّد والجدّ والمثابرة. لو اهتمّ بدروسه بدل السهر أمام شاشة التلفاز ومشاهدة البرامج الفارغة لكان حصّل على معدّل يجعله مقبولا في أيّ مدرسة عليا اختار. أو على الأقلّ واصل بكليّة العلوم كما يستميت أقرانه، وليس الفرار هكذا كجرذ مذعور. أنت دلّلتِه. تقولين: دعه على راحته، إنّه يعلم ما يفعل، إنّه ولد عاقل.

لم تردّ أمّي. لكنّي كنت أنصت لعاصفة أبي تهزّ سقف البيت، وتجعل وحلا من الدموع والغبار يتكدّس داخل حلقي، بينما حلم طفولتي ينتفض بداخلي كبركان حام: يجب أن تراني ذات يوم يا أبي صحفيا ناجحا، فتقدّر ما حقّقت وتعلم أنّك كنت مخطئا في الحكم عليّ.

بعد سنة كلّية العلوم خاوية الوفاض، وسنة فراغ وتيه، ملأتها بكتابة تقارير «صحفية» غريبة وقمت ببعثها إلى عناوين كلّ الجرائد التي مرّت تحت مقلتيّ على أساس أن يُنشر أحدها ضمن تلك الفقرات المخصّصة لكتابات القرّاء، والتي كان مصيرها جميعا الإخفاق، انتابني يأس ثقيل، وشعرت أن خيبتي الأولى، والتي حدّدها والدي في معدّل الثانوية المتوسّط، تتناسل فتحلّ عليّ من إرثها خيبات أخر. وحتّى مجال الصحافة الذي مثّل طموحي الأكبر، ها أنا عجزت عن ولوج بابه الأوّل الصغير. لكنّ الأمر لم يستمرّ أكثر من ذلك، أمر الخيبات المتناسلة هذه، على الأقلّ في نظر أبي، ففي السنة التي تلت قُبلت في معهد متخصّص تابع للتكوين المهني، تخصّص تسيير مقاولات. التحاقي بالمعهد حمل إلى نفسي بعض الاطمئنان، وجعل أبي ينصرف بعيدا عن محاصرتي بعتابه اللاذع، فوجدت حيّزا معقولا من الوقت للانكباب على هواياتي

المفضّلة. فوقت الدراسة بالمعهد هو نصف نهار، إمّا حصة صباحية أو حصة بعد زوالية. لذلك فحتّى سهري إلى وقت متأخّر لم يكن يشكّل مشكلا على استيقاظي في الصباح مادامت حصّة اليوم الموالي ستبدأ مع الواحدة بعد الزوال، وهذا كان يوافق ثلاثة أيّام في الأسبوع. والثلاثة الأخر، ذات العشيّات الفارغة، فقد كنت أمضيها في نوم طويل يهيّئني للسهر الطويل مع القهوة والموسيقى والمطالعة، أو مع برامج التلفاز الحوارية والإخبارية والوثائقية رغم قلّة هذه الأخيرة، وكنت أشاهد حتّى الأفلام وبعض المسلسلات.

هذا الروتين الذي عشقته حدّ الإدمان، والذي غرقت في بحره العميق والمديد طيلة السنة الأولى من دراستي بالمعهد، اصطدم بواقع جديد لم يكن يخطر لي على بال.

ففي مطلع العام الثاني، وجدتني منجذبا فجأة لفتاة تدرس السكرتارية سنة أولى. فقد صرت كلّما نظرت إلى وجهها اللامع وعينيها الواسعتين ذات الرموش الطويلة المائلة، إلّا وانتابتني قشعريرة تجعل قلبي يكاد يحلّق خارج صدري فرحا. وحين أطيل النظر إليها شاردا عن كلّ ما حولي وعن ذاتي، كانت هي ترمقني في البداية بنظرات متفرّقة سريعة قبل أن تستجيب لإلحاحي بنظرة مطوّلة من عينيها الساحرتين، وإيماءة طفيفة بشفتيها كأنّها تبتسم. فأبتسم أنا ابتسامة ترتخي معها أعصابي حدّ الذوبان في مكاني.

تلك الفتاة. واسمها مريم سيكون لها تأثير عميق على تلك المرحلة من حياتي.

بعد أيام من تبادل النظرات والابتسامات، استجمعت بعض الجرأة وتصنّعت لباقة لم آلفها من قبل ثمّ خطوت ذات صباح صوبها، بمشية مترنّحة وكلّمتها. تعرّفنا إلى بعضينا في سياق حوار مهذّب قصير وتبادلنا أرقام هاتفينا. كانت بداية مشجّعة مدّتني بنفس عجيب من الثقة. ثم

وجدتني أبحث عنها في كل فترة استراحة وأتربّص بها مع كل وقت خروج. نشرب شيئا معا في مقصف المعهد ثم نتمشّى قليلا في ممرات حديقته الدافئة الهادئة. وأرافقها باستمرار إلى محطة حافلتها... وعبر الهاتف أغازلها برسائل قصيرة كل ليلة تقريبا قبل خلودها إلى النوم. حياتي كانت تنقلب بزاوية انقلاب كبيرة. كيف لا وعاداتي التي كنت أعشقها حدّ الجنون تراجعت إلى مرتبة سفلى بينما سطعت مريم كشمس ربيع حنون على شرفة قلبي، أضاءت أرجاءه المعتمة وأذابت الجليد عن بقاعه المتجمّدة القارسة. حقنة حياة جديدة تلقيّتها بين أضلعي فدبّت في شراييني رعشة سرور دائمة. لا برامجي التلفزية المفضلة ولا مقالات الجرائد المميزة ولا إدمان المطالعة صارت تشغل بالي أو تبقيني في سهراتي المتكرّرة، وإنما أشياء جديدة هي ما أضحت تملأ حيّز وقتي خارج وقت الدراسة، أو التكوين كما يحبّ لأساتذة تلك المعاهد تسميتها والذين بالمقابل يطلقون على أنفسهم لقب مكوّنين دون أن ندرك نحن الطلبة (أو المتدرّبين) الفروق بين هذه وتلك، أشياء كسماع الموسيقى لوقت طويل، أو مشاهدة فيلم رومانسي، أو فقط التمدّد فوق الكنبة واستحضار صورتها، ابتسامتها وصوتها أيضا، ثم أسهر الليل في بثّها رسائل حبّ قصيرة عبر الهاتف. وأحيانا أتجرّأ وأجري مكالمة هامسة أقول لها فيها: «اشتقت إلى رؤياك أيّتها الملاك... أحلاما سعيدة!».

وقياسا على حكايات العشق التي قرأت عنها وأفلامه التي شاهدتها، فقد فكّرت أنّ علاقتي (العاطفيّة) هذه معها تسير بشكل جيّد نحو التطوّر والتوطّد، لذلك قلت مع نفسي لم لا أعرض عليها الخروج رفقتي إلى مكان آخر بعيدا عن المعهد ومحطة حافلتها؟ أم أنّنا لا زلنا صغارا على الخروج هكذا في موعد نجلس بمقهى أو مطعم كما في أفلام هوليود، وأنا لا زلت آخذ مصروفي الأسبوعي من راتب أبي؟ أيصحّ القيام بذلك؟ أم نخرج فقط في نزهة إلى حديقة؟ إلى الكورنيش؟ إلى مكان أثريّ؟ عبر

شوارع وسط المدينة؟ لمشاهدة فيلم في السينما؟ لا، لا، صالات السينما لا تصلح للقاء رومانسي البتة، لقد أضحت متعفّنة كحانات قذرة. وأنا أريد الخروج معها إلى مكان أستطيع التحليق فيه أعلى ما أستطيع، وأنا أضمّ يدها الصغيرة الناعمة بين راحتي وأناملي، مكان يضخّ في نفسي أحاسيس إضافية ويفتح خيالي على أحلام لذيذة أخرى. كنت أريد للسريالية، تلك التي لم أكن أعرف مصطلحها هذا وقتئذ، أنت ترسم بكلّ أبعادها وألوانها وظلالها على صفحة أوّل يوم أسحبها فيه بعيدا عن ضغط جوّ الدراسة وما يحيط به من عيون راصدة وآذان متربّصة، خصوصا زملاء الفصل، الذين لا يكفّون عن طرح أسئلة غريبة حول الموضوع والتفوّه بحماقات.

فكّرت أن أعرض الفكرة عليها دون تردّد ولا مقدّمات. كنت مصرّا على أن تتخطّى حكايتي الجميلة هذه معها أفق لقاءاتنا المحصورة بالمكان والمحدّدة بالوقت. والتي صرت أراها امتدادا أو جزء من وقت الدراسة الذي أمضيه بالمعهد.

كنّا في بداية فصل الربيع. ونحن نتمشّى كعادتنا جنب أسلاك ملعب المعهد الرياضي وقت الاستراحة، وشمس العاشرة تطلّ من فوق الأشجار المتراصفة على طول السور الأبيض العالي بلونها الذهبي الدافئ، وطيور أجهل أسماءها تتجاوب في تغريد طروب بين أغصان أشجار تتوسّط حديقة المعهد الكبيرة، بطّأت أنا مشيتي بالتدريج حتى توقفنا في مكان بعيد نسبيا عن الممرّات الأخرى التي تعجّ بالطلبة والطالبات ببذلهم البيضاء الناصعة كممرضي مستشفى عمومي خرجوا فجأة وبسرعة من دوامهم نحو نزهة صباحية، ونحن أيضا، أنا وهي، بالبدلات البيضاء ذاتها، كممرّضَين انتهزا فرصة النزهة المفاجئة ليجدّدا عهد عشقهما. لكنّي لم أخرج في هذا الصباح، وفي هذه النزهة، عفوا الاستراحة، لأجدّد معها عهد عشقي لها، أو أغازل أنوثتها بقصيدة ركيكة، أو أحكي لها كما حدث في أكثر من مرّة عن منامي الذي ظهرت فيه هي كأميرة فاتنة أو كفتاة، فتاة

عادية لكنّها آسرة. بل أنا اليوم، أريد أن أحدث التغيير الذي سيفتح قصّتي الحلم هذه، على فصل جديد، أكتب أنا وهي معا فقراته سطرا سطرا.

(أتذكر هذا الآن، والكيفية التي كنت أفكّر بها في ذلك الوقت المبكّر من شبابي، فأضحك ساخرا من ذاتي وأقول: أيّ رومانسي حالم كنته؟)

قلت لها، ونحن مستندان بظهرينا على أسلاك الملعب مصوّبان نظراتنا في نفس الاتجاه صوب أعشاب الحديقة المشذّبة في نظام:

- لماذا لا نخرج ذات يوم معا؟

ابتسمت:

- نخرج معا؟ لم أفهم.

- نذهب إلى مكان هادئ وجميل. قلتها وأنا أستدير وأقف قبالتها.

- ماذا؟ نذهب إلى مكان خارج المعهد؟ أهذا ما تقصد.

- أجل، أيّ مكان تختارينه أنت.

- لا، لا، لا أستطيع.

- ولماذا لا تستطيعين؟ سنقوم بنزهة على كورنيش أبي رقراق أو في فضاء صومعة حسان أو ربما حديقة في وسط المدينة... أنت حدّدي المكان الذي تحبّين.

- لا أستطيع يا أشرف. صدّقني!

- لماذا؟

- لأنّه أمر لا يليق. شيء غير صائب. أن أخرج أنا وأنت في نزهة هكذا في مكان عامّ كأنّنا عاشقان يتواعدان؟

- ماذا تقصدين؟ نحن أصلا نتلاقى هنا كعاشقين.

- لا، لا، لا تخلط الأمور يا أشرف. وانس هذا الموضوع أرجوك.

كان جرس انتهاء الاستراحة يرنّ، وكانت هي قد استجابت له وتقدّمت ماشية بضع خطوات:

- ماذا تنتظر؟ أليست لديك حصّة الآن؟

كنت لا أزال واقفا في مكاني، أفكّر فيما قالت، أم أنظر إلى فراغ الملعب فحسب؟

حكاية عبد الإله المنصوري ونادية

(5)

عبد الإله يحكي...

بعد أسابيع مللت من وفاء، سماع صوتها، والنظر إلى وجهها المفرط في الزينة، وتأمّل تفاصيل جسدها... لقد صارت تُشعرني بالغثيان.

سألت عمر كيف أتخلّص منها؟ قال ضاحكا:

- بسيطة! قل لها أنّك لن تستطيع الخروج معها لأنّ جيبك يمرّ بأزمة مالية. أو أنّ زوجتك اكتشفت الأمر.

- امممممم. حسنا. وكيف أحصل على واحدة أخرى؟

ردّ ضاحكا:

- زير نساء جديد معنا هنا ونحن لا نعلم. حسنا سأخبرك أين تجد واحدة جديدة؟

- اسمع. أنا لا أريدها مثل وفاء، أملّ منها سريعا.

- وكيف تريدها إذن؟

- أريدها فتاة رشيقة، وخفيفة الظلّ. وفي شكلها مثل بنات المدارس

الخاصّة المدلّلات. على وجه التدقيق مثل الشقراء التي تكون صحبة عماد.

- أنظر... عندك الطالبات المقيمات بالأحياء الجامعية والداخليات، ستجدهن بأكدال وشارع مدينة العرفان. وعندك الباحثات عن المتعة من بنات الأحياء الشعبية والوافدات من سلا وتمارة، ستجدهن في وسط المدينة، وعندك بنات الطريق المحترفات من النوع الرفيع، هؤلاء هن اللائي يتربّصن بالرجال، يصطدن أصحاب المال والسيارات الفاخرة... الخليجيّين على وجه الخصوص. ستجدهنّ بأماكن معيّنة بأكدال. وهناك، وهناك...

- لا، لا. أنا لا أريد بنات طريق وما شابه. أنا أريد فتيات يافعات، من النوع الذي يريد عيش حياته في تحرّر وجنون.

- ستجد كلّ الأصناف. خذ سيارتك وقت المساء، ومدّ عينيك عبر الأرصفة. ستجد الطرائد تعلن عن نفسها على قارعات الطرقات والمقاهي المختلطة.

لم أكن لأطيق الانتظار طويلا. تخلّصت من وفاء عند أوّل لقاء. لم تبد استياء كما توقّعت.

- إلى اللقاء. رقمي هو عندك، إن تحسّنت ظروفك في القريب لا تتردّد في الاتصال. قالت ذلك بثقة وهي تقفل مبتعدة.

في نفس ذلك المساء شرعت في البحث عن طريدة جديدة. كان تواجدي بالسيارة خلال المطاردات يمنحني ثقة إضافية. بعض الفتيات كنّ يطلبنني أن أترجّل إن أردت الحديث. لكنّي لم أفعل، لأنّي أردت الحفاظ على الإحساس المفعم بالثقة ذاك. كثيرات تجاهلن دعوات الصعود إلى السيارة، في حين أن البعض ممّن دعوت كن يبتسمن في دلال ويواصلن المسير. اكتفيت بتلك المحاولات، واعتبرتها محاولات على سبيل الاستئناس.

في طريق العودة ظهرت لي فتاة يافعة تسير بمفردها بأحد الشوارع الفرعية بوسط المدينة، حيث المكان قليل الرواج وخافت الإضاءة. خفّضت من السرعة وملت بالسيارة جهة الرصيف. ابتسمت مطلّا من النافذة عند وصولي إليها. كنت أتصرّف بانتشاء وبثقة:

- إلى أين تمضي العصفورة الوديعة وحدها؟

حين لفّت بوجهها صوبي تستطلع وجهي، ابتسمت قائلة:

- هل توصلني إذن إلى حيث أنا ذاهبة؟

- بكلّ تأكيد. تفضّلي بالصعود!

دون تردّد فتحتْ الباب إلى جانبي وصعدتْ. مدّت يدها وصافحتني. كانت يدها باردة.

- إلى أين كنت ذاهبة إذن؟

- عند صديقاتي، بمقهى بشارع علال بن عبد الله.

- إذن لماذا لا تشربين شيئا معي؟

- لكن صديقاتي ينتظرنني.

- أنت دائما معهن، وهذه أوّل مرة معي أنا.

- إذا كانت دعوة. فلن أردّها في وجهك.

- طبعا هي دعوة. قلتها مؤكّدا. ما رأيك أن نشرب شيئا عندي بالبيت؟

- عندك بالبيت؟ لا، لا. هذا غير لائق.

- على العكس، نجلس نشرب شيئا، نتحدّث ونتعرّف على بعضنا بعيدا عن ضجيج المقاهي.

كانت الفتاة صغيرة، تبدو في العشرين تقريبا، جميلة وحلوة في الحديث، لكنّها كانت تتصرّف بثقة وجرأة مثيرة للعجب أيضا. وحين لم تردّ على طلبي سألتها:

– ما رأيك؟ البيت ليس بعيدا عن هنا. دقيقتان ونكون داخله.

– حسنا. قالتها وهي تنظر إلى الأمام. سأتّصل بصديقاتي لأخبرهنّ أنّي لن أجيء.

طيلة الطريق إلى الشقة، بينما أواصل معها حديث تعارف خفيف، ظلّ العجب يلتهم تفكيري. وكنت أتساءل: أهي من بنات الطريق؟ هذا ليس ظاهرا عليها. ثم هي لم تتحدّث عن مبلغ معيّن أو عن شيء متعلّق بوقت الدفع مثلا. أهي هاربة من البيت وتبحث عن مأوى؟ لكن هي كلّمت صاحباتها ولم يظهر شيء من هذا في حديثها معهنّ. ثمّ إنّها تبدو أليفة. كبنات المدارس تماما. أيعقل أنّها تفعل هذا وهي ترغب في فعله. إنّها حتما تعي لماذا آخذها إلى البيت. إلّا أن تكون بلهاء أو فاقدة للإدراك. لكنّها تتصرّف بشكل طبيعي جدّا.

– هل تدرسين؟ سألتها لأطرد الهواجس.

– نعم. بالجامعة. كليّة الحقوق. سنة ثانية.

عندما وصلنا إلى الشقّة، وجلسنا نشرب العصير الذي نحتفظ بعلب منه في الثلاجة، ونتناول بعض الشوكولا والحلوى، كانت تلك الدهشة التي صاحبتني على طول الطريق من وسط المدينة إلى هنا قد اندثرت تماما، لأنّي كنت منشغلا بالتفكير في أشياء أخرى.

بعد هذه الفتاة، التي لم تحتفظ ذاكرتي باسمها مع كثرة الأسماء التي ستفد إليها مع القادم من الأيّام، لم أعد أستغرب من تصرّفات أنثى ألتقطها على الطريق، وقد صرت، كما قال عمر، زير نساء. ولم يعد يهمّني أفريستي بنت طريق أم عابرة طريق. أمضي عبر الأرصفة والزوايا المعتمة ومقاهي الإغواء ووكر الذئاب دون الالتفات إلى الخلف، لم أعد ألهث كما الأوّل، صار عندي نفس طويل، رغم أنّي لم أعد أحتاج إليه، لأنّي صرت متخصّصا في المسافات القصيرة، حيث الانطلاق القويّ والوصول السريع.

ظللت كذلك، إلى أن نبت جبل من الماضي، كنت نسيته، في وجه طريقي. ثمّ بدأت دون تردّد رحلة صعوده، دون أن أعلم أنّي معه سأهوي سريعا نحو قرار سحيق.

وقتها، كنت قد أضفت إلى مطاردات الأرصفة، هواية التربّص في المقاهي «المعلومة». أجلس هناك أدخّن على مهل، إلى أن تتجلّى إحداهن من وسط سحابة دخانها، تلمع شفاهها بأحمر فاقع، وشعر أصفر مصبوغ بإفراط، ورموش عيون مصفّفة تسطع في جرأة وإغراء، بينما تتكلّم مفاتنها الخبيرة بالنيابة عنها عبر ملابس تزيد من وضوح الصورة، أو تُلفت انتباه حواس الرجال عبر ضحكة صارخة ضمن مجموعة من الفتيات والنساء، هن صور ضمن ألبوم على نفس النسق والمنوال.

بإيماءة رأس، أو غمزة عين، أو ابتسامة إغراء، أو تلويحة يد خفيفة... حركات قد تصدر عنّي أو عن طريدة تلعب دور القنّاص في تبادل عفويّ للأدوار، تبدأ رحلة صيد تنتهي عند وكر الذئاب.

ذات مساء لن أنساه أبدا، دخلت نادية، لعنة الماضي، مقهى بحيّ أكدال، حيث كنت جالسا أمسح أبعاد المكان بحثا عن طريدة. لم أعرفها، وهي في هذا العمر الذي جعل جسدها يمتلئ نضجا وإثارة، ووجهها المدهون ألوانا بعناية، يشعّ بياضا زيتيّا وغواية. بينما شعرها الطويل الملفوف إلى الخلف يترنّح مع إيقاع مشيتها اللاعبة بالخطوات، جعلها تبدو وهي تعبر من أمام عينيّ المتحفّزتين كفرس جامحة لم تجد المروّض المناسب لها بعد.

كانت رفقة فتاة، أصغر سنّا وأقلّ جاذبيّة. جلستا خلف ظهري عند جدار المقهى. اضطررت إلى الالتفات أكثر من مرّة لجلب انتباهها إليّ، لكنّها ظلّت متجاهلة النظر صوبي، في حين أنّ مرافقتها كانت تتابع حركتي تلك وتردّ ببسمة مطوّلة، تكشف أسنانها بيضاءَ من بين الزهريّ المدهون على شفتيها الصغيرتين. لكنّي لم أكن لأدع فرصة قنص تلك

الفرس الوحشيّة مقابل ظبية وديعة، فعندما بدا لي أن شخصا آخر دخل على الخطّ، يتربّص بها، وأنّها قد أبدت استجابة عبر نظرات مطوّلة إليه مع الدفع بخصلات شعر صفراء نزلت على جبهتها إلى الخلف، قمت من مكاني كحصان جافل، ثم توجّهت نحو طاولتهما. وقفت قبالتها باحثا للحظات عن مدخل للحديث.

- هل يمكن أن أستخدم ولّاعتك الجميلة؟

قلت دون تردّد حين لمحت على الطاولة علبة سجائر وولّاعة أنيقة. هي لم تردّ. ظلّت تحدّق إليّ بعينين متوهّجتين. بينما حافظت أنا على ابتسامتي اللبقة. بدا صمتها طويلا عليّ، أنا الواقف كمهاجم ضُبط في حالة تسلّل، لا يدري أيسدّد الكرة نحو الشباك أم يتوقّف عن اللعب؟

- عبد الإله!!!؟؟

حين بلغ صوتها مسامعي محمّلا بحروف اسمي، طارت ذاكرتي تستعيد صورتها وتضعها على وجهها الذي أخفته السنين وأدوات الزينة.

- نادية!!!

نطقت اسمها في دهشة. ثم انتظرت عاصفة منها في وجهي، أو لطمة على خدّي، أو دفعة على صدري. لكنّها الفتت بهدوء نحو جليستها وقالت لها:

- اذهبي أنت الآن! التحقي بالبنات هناك!

نهضت رفيقتها تتلوّى أمامي ثم سارت نحو ثلاث بنات يجلسن عند ركن بعيد.

- كيف حالك يا عبد الإله؟ تفضّل بالجلوس! أووه، لقد تغيّرت كثيرا. لو لم تقترب منّي إلى هذا الحدّ وكلّمتني ما عرفتك.

- أنا أيضا لو لم تنطقي اسمي ما كنت لأتعرّف عليك.

دامت جلستنا بالمقهى أكثر من ساعة، كنّا نتحدّث عن الحاضر

والماضي، عنها وعنّي، وكنت أتوقّع عند كلّ لحظة أن توبّخني أشدّ توبيخ على ما فعلت بها، لكنّها ظلّت تتصرّف وكأنّي لم أقترف في حقّها يوما ذلك الجرم الفظيع، حين فررت بعيدا، وتركتها تواجه العقوبة وحدها، وتتجرّع مرارة غدري لها. نكثت وعودي لها، وخنت مشاعرها، ولم أحاول، بل لم أفكّر حتى في محاولة إيجاد مخرج من الفضيحة، التي وضعتُها بين أمواجها العاتية.

راح قلبي يخفق بشدّة حين صعدت معي السيارة. كانت تبلغني روائح من الماضي البعيد وهي جالسة إلى جانبي تفوح منها رائحة عطر قويّة وكريمات الزينة. وشعرت بدفء غريب وأنا أتحسّس أنفاسها تحلّق قريبا من وجهي. ثمّ اختلط الوجود كلّه، بأمكنته وأزمنته عليّ، فالمرأة التي تجلس على بعد سنتمترات منّي، بكلّ هذا النضج الجسدي المثير، والنظرات المتعطّشة، والصوت الرخيم، هي نفسها تلك الفتاة التي انبعثت معها أولى نزواتي. وشعرت أنّ هذا الخليط من الرغبة الآنية المشتعلة والنزوات القديمة ومعرفتي السابقة بها عن قرب، ومعرفتي الضمنية لحبّ من طرفها كانت تكنّه لي، كلّ هذا جعلني أتمنّى لو أستطيع أخذها بين ذراعي والإطباق عليها بقوّة للحظات فقط. ثمّ قلت مع نفسي: هل من اللائق أن أصطحبها الآن إلى وكر الذئاب؟ ولم لا؟ ففي النهاية تلك مهنتها.

– لماذا لم تعد للظهور بعدها أو حتّى الاتصال؟

طرحت السؤال دون مقدّمات، بينما أنا لا أزال حائرا في أيّ اتجاه أوجّه عجلات السيارة؟ وحين علق لساني عاجزا عن الجواب، والعرق أحسّه يندي ناصيتي، ردّت هي:

– لا داعي لتجيب. لقد غفرت لك ذلك منذ زمن بعيد. أتدري لماذا؟ لأنّي عرفت أنّك لم تتركني بمحض إرادتك. لقد كنتَ مكرها. وكنت في سنّ لا يسمح لك بإيجاد حلّ لما حصل، وذاك والدي يتوعّد بشرب دمك.

ثمّ لعلّك خفت عليّ إن أنت عاودت مقابلتي أو حتّى الاتصال بي. أجل، مع الوقت أدركت أنّ اضطرارك للاختفاء كان صائبا. وانظر الآن يا عبد الإله. ها هو القدر يلاقينا مجدّدا.

صمتت فجأة عن الكلام، حين نظرت إليها وجدت عينيها مغرورقتين.

- أنا آسف حقّا يا نادية. قلتها ثمّ ناولتها منديلا من مقدّمة السيارة. أعلم أنّ الأمر كان قاسيا عليك. أنا حينها لم أدر كيف أتصرّف.

- لا! أنا لم أعد غاضبة منك. أنا أبكي على حالي. وددت لو التقينا في ظروف غير هذه.

- لا يهمّك شيء الآن. يكفي أن القدر قد لاقانا كما قلت.

كنت أتكلّم لأخفّف عنها فحسب. وأنا أدرك تماما أنّ مشاعري تجاهها في الماضي لم تكن حبّا كما أوهمتها، إنّما كانت مجرّد نزوة مراهق، تجمع بين رغبات عابرة وحبّ المغامرة وإثبات الذات والرجولة. وأنّها قد جاءت الآن في الوقت المناسب، لأعيش معها مغامرة جديدة، مستقرّة، ذات طعم ومعنى، بدل المطاردات والتربّصات التي لم ترسني على برّ أرتاح إليه.

- إلين أين أوصلك؟ سألتها بعد أن نسيتْ بكاءها وعرجتْ على حديث لطيف حول الفتاة التي كانت رفقتها.

- إلى نفس المكان الذي كنت تنوي أخذي إليه حين سألتني الولّاعة وأنت لم تتعرّف عليّ بعد. إلّا إن لم يكن لديك مكان!

كان تلك أوّل حلقة من السلسلة التي ربطت حاضري بالماضي، وجعلتني أرى المستقبل كمستقيمين متوازيين لا يتقاطعان: مستقيم حياتي الأسرية المتّزنة الهادئة، ومستقيم مغامراتي المجنونة الصاخبة.

حكاية الدكتور عمر

(5)

الدكتور عمر يحكي...

بعثت لي المندوبة باستفسار شديد اللهجة تطالبني بتبرير تصرّفي «اللامهني واللامسؤول»، حسب وصفها، الذي أقدمت على القيام به بالمستشفى الذي من المفروض أنّي توجّهت إليه في مهمّة معاينة. كنت أقرأ الرسالة جالسا بمكتبي وأنا أضحك. لم يكن يضحكني ما أقرأ. إنّما كيف سأردّ على ما أقرأ؟

ثم بدا فجأة وكأن كلّ موظّفي المندوبية قد علموا بأمر الاستفسار وبما أقدمت عليه الأمس بالمستشفى، إذ راحوا يتقاطرون عليّ وأنا لم أضع بعد ورقة الاستفسار من يدي. وكأنّهم جميعا أرادوا أن يعرفوا كما الاستفسار السبب وراء قيامي بذلك الفعل الأخرق، حسب نعت بعضهم. خلال كلّ ذلك، كنت أنا أبتسم مستندا في استرخاء إلى الخلف فوق كرسيّي الدوار، شابكا أصابع يديّ، وناظرا إلى وجوههم المستفهمة، فأزيدهم حيرة إلى حيرتهم، فلا يتوقّفون عن تبادل التفاتات مندهشة ونظرات مستغربة.

شعرت أنّي أواصل هذا الجنون الذي بدأته من لحظة أن سألت الممرض عن قاعة فحص ثانية. ويا له من جنون! لذيذ طعمه، ممتع

التّمادي فيه. جنون بمذاق الحريّة وبنَفس التمرّد. هل كنت أنتصر؟ هل كنت أكسر قيود الأوامر التي أذاقتني الويلات في عملي السابق والمهانة هنا في عملي الجديد؟ هل كان هذا انفجارا ثوريّا مسالما؟ سهلا ممتنعا؟ قصفا بالبارد كما الحرب الباردة؟؟

كان عليّ أن أردّ بشيء على تساؤلات هؤلاء، وأن أبعث بكلام منطقيّ ومهنيّ للمندوبة. كنت أخاطب نفسي بأنّ ما قمت به كان عين الصواب، وأنّي وإن عاد بي الزمن إلى تلك اللحظة لفعلت نفس الشيء ودون ذرة تردّد أيضا. فكيف سأجيب بمهنية على هذا الاستفسار؟ وكيف أقفل أفواه هؤلاء، المنفتحة في دهشة، تكرّر نفس الكلام؟ هل ستعطيني شبكة الأنترنيت مثلا نماذج لأجوبة توافق حالتي هذه؟ ماذا سأكتب في محرّك البحث؟ «الرد على استفسار لموظّف تدخّل طبيّا لإنقاذ مصاب في مستشفى لا يشتغل به لأنّه في الأصل طبيب»؟ أيعقل أن أبحث عن شيء كهذا وأجده؟ ألن يضحك محرّك البحث ملء شدقيه ويجيبني ألّا نتائج توافق ما أبحث عنه؟ أليس هذا ما يحدث حين نطرح عليه أسئلة غريبة، أو نطالبه بإيجاد معلومات لا يهتمّ لها أحد من محرّري المواقع الإلكترونية عبر العالم؟ وتساءلت أيضا: كيف يتقدّم العالم تكنلوجيّا ويتراجع في نفس الوقت إنسانيا؟ ولماذا كلّ هذه الترسانات القانونية إن لم تكن تخدم الإنسانية؟ لماذا يقولون إنّ هناك القانون وهناك روح القانون؟ ألا يجب لروحه هذه أن تخدم الإنسانية بدل تأكيد سلطة هذا القانون؟ أنترك شخصا ينزف حتّى الموت لأنّنا نعيش وفق قوانين نحن من تواطأ لسنّها منذ البداية؟ كيف أردّ على رئيستي في العمل وهي تجعل منّي عبر رسالتها التوبيخية تلك موظّفا قد خرق القوانين وتجاوز الصلاحيات؟ كيف تضع المندوبة القانون الذي تستفسرني حتما بناء على مقتضياته في مرتبة أعلى من حياة إنسان وسلامته وصحّته؟ كيف يُطلب منّي تفسير شيء أراه بديهيّا، فعلا صائبا، يوافق طبيعة العاطفة الإنسانية السامية؟

لا أدري لمَ انصرفت حينها من المكتب ومضيت أتمشّى طويلا عبر شارع الحسن الثاني. تركت ضيوف مكتبي الذين ينتظرون منّي شيئا وانطلقت بعيدا، أملأ رئتيّ بهواء بحريّ منعش، بينما بذهني يتكدّس زخم من الأسئلة التي لا أجد لها جوابا، أو بالأحرى لا أحصل لها على تفسير.

في الغد، وفور ولوجي المكتب، جاءت سكرتيرة المندوبة تقرع بكعب حذائها وجه الأرض، لتخبرني أنّ المندوبة تريد رؤيتي، والآن. قالت ذلك بلهجة ملحّة وهي تضغط على «الآن» لتبدو جليّة لي. فتحت الحاسوب وقمت بطباعة جواب الاستفسار ثم صعدت.

كان التهجم هو ما استقبلتني به ملامحها حين تجلّت لي وهي تتراجع عن شاشة الحاسوب. طلبت منّي الجلوس. ثم تناولت ورقة أمامها فوق سطح المكتب، بسطتها أمام عينيّ وهي تكشّر عن أسنانها قائلة:

- هذه شكاية توصّلت بها هذا الصباح، صاغها مدير المستشفى وطبيب المناوبة والممرضّون الذي كانوا رفقته، ضدّك. هم يقولون إنّ تصرّفك كان إهانة في حقّ شخصهم، وفي حقّ مهنهم وفي حقّ المستشفى كلّه. يتساءلون: كيف لموظّف إداري لا ينتمي للمستشفى أن يتطاول على فضاء عملهم، مكانا وأجهزة ومعدّات، دون إذن أو ترخيص مسبق، متجاوزا بذلك صلاحيّات المهمّة التي هو في صدد إنجازها؟

أتناول الورقة، ألقي نظرة خاطفة على كلماتها المطبوعة بسواد وكثافة، بينما تسألني المندوبة:

- كيف أردّ على هؤلاء الآن؟ هم يطالبونني باتخاذ الإجراءات اللازمة. وأنا، حتّى قبل أن يفعلوا، كنت أنتظر ردّك على الاستفسار لأنظر فيما يجب اتخاذه.

ناولتها ورقة الردّ بعد أن وضعتُ ورقة الشكاية على المكتب. قرأتها سريعا وهي تبتسم في عجب:

- أيعقل؟ تساءلت وهي تواصل النظر إلى الورقة، تفسّر موقفك اللامسؤول بالعفوية الإنسانية لإنقاذ شخص مصاب في حالة حرجة تعرّض للإهمال الكلّيّ؟ قالت ذلك ثم ضحكت في ازدراء مجنون، وما أسلوب الرد المتفلسف هذا؟ ثم ماذا أيضا؟ تقول إنّ كون امتهانك للطب ونجاحك في إنقاذ الشخص المصاب يشفع لك تصرّفك هذا؟ تستجمع ضحكتها، يا سيد عمر، أنت لم تعد طبيبا الآن.

وقفت قائلا:

- يا دكتورة! هؤلاء رفضوا إنقاذ حياة شخص مصاب، وتجاهلوا حتى إمداده بخدمة سيارة الإسعاف. فإن كانوا يريدون منك أن تتّخذي إجراء في حقّي، فأنا في المقابل أطالبك بفتح تحقيق حول عدم قبولهم للحالة الطارئة.

- لن تطالبني بشيء! ردّت بغضب جعلها تندفع واقفة من جلستها، ولست أنت من سيملي عليّ ما يتوجّب عليّ القيام به، لا أنت ولا أولئك.

- هل يمكنني الانصراف؟ قلتها حين شعرت أن ردّي القادم عليها قد يسقي النار بزيت.

- تفضّل. وأنت الآن دون مهام حتّى نرى إلى أين ترسو قضيّتك.

بعد يومين من جلوسي في مكتبي دون القيام بشيء، تلقّيت اتصالا هاتفيّا من أحد معارفي بالوزارة، يبلغني أنّ شكاية في حقّي توصّلت بها الوزارة، وأنّ نقابات وهيئات مهنية على الخط.

- ماذا تعني بعلى الخطّ؟ سألته.

- على الخطّ ضدّك.

- ضدّي؟ هل ضربت أو سببت أحدا؟ هل أضرمت النار مثلا في مبنى المستشفى أم أنّي هدّدت شاهرا أداة جراحة حادّة؟ كيف هذا؟

- هناك أمر آخر.

– أكثر ممّا ذكرت؟ ضحكت، أشعر وكأنّي مجرم يشكّل تهديدا فعليّا. أكمل، صارت كلّ إضافة هيّنة الآن. هل سيتمّ نفيي إلى بلد آخر أم ماذا؟

– مندوبتكم، يبدو أنّها استبقت كلّ هذه الضجة. لقد أشعرت هي الأخرى الوزارة بالحادثة.

ضحكت من جديد:

– طبعا، فكلّ تواطؤ ضدّي وارد الآن.

حكاية الأستاذ حسن الوردي وأسرته

(3)

شهريار يحكي...

كان الزلزال الذي أحدثته هناء بقلب الأستاذ حسن اليافع مدمّرا، إلى الحدّ الذي جعله يعود عطلة صيف تلك السنة إلى سلا مستسلما أمام عرض أمّه القديم الدائم، تاركا أحلام شبابه الوردية تطير في الجوّ كدخان سجائره.

رقيّة العطّار، ذات العشرين ربيعا، التي غادرت الدراسة دون أن تبلغ مرحلة الثانوي، لم يكن حسن ليفكّر في الارتباط بامرأة مثلها إطلاقا، لولا الوجع الكبير الذي كان لايزال عالقا بين أضلعه. فهي بالنسبة له فتاة عادية كمثيلاتها من الفتيات اللائي يمتلئ بهن حيّهم، وجهها شاحب، ونظرتها فارغة، وأفق خيالها هو حتما محدود، لا يتجاوز المواضيع المستهلكة التي تظلّ نساء الحيّ يثرثرن بها ليل نهار: أثمنة الخضار، باعة الأثواب، الأبناء، الجيران، خصومات الأقارب، مسلسلات مدبلجة، وبرامج التلفاز البليدة، و... و... وأمّه مهما ألحّت على مدحها وتجميلها في عينيه فهو لن يراها إلّا عبر بؤرة عدسته هو: ربّة بيت تقليدية. في النهاية، ذهب وخطبها. وقبل حلول الموسم الدراسي الموالي كانا قد تزوّجا. أُقيم العرس ببيت

العروس. عُزفت الموسيقى، وعلت الزغاريد، وجلس هو «بارزا» إلى جنبها وسط حشود من النساء والفوضى والضجيج، يسيل جسده بعرق بارد، ويسيل قلبه بأسى حارق.

تركها بمنزل والديه، وذهب هو للالتحاق بقسمه عند قمّة الجبل الموحش. بعد شهر نزل إلى البلدة بالسفح واكترى بيتا صغيرا، تطلّ نوافذه على الطريق ويطلّ عليها وجه الجبل. جهّز البيت بالصبّاغة وبعض الأثاث قبل أن يعود لاصطحابها.

بدأ الأستاذ حسن رحلة زواجه وهو في حيرة من أمره، لا يعرف ما يقدّم وما يؤخّر. وظلّ طيلة أيّام زواجه الأولى مشوّش الذهن، ومهزوز الفؤاد. وبينما كان هو على هذه الحال شاردا، قليل الكلام، نادر الابتسام، كانت رقيّة تتجاوز مرحلة انكماشها حول ذاتها، وقد لاذت عن نفور الأستاذ حسن المتواصل منها بأشغال البيت ومتطلّباته، فوجدت في ذلك فسحة غير متناهية أبقتها في حيويّة مستمرّة واستقلالية عن أوامره وطلباته. إذ كانت تفيق في الصباح الباكر، على عكس ما كانت عليه ببيت أبويها، فتفتح نوافذ البيت على الجبل، وتُفسح لأولى أشعة الشمس التسلّل إلى الغرف لتطرد النوم عن الجدران. تشغّل المذياع، وتعدّ الفطور، ثمّ توقظ الأستاذ حسن بصوت خافت ووديع، فيجد نفسه مغادرا أحلامه في استجابة لا واعية منه للصوت الأنثوي الذي يردّد اسمه هكذا. تتناول معه الإفطار في صمت بغرفة الجلوس، بينما صوت المذياع القادم من المطبخ يغازل وحده هدوء صباح البلدة بأغان صباحية بهيجة. ثمّ تتابع بنظراتها زوجها وهو يقف عن المائدة في اتجاه غرفة النوم ليحمل المحفظة ويرتدي المعطف، دون أن تلحق به كما تفعل معظم الزوجات. غير أنّها تقف هي الأخرى حين تراه عائدا من الغرفة في اتجاه الباب، وتتقدّم خلفه، لأنّها تحبّ أن تسمع منه وقبل أن يقفل الباب وراء ظهره مغادرا عبارة: «أعانك الله.»، فتبتسم في الخفاء وتردّ: «وأنت كذلك.» ثمّ تعود

إلى الغرف توظّب الأفرشة، وتكنس الأرضية. قبل أن ترجع إلى المطبخ لغسل الأواني وإعداد وجبة الغداء.

عندما يعود الأستاذ حسن وقت الغداء، أو في المساء حين تكون لديه حصّة بالعشيّة، يرقص أنفه فوق وجهه وهو يصطدم ما إن يفتح باب الدار برائحة الطعام الشهي الذي يكون قد بلغ مرحلته الأخيرة فوق النار، فيضع المحفظة بالباب، يغسل يديه، يسير للجلوس مباشرة أمام المائدة في انتظار أن تجيء رقيّة في بيجامتها الطويلة ومنديلها الأبيض المعكوس على رأسها، تحمل بين راحتيها طاجن مرق بلحم وخضار، أو طبق فاصوليا أو عدس، أو أيّ طبق بلديّ آخر تبرع هي بفطرة مذهلة في إعداده. يجلسان يأكلان في صمت جديد. هو لا يسألها عن الوقت كيف قضته في غيابه، وهي لا تعرف فيما تسأله؟ هل عن التلاميذ؟ عن الدرس؟ عن قمّة الجبل؟ عن رحلة الذهاب إلى المدرسة والرجوع منها؟ لا تعرف ماذا تسأل أو ماذا تقول؟ لكنّها ذات يوم فاجأته وهما يتناولان العشاء حين أخبرته أنّها تتمنّى زيارة المدرسة، ومشاهدته وهو يدرّس هؤلاء التلاميذ الصغار، والاستمتاع أيضا بالنظر إلى البلدة وما يحيط بها من قمّة الجبل هناك.

أعجبه طلبها، بل أدهشه أنّها قد فكّرت في القيام بذلك. فابتسم في وجهها ثمّ أجاب:

– أعتقد أنّي سأصحبك معي إلى هناك في فصل الربيع. سيكون الجوّ ألطف والمنظر من فوق أجمل.

ابتسمت هي الأخرى. بل لعلّها ضحكت. فزوجها سيحقّق لها الأشياء التي طلبتها منه.

حلّ فصل الشتاء، فزحف البرد من الوادي، ونزل من أعلى الجبل، ليحاصر جدران بيوت البلدة، ويتمدّد عبر أرصفة طرقاتها، فيحوّلها إلى ثلاّجة...

وصار الأستاذ حسن حين يعود مساء يرتعش، يفاجأ ما إن يضع قدميه داخل البيت بدفء غريب ينبعث من جدرانه وسقفه وأثاثه. وكان يتعجّب لرقيّة كيف تجعل البيت رغم الصقيع الذي يلفّ الدنيا يعجّ بهذا الدفء اللذيذ. فحتّى حين تُطفأ المواقد بالمطبخ تظلّ حرارة المكان مقاومة للبرد الذي يلسع الجدران من الخارج. ولعلّ ذلك الشتاء وما حمل في ثناياه من صقيع، هو ما جعل الأستاذ حسن يعيد التفكير في تلك المرأة التي تشاركه كلّ شيء في هذا المكان النائيّ عن الأهل والأصحاب.

في الليالي الباردة، ورقيّة تنام إلى جواره على نفس السرير، تبثّ عبر جوّ الغرفة أنفاسها الدافئة، صار الأستاذ حسن يتساءل إلى متى سيظلّ متجاهلا هذه المرأة التي تخدمه ليل نهار، في استكانة وسرور، دون أن تُسمعه كلمة تذمّر أو زفرة تأفّف. هي في نظره امرأة عادية، لكنّها هي ما يجب للزوجة أن تكون عليه. المظاهر خدّاعات. هناء، تلك التي ترتدي لباس حوريّة بحريّة، وتمشي على الأرض كأميرة أسطورية، ما كانت أبدا لتعتني به وتهتمّ لأمره كما تصنع الآن رقيّة، الفتاة البسيطة. وهي في النهاية صارت زوجة له وقد كانت بالأمس معزّزة مكرّمة في بيت والديها، اللذين استأمناه عليها، ووضعاها بين يديه، تحت تصرّفه. وهي، وافقت أن تكون زوجة له، أن تضع جسدها وروحها في خدمته. فكيف يكون جزاء الإحسان؟ أليس إحسانا مثله؟

شعر الأستاذ حسن في الشتاء الأولّ لزواجه، أنّ عقله راح ينضج مثلما لم يفعل من قبل. وكأنّ تفكيره المستمرّ في جدوى حياته هذه جعله يعيد النظر في كلّ ما أسّس له في ذهنه في مراحل سابقة. فعرف في النهاية أنّ بناء حياة الإنسان يتطلّب دعائم حقيقية، من إسمنت مسلّح وفولاذ، وليس فقاعات واهية تعصف بها أيّة حركة هواء. وحين حلّ الربيع، وأطلّت شمسه الدافئة تجلي الظلام والصقيع، والأرض قد أخرجت زينتها، وقف الأستاذ حسن عند قمّة الجبل يتأمّل السعادة تملأ وجه زوجته ويتعجّب

لبريق غير منقطع يشعّ من عينيها، وقد حقّق لها رغبتها كما وعد. دون تردّد اقترب أكثر منها، أمسك بيديها وقرّبهما من عينيه. وبينما هي تبتسم في دهشة، قال لها:

- رقيّة، لقد خفق قلبي بشدّة حين رأيت كلّ هذا الفرح يرقص على رموش عينيك.

وقبل أن تستوعب هي تماما ما قال، كان هو يقرّب يديها من شفتيه ويقبّلهما.

ربما كانت هذه بداية عشق الأستاذ حسن لرقيّة العطّار، زوجته. وربما كانت البداية قبل هذا، إبّان ليالي الشتاء الطويلة الباردة، أو حتّى قبل، من يدري؟ لكن الأستاذ حسن يعترف لصاحبه الأستاذ سعيد أنّ حبّه لرقيّة تشكّل بالتدريج، لذلك فهو لم يشعر بوجوده إلّا وهو واقف إلى جانبها عند قمّة الجبل. أجل، قمّة الجبل، في نفس المكان حيث نزف قبله أسى، وارتعشت أوصاله وحشة، بينما كان طيف هناء يطير بعيدا عن أحلامه.

حكاية سمير

(6)

شهريار يحكي...

ذات صباح، يوم سبت على وجه التحديد، دخل المصلوحي إلى صالوني كثور هائج.

تجاوزني بينما أنا منهمك أمام الباب بنشر الفوط التي كنت قد نظّفتها من قبل على المنشرة الصغيرة لتأخذ نصيبا من الحمّام الشمسي الصيفيّ المتدفّق على الأرض بالمجّان، فعل ذلك دون أن يتفوّه بكلمة.

هو عادة لا يقصد صالوني، ربما فعل ذلك مرّتين أو ثلاث. لأنّه يفضّل عمّي الطاهر، حلّاق الشيوخ، حيث يجتمعون هناك على براريد الشاي والنكات البالية والنيل من بعضهم البعض. وكما أخبرنا أشرف فهناك مجموعة من هؤلاء الشيّاب يخوضون في مواضيع بذيئة، ويسردون مغامراتهم الإيروتيكية القديمة، وينهون جلساتهم بسبّ بعضهم البعض بأقبح الألفاظ والنعوت.

كنت بالكاد قد فتحت. عادة أمضي زهاء الساعة أو أكثر في التنظيف والكنس والتوضيب وتبادل التحيات مع العابرين، والتراشق بالكلمات مع جاري الحسين البقّال ومن يقابلني من باعة في دكاكين أغراض مستعملة

وأثاث عتيق، إلى أن يظهر أوّل الزبائن. لذلك لم يكن أحد بالداخل. غير أنّ المصلوحي جلس بمقاعد الانتظار يده على ركبته، وجذعه مائل إلى الأمام كأنّه في وضع انقضاض، بينما يضرب الأرض برجله في عصبيّة واضحة. وعندما دخلت أنا خلفه ملقيا التحيّة، نظر إليّ عبر نظارتيه البنّيتين مائلا برأسه صوبي وفاركا طرف شاربه الكثّ بأصابعه. هذه الحركة زادت من درجة قلقي، واحتمال أنّ سمير قد أقدم على فعل مجنون صار شبه مؤكّد لي. فاندفع كلّ تركيزي للتفكير في الحيلة الأنسب لجعل المصلوحي يقتنع بأنّ ثمّة سوء فهم في الموضوع لا أكثر. ثمّ تراجعت فجأة عن الفكرة وقد بدت غير سديدة البتّة، وقلت لنفسي: لم لا أنكر علمي بالموضوع من أصله؟ فأنا لا أعلم ما الذي أقدم عليه سمير فعلا، فآخر عهدي به أنّه كان حائرا فيما يقدّم أو يؤخّر، ثم هو لم يعد لفتح الموضوع معنا، وانشغل فقط بالحديث عن محلّ يودّ تجهيزه رفقة عمّه. عبرت الأفكار سريعا رأسي، ربّما في نفس اللحظات، التي كان يفرك فيها المصلوحي طرف شاربه.

ثمّ وقف المصلوحي فجأة، تماما حين صرت قبالته. تراجعت أنا إلى الخلف متظاهرا بترتيب كرسيّ الحلاقة، ومحافظا على مسافة تحميني من حركة مباغتة من يده الحجرية، فلربما وصله خبر أنّ سمير ذكر ابنته هنا بصالوني، وأنّي أنا أيضا كنت مشاركا في الحديث. ومن يا ترى غيرنا نحن أفراد شلة السمر يعلم بالأمر؟ أيكون أحدنا تفوّه بذلك لشخص آخر؟ أم أنّ أحد الأوغاد أساخ السمع لأحاديثنا من وراء الباب بينما يدخّن سيجارة عند عتبة الصالون؟

- كيف حالك سي المصلوحي؟ قلتها حين شعرت بقلبي يزيد خفقانه وبحرارة جسدي ترتفع.

- بخير. ردّ بصوت مبحوح وهو يتقدّم للجلوس فوق الكرسيّ.

وضع نظّارته جانبا، ثمّ نظر إليّ في المرآة قائلا:

- قصّ خفيف للرأس، وحلاقة للذقن.

انشرحت خدودي عن بسمة عريضة وقد تنفّست الصعداء أخيرا.

- اليوم سيزورنا ضيوف لأوّل مرّة، لذلك أريدك أن تكون حريصا ودقيقا في عملك.

- طبعا، طبعا، أنت بين أيد أمينة.

وأنا أعقد خيطي المئزر حول رقبته قلت:

- ضيوف من العائلة؟ أم أصدقاء قدامى؟ لم أدر كيف تجرّأت على طرح سؤال قد يعتبره رجل كالمصلوحي تطاولا على خصوصيّاته، رغم أنّي متعوّد على الأمر مع زبائني. ربما تفوّهت بذلك فقط لإظهار نوع من اللباقة والاهتمام من جانبي، ما دام هو الذي أشار إلى موضوع الضيوف هذا.

تابع حركتي على المرآة بينما أمدّ يدي لإخراج المقص والمشط من رفّ الدولاب، ثم قال:

- لا هذا ولا ذاك. إنّما هم ضيوف بطابع رسميّ، سيجيئون لطلب يد ابنتي.

تجمّدت في مكاني، واقفا خلف ظهره، ومرشّة الماء بيدي.

- ابنتك؟ سألته وقد حلّ بدل وجهه في المرآة وجه سمير.

***

بعد انصراف المصلوحي، نزل عليّ وأنا في الصالون غمّ ثقيل، رافقني طوال النهار. وعند حلول المساء، تحوّل الغمّ الثقيل إلى توتّر عنيف، حين صرت أفكرّ في أنّ سمير قد يحلّ في أيّ لحظة، لا سيما أنّها ليلة سبت، فهي ليلة السمر التي يفوّتها عضو من الشلّة. ووددت بشدّة، لو يظهر أحدهم قبله، حتى أستشيره في مسألة إخباره، وكيفيّة قيامي بذلك. فأنا حتما لن أستطيع كتمان الأمر عليه مهما كانت المبرّرات، لأنّها ستعتبر

خيانة له من جانبي. ثمّ إن لم أفعل أنا فهو ببساطة سيعلم بذلك عبر أخبار الحيّ التي تَرِد صالوني على مدار الساعة. وكما قال المصلوحي فهذه الزيارة الأولى للخاطبين، فمن يضمن أن الأمور ستؤول على أحسن ما يرام بين الطرفين، لا سيما أنّ المصلوحي صعب المراس وعنيد الطبع؟ رغم أنّ احتمال عدم التراضي هذا بين العائلتين ضعيف، إلّا أنّي سأبقيه قائما، خصوصا أمام سمير. أووه يا للمسكين! لكم سيكون وقع هذا الخبر ثقيلا على قلبه الولهان!

مع حوالي الساعة التاسعة والنصف، وهو وقت بداية السمر حيث يبدأ رواج الزبائن بالتراجع، وبينما أنا أتوقّع ظهور أحدهم، خطا عادل داخلا عبر باب الصالون، استبشرت خيرا لوهلة، ثمّ اتضح لي فجأة أنّ رفقته سمير يدخل خلفه مباشرة. جلسا على كرسيّ النتظار الفارغ، بينما أنا أوشك على إنهاء حلاقة رأس زبون.

رمقت سمير عبر المرآة بنظرة متفحّصة، بدا مبسوط الملامح، باسم العينين. وهذا ما يعني على الأقلّ أنّه ليس على علم بشأن خطبة محبوبته الليلة. والتي لعلّها تحدث الآن، أو لعلّها قد تمّت بالفعل. وفكّرت أنّنا نحن أيضا نتحمّل بعض المسؤولية في الدفع بمزيد من الحيرة إلى سمير، بدل تسديده لقطع الشكّ باليقين من أجل مفاتحة الفتاة أو جعل أبيه يكلّم أباها في الموضوع مثلا. ورحت أتصوّر، وأنا أرى ضحكته تسطع على المرآة لشيء همس به له عادل، ردّة فعله حين يعلم بالأمر. والأكثر من هذا هو أنّ حيويته هذه الأيام وعزيمته الكبيرة في تجهيز محلّ زوجة عمّه إنّما ليظهر في صورة الرجل المستعدّ لخوض غمار الزواج أمام أهل فتاته حين يتقدّم لطلب يدها.

انتهيت من رأس الزبون، دفع لي ثمّ انصرف. عندها وقف عادل يفرك يديه معلنا:

- أنا سأعدّ الشاي.

قالها ثمّ توجه نحو الدولاب في عمق الصالون ليخرج الموقد والأواني وعلبتي الشاي والسكر. تظاهرت أنا بكنس الأرضيّة، متحاشيا النظر إلى وجه سمير، لكنّه باغتني بأصعب سؤال قد أتوقّعه منه:

- هل من جديد عندك يا نبيل؟

توقّفت عن الكنس ناظرا إليه لبرهة، ثمّ قلت:

- سأذهب لأحضر بعض البسكويت لنا.

- انتظر، قالها واقفا. أكمل أنت عملك. أنا سأفعل.

خرج سمير عبر الباب، رميت المكنسة أرضا ثم اقتربت من عادل الذي كان يملأ الغلّاي من صنبور الماء:

- هل تعلم أمرا؟

- ماذا؟

- خطبة بنت المصلوحي تتمّ الآن؟

- من؟

- ركّز معي يا صاحبي! بنت المصلوحي، الفتاة التي يعشقها سمير.

- ماذا؟ ممّن؟ ومن أخبرك؟

- لا أعلم ممّن ولا يهم الآن. لقد جاء أبوها هذا الصباح حلق عندي وأخبرني.

- هل أخبرت سمير؟

- وهل بدا لك أنّه يعلم شيئا؟

- لا.

- إذن هل نخبره الآن أم ماذا؟

- نخبره!

- إذن فأخبره أنت!

- أوه، أوه، لست أنا حتما من سيخبره.

- ومن إذن؟

- حمزة يفعل. إنّه على الأقلّ ليس مباشرا. سيعرف كيف يخبره...

عاد سمير سريعا مقاطعا حديثنا:

- أنا أحضرت البسكويت من آخر الشارع وأنت لم تضع بعد حتى الماء ليغلي؟

- قلت نتمهّل قليلا حتّى يظهر الآخرون. ردّ عادل. لم لا تتصلّ بهما يا نبيل تستعجلهما المجيء، لنحتسي الشاي مع البسكويت جميعا؟

سحبت الهاتف من جيب السروال واتصلت بحمزة. حين قال: «ألو»، رميت خطوتين نحو الباب متظاهرا بعادة الكلام عبر الهاتف مع المشي. وحين صرت على الرصيف بعيدا عن باب الصالون أخبرته الحكاية.

- لا يا أخي لن أفعل. عادل يريد أن يبعد عنه المسؤولية فحسب ويلحقها بي.

بعد تملّص حمزة أيضا، اتصلت بأشرف. أخبرته ألّا أحد امتلك الجرأة لإخبار سمير بما يجري.

- اسمع يا صديقي، أنا في طريقي إليكم. سنجلس ونخبره معا. أنا سأبدأ وأنت ستكمل. الليلة يجب أن يعرف الحقيقة. ونحن من سيخبره، بدل أن يسمعها من مصدر آخر. بهذه الطريقة ونحن مجتمعون سنعرف كيف نهوّن عليه الأمر.

عندما جاء أشرف وبعده حمزة، أغلقت باب الصالون الحديدي حتّى لا يقصدني زبون جديد. جلسنا نحتسي الشاي والحلوى. حاولنا الحديث بشكل عادي كما العادة حتّى لا نثير شكوك سمير منذ البداية. والكرة كانت بملعب أشرف، وهو الذي عليه أن يحدّد عند أيّ وقت يفجّر القنبلة في وجه سمير.

شعرت أنّ الوقت يمضي سريعا بينما أشرف يواصل الحكي مع حمزة ويضحك. حرّكت رأسي أنبّهه. تجاهلني وواصل الحديث. راح سمير أيضا يشاركهما الحوار ويضحك. شعرت بالضغط يتزحلق على عنقي ثم كتفيّ. نهضت عن الكرسي وتراجعت نحو عادل الذي كان واقفا يستند إلى منضدة الحلاقة. من هناك حركت رأسي مجدّدا أستحثّ أشرف على الدخول في الموضوع. أشرف حرّك رأسه أنّه سيفعل. عندها تكلّم سمير:

– ماذا هناك؟ لماذا تتحدّثان بالإشارة؟

– دعك من ذلك. أجاب أشرف وهو يشعل سيجارة جديدة. وقل لي ماذا صنعت مع فتاتك؟

– من؟ بنت المصلوحي؟ ألحق بها أحيانا حتّى باب الجامعة، أتبادل معها النظرات ثمّ أعود أدراجي. أرسلت لها طلب إضافة منذ أسبوع على فايسبوك لكنّها لم تقبل إضافتي لحدّ الآن.

– إذن أنت لم تحقّق شيئا يذكر لحدّ الآن.

– لم أمتلك ما يكفي من الجرأة لأكلّمها. ثمّ كما تعرفون، أنا منشغل بتجهيز المحلّ. الأمران معا يشعرانني الحماسة والتوّتر في الوقت نفسه.

– حسنا. أريدك يا سمير أن تجيبني بصراحة.

– نعم، تفضّل. سأجيب بصراحة. قالها سمير ضاحكا مستغربا من طلب أشرف، بينما نحن الباقون نتابع في صمت وانتباه عال هذا التمهيد من أشرف.

– لنفترض أنّ هذه الفتاة، بنت المصلوحي، رفضتك. ليس على فايسبوك. بل أنت كلّمتها في الموضوع أو كلّمت أباها. المهم هي رفضتك رفضا قاطعا. فهمت ما أقصد؟ رفضا قاطعا. قل لنا بصدق ما سيكون ردّ فعلك؟

حرّك أشرف يديه في انفعال يتماشى وحجم السؤال الذي طرح. لكن

سمير لم يردّ. ظلّ صامتا يجوب بعينيه مساحة الباب الحديدي الموصد أمامه. ثم نظر صوبنا. كنّا جميعا صامتين واجمين.

- ماذا هناك؟ سأل سمير وكأنه يوجّه السؤال إلينا جميعا. هل قالت شيئا عنّي؟ هل أخبرت أحدهم أن يخبركم أن أدعها وشأنها؟ من؟ أنت يا نبيل؟ هل جاء أحد من عائلتها واشتكى لك منّي؟

- مهلك يا صديقي. قالها أشرف. لماذا أنت متوتّر هكذا؟

- متوتّر لأنّك تسألني أسئلة غريبة، بنبرة غير عادية. حسنا تريد أن تعرف ردّة فعلي إن رفضتني رفضا نهائيا كما تقول؟ إن ذهبت فتاة تجيء أخرى.

ضحك أشرف، فضحكنا جميعا باستثناء سمير.

- يا لك من وغد! تكلّم حمزة أخيرا. أنت تراوغنا يا صاح. أتقول ذلك على فتاة تحبّها.

- وإن يكن؟ ردّ سمير بنبرة هادئة. ثم أكمل مبتسما: أأموت كمدا إن رفضتني؟

- لقد تأخرّت يا سمير. قال أشرف واقفا بينما أنا أغمزه أن يتريّث.

- في ماذا؟

- في القيام بشيء ذي معنى.

- لم أفهم قصدك.

- لقد تقدّم أحد لخطبتها؟

- ماذا؟ متى؟ كيف عرفت؟

عند «كيف عرفت؟» كان صوت سمير قد غاص في جبّ عميق.

- اسأل نبيل، هو يخبرك.

حكاية أشرف

(2)

أشرف يحكي...

كنت على بعد شهر تقريبا عن موعد خروجي في التدريب الميداني، الذي يستمرّ إجباريا مدّة شهرين. بعده مباشرة تكون العودة للمعهد من أجل مناقشة التقرير المتعلّق به، ثم اجتياز الامتحانات النهائية. حينها يكون طلّاب السنة الأولى قد انصرفوا إلى بيوتهم. لذلك فقد تنبّهت أنّي لن أعود للقاء مع مريم، في الفترة القادمة ولا بعدها، إن أردنا الاستمرار في فعل ذلك هنا بالمعهد، على حسب رغبتها، لا خارجه كما اقترحت عليها أنا.

والفترة القادمة تبدو قاتمة. وكأنّ غسقا شتويا بدأ يزحف صوبي وأنا بعد لم أضع الزيت في القنديل. وردود مريم أضحت غامضة، تبعث إلى قلبي وحشة باردة. كان الوقت ربيعا دافئا، ومع ذلك ظلّ جسدي يرتعش كلّما ابتعدت مريم عنّي خطوات، بعد أن تكون قد تركت في أذنيّ إبرا جليديّة توخز مشاعري وتجمّد الدم الفائر في عروقي.

وحين انتبهت إلى أنّ مشيتها لم تعد تسير بنفس إيقاع مشيتي في الممرّ الذي تعوّدنا المشي فيه معا كتلة واحدة، خلصت إلى أنّ صدعا قد طرأ

وهو في صدد إبعادها عنّي. وكأنّ إلحاحي في طلب خروجها معي قد صار يجعل تواجدي قريبا منها ثقيلا عليها. وكأنّي تلخّصت في النهاية أمامها على هيئة ذلك الطلب الذي ظلت هي مصمّمة على رفضه بشدّة.

لكنّي، أنا المتفائل المصرّ طبعا، قلت مع نفسي أنّ المسألة تحتاج ربما بعض الوقت إلى أن تلين هي إلى الموافقة عليه. أو ربما هي تحاول إخفاء رغبتها الضمنية في فعل ذلك عن طريق رفضها المتواصل هذا. كلّ شيء بدا واردا في مرحلة الترقب هذه. غير أنّ الذي حدث، وهو الشيء الذي لم أكن أتوقّعه منها، هو أنّها أرسلت لي، قبل يومين من انصرافي إلى التدريب، رسالة مفصّلة على الهاتف، تخبرني من خلالها أنّي أسأت فهم طبيعة علاقتنا، «نحن يا أشرف زميلان في نفس المعهد، والصداقة التي بادلتك إياها، أنت أخطأت في تقديرها بإصرارك على تحويلها إلى تواعد وأشياء أنا لا أتقبّل حتى سماعها...».

كانت، تلك الرسالة، شيئا مريعا، كقنابل ديناميت متّصلة، انفجرت بأساسات العلاقة الحالمة البريئة التي كنت أنا بصدد تشييد صرحها.

اتصلت بها حينها، لكنّها لم تجب. بعثت لها الكثير من الرسائل النصية فلم تردّ ولو على واحدة منها. لم أنم تلك الليلة. لم أقم بشيء. حتى العشاء لم أمدّ يدي إلى صحنه. انتظرت حلول الصباح. ذهبت إلى المعهد. انتظرت حلول الاستراحة، لكنّها لم تظهر في الساحة. توجّهت إلى قاعتها فلم تكن موجودة.

جرّبت أن أتّصل بها، لكنّ هاتفها ظلّ اليوم كلّه خارج التغطية، ترقّبت ظهورها في الغد، لكنّها غابت أيضا. سألت صديقتها نوال المقرّبة أكثر منها، فقالت إنّها مريضة. قلت مع نفسي: «أتمرض الآن؟». كان يقين بنفسي يؤكّد لي أنّها ليست مريضة، بل ثمّة خطبا ما يدفعها لإنهاء الأمر برمّته معي.

باشرت التدريب في إحدى مديريات وزارة التجهيز، كان المطلوب

منّي في البداية التعرف على طبيعة المهام التي يقوم بها القسم الذي تمّ إلحاقي به. كان أوّل تدريب لي، وكان أوّل لقاء لي مع عالم الشغل والوظيف. وجدتني قد انشغلت سريعا بفهم آليات العمل هناك، وحرصت على تنفيذ ما يُطلب منّي وما أُوجّه للقيام به بعناية وتدقيق. نسيت أنّي طالب متدرّب، وأنّي لن أمضي في هذا المكان أكثر من شهرين، خالجني شعور وكأنّه قد تمّ توظيفي هنا بشكل رسميّ. أعترف، لقد انبهرت بأجواء العمل، واحتككت بسلاسة مع العاملين هناك، والذين بعد الأسبوعين الأولين صاروا يستعينون بمهارتي في استخدام الحاسوب كي أساعدهم في توضيب النصوص وإنجاز الجداول الحسابية، بل أحيانا يتسابقون من أجل الظفر بخدماتي تلك. فأضحى لحضوري هناك معنى، وللنداء باسمي مغزى.

– أشرف، يا أشرف!

كانت النساء، الموظّفات، هن الأحرص على القيام بذلك، المناداة باسمي، والتحايل عليّ بالابتسامات والكلام المعسول من أجل الظفر بمساعدتي لهن، أو بالأحرى القيام بأعمالهن بدلا منهن في كثير من المرات. لكنّي كنت سعيدا بما أقوم به. مرتاحا لتواجدي هناك. حتّى وإن قال لي أحدهم إنهم كانوا يستغلّونك لا غير، فلا ضير. فهذه تجربة لي في الحياة المهنية، أكتسب بعض المهارات، وأتعرّف على أجواء الوظيفة وطبيعة الموظّفين. لكن بعيدا عن الصورة الظاهرة، فأنا كنت منغمسا هذا الانغماس الشديد في جوّ التدريب لأتوقّف أيضا عن التفكير في مريم. لقد عجزت عن استيعاب ما فعلت. وتعبت من الاتصال بهاتفها كلّ ساعة لأكتشف مع كلّ محاولة أنّه لا يزال خارج التغطية. «هل لا زالت مريضة؟ أيعقل هذا؟» كنت أتساءل. «أم أنّها غيّرت رقمها؟ لماذا ليس لديّ رقم نوال؟ لماذا لم آخذه منها تلك المرة؟ فلربما كان بمقدوري الآن الاتصال بنوال وسؤالها إن كانت مريم قد عادت للمعهد؟» تنتابني حصرة على عدم

قيامي بذلك، «لكن، ما الفائدة من الاتصال بنوال إن كانت مريم أصلا هي من لا تريد مقابلتي ولا حتّى الرد على اتصالاتي ورسائلي؟». «هل لازال هنالك أمل؟ ألازال هناك أمر عليّ القيام به؟ محاولة أخرى تظهر لها مدى تعلّقي بها؟ أتراها تنتظر منّي ذلك الصكّ الأخير حتى تستجيب لطلبي؟». ثم قرّرت أخيرا أن أذهب إلى المعهد وأقتحم عليها حصون فرارها هذا.

في هذا الوقت كان حلم الصحافة يحلّق في سماء بعيدة. كانت هذه مرحلة اكتشفت فيها شساعة العالم. العشق بأوجاعه ومسرّاته، وأجواء العمل بجدّيتها وغرائبيتها وتفاهتها أيضا، والأحلام... كيف أنّها تتلوّن وتلمع وتخفت، كيف أنّها تتوسّع بين السماء والأفق وتتقلّص على الأرض ثم تنكمش. كلّ هذه الأشياء أجدها تؤثّث العالم الذي كنت مقبلا عليه في تلك الفترة. كنت أظنّني وقتها في أوج الشباب، لكنّي اكتشفت فيما بعد، بعد زمن طويل، أنّي كنت حينها في أوج الطفولة. الدخول في العشرينيات. يا لها من قنطرة فاصلة، تعبر بك من الطفولة والمراهقة إلى النضج والشباب الحقيقي. إنّها مرحلة الأخطاء والهفوات، مرحلة الجنون والتمرّد والانسياب، مرحلة التعلّم واكتشاف الحياة، ووضع الأساسات الأولى للفكر والتوجّهات. أعتقد أنّها المرحلة الأخطر في تكوين الإنسان.

بعد انقضاء الشهر الأولّ من التدريب، أخبرت رئيس المصلحة ذات يوم، أنّي سأتأخّر في الحضور بالغد. صباحا، دون تردّد أو مزيد تفكير توجّهت إلى المعهد. وقفت أمام السور الخارجي، والذي ينقسم إلى نصف سفليّ إسمنتي، ونصف علويّ من شبّاك أعمدة حديدية بيضاء، أنظر عبرها إلى فضاء الساحة الزليجيّة الفارغة التي تتوسّط بنايات الأقسام، والتي تمتدّ لتتّصل بالساحة الثانية حيث الحديقة والمقصف والملعب الرياضي، أنتظر فقط أن يرنّ جرس استراحة الساعة العاشرة حتّى أجد ذريعة للدخول. كان قلبي يقصف أضلعي، والعرق يسيل تحت

قميصي القطنيّ الأنيق ذي اللون الأزرق السماوي طويل الكمّين، والذي اقتنيته خصّيصا لفترة التدريب. بينما عيناي تجولان في فضاء الساحة طولا وعرضا، وأذناي تترقّبان تلك الرنّة الطويلة الموجعة التي يحدثها ضغط حاقد من أحد موظّفي إدارة المعهد على زرّ الجرس الكهربائي. جئت واثقا، رغم أنّي لم أكن متيقّنا أنّها ستكون حاضرة الآن في الفصل، هذا إن لم يكن طرأ تغيير في استعمال الزمن الذي لا زلت أحفظه كما أحفظ رقم هاتفها ورقم هاتفي.

فجأة، رنّ الجرس كسكّين ملتهب يشقّ مفترق أضلعي، فانتفض قلبي يسمعني ركزه المتسارع ينبّهني أنّ وقت المواجهة قد حان.

أخبرت الحارس - حتّى يفتح لي الباب ويسمح لي بالدخول - أنّي جئت من أجل مقابلة أحد أساتذتي فيما يتعلّق بالتدريب. مررت مهرولا عبر مبنى الإدارة ثم الساحة الزليجية متجاوزا مباني الأقسام. وفي زاوية قريبا من أحد الأدراج المؤدية للطابق العلويّ، وقفت أترصّد مرور الطلبة عند خروجهم للاستراحة. ولم ألبث أكثر من دقيقة حتّى راحوا يعبرون من أمامي مثنى، جماعات صغيرة، وفرادى. بينما أنا أرجو الله أن تكون حاضرة ولا يفوت عينيّ التقاطها عندما تمرّ.

كانت أوّل من دخل على المسح الذي تجريه عيناي صديقتها نوال، كانت تسير رفقة فتاة أخرى. وفي اللحظة التي همّ فيها ذهني لتركيب سؤال: «هذه صديقتها نوال التي لا تفارقها، فأين هي إذن؟» اصطاد بصري وجهها من بين وجوه كثيرة متقاربة خلف نوال مباشرة. رجف قلبي وتجمّد الدم من جذعي حتى أصابع قدميّ. كانت هي تمضي مبتعدة وسط حشد زميلاتها وأنا بعد لا أدري كيف أتقدّم صوبها؟ شعرت في تلك اللحظة وكأنّي سأكلمها لأوّل مرة. كأنّي لم أعرفها من قبل، ولم يسبق لي أن مشيت رفقتها مرات ومرات في هذه الساحة وعبر تلك الممرات التي تخترق الحديقة وتلك التي تؤطّر مساحة الملعب. كان قميصي الأنيق قد

تبلّل عرقا، وشفتاي قد تيبّستا. وحين أخفاها الدرج المنتصب أمامي عن ناظريّ، شعرت بفراغ من حولي. وكأنّ ما جئت من أجله يسير ليضيع منّي. سرت خلفهن بحذر محافظا على مسافة معقولة، لكيلا تلمحني إحداهن، فجميعهن يعرفنني. كنّ يسرن عبر الممرّ المفضي إلى المقصف. ففكّرت إن هي دخلت لتناول شيء هناك رفقتهن سأجد حرجا في التكلم إليها، ولذلك ستكون فرصتي الوحيدة هي فور خروجها منه. لكنّ الذي حدث هو أنّها لم تواصل مسيرها في الممرّ المتّجه إلى المقصف، بل انفصلت عن مجموعة البنات وتوجّهت صوب أحد الكراسي الإسمنتية المتناثرة على الجانب الأيسر للممرّ. هناك كان يجلس طالب بالبذلة البيضاء. حين رآها تقترب قام من مكانه واقفا. مدّت هي يدها وصافحته. ابتسما لبعضيهما ثم جلسا على الكرسي معا. كنت أنا لا أزال أمشي عبر الممرّ. لم أكن لأستدير راجعا أو حتّى لأتوقّف. بما يشبه الغريزة، اعتبرت فعل ذلك استسلاما. وأدركت أنّ كبريائي هو ما كان يدفعني للتقدم. أن أُقتل على أرض المعركة أهون من الموت بعيدا عنها.

عندما توازيت مع الكرسيّ نظرت إليها. هل بدوت حزينا؟ غاضبا؟ متأسّفا؟ أم نظرت بلا اكتراث مصطنع؟ هي أيضا نظرت، تلك النظرة التي لا يصلك منها أيّ معنى. ثم أشاحت بوجهها صوب الفتى الذي كان يتحدّث وضحكت. شعرت بسهم نار يُدقّ بقلبي، وبأنفاسي تتزاحم فتخنق صدري. دخلت المقصف في فرار إجباري من مقتلي. طلبت مشروبا باردا لأروي ظمئي. كانت زميلاتها هناك. رأينني. تهامسن ثم تجاوبن بضحكات سامّة حارقة. شعرت وكأنّ كلّ من بالمقصف ينظر إليّ، وأنّ كل همسهم يدور حولي، وضحكاتهم تشمت بي. حتى النسوة اللائي يخدمن هناك، رأيت نظراتهن الذابلة أسفا عليّ. دفعت لهن وانطلقت جافلا عبر الممرّ الآخر المحاذي للملعب، دون رفع رأسي عن الأرض والنظر صوب الكرسي الذي يحاذي الممرّ المفضي إلى المقصف.

حكاية عبد الإله المنصوري ونادية

(6)

عبد الإله يحكي...

لم أكن ثملا تماما. لكنّ عقلي كان في خفّة ما يجعله يحلّق عاليا. كانت هي إلى جواري، منتشية أيضا. وكنّا نضحك. ننفجر ضاحكين في جنون وبلا حدود، ما تكاد تبلغ ضحكة نهايتها حتّى تندفع أخرى من أعماق صدورنا. نضحك بأقلّ سبب، أو بلا سبب. أحيانا تميل هي عليّ بكتفها ورأسها وهي تحاول ردع ضحكاتها، فتجعلني أدخل أنا أيضا في هيستيريا، فأميل برأسي على الكرسي أو أنحني به حتى تكاد جبهتي تلمس المقود.

كان الوقت متأخّرا، وكنّا عائدين إلى الشقة، وكر الذئاب، بعد أن تناولنا العشاء بمطعم على البحر يتيح لك أيضا طلب خدمة النبيذ على المائدة، لقضاء ما تبقّى من تلك الليلة معا هناك، مادام الغد سبتا، يوم عطلة، وما دمت قد أخبرت زوجتي أنّي سأخرج في مهمة عمل، لن أرجع منها حتّى الغد مساء. لذلك أعلنت لنادية أنّ هذه الليلة هي رسميّا ملك خالص لنا.

كثيرة هي الطرق التي تؤدّي إلى روما، أقصد إلى الشقة، لكنّي آثرت سلك الطريق الساحلية، حيث اقتحمت علينا الكتل الهوائية المحمّلة برذاذ

المحيط وروائح أعماقه الجوّ الثمل الساخن الذي يرافقنا في السيارة، ممّا جعلني أشعر وأنا أقود بسرعة أنّي أحلّق فوق البحر.

هذه الطريق أنا أعرفها جيّدا، أحفظ انعراجاتها ومطبّاتها وحفرها. حتّى حين أكون شاربا أعبرها برشاقة السنونو. لكن في تلك الليلة، وضحكات نادية تنفجر في رأسي المحلّق بين السماء والمحيط، بينما نشوات متعدّدة تتقاذفني: نشوة الخمر برأسي، ونشوة أنفاس البحر على وجهي، ونشوة تشعلها الأنثى الجامحة الجالسة قربي بصدري، كنت أحسّ بأنّ المقود هو الذي يقودني وليس العكس. شعرت به سلسا بين يديّ، وكأنّه يعرف الطريق دون حاجة إلى توجيهاتي. وكنت أنظر إلى الطريق تُسحب سريعا تحت السيارة كخيط صوف تجرّه آلة نسيج، في حين كانت أضواء الأعمدة والبنايات على الرصيف من جهتي تندمج لتصير حبلا ضوئيا موحّدا. تصلني كلمات نادية متقطّعة بضحكات فأضحك وأقول شيئا فتتشارك معا في ضحك هيستيري متواصل. فجأة، انحرفت بي السيارة وقفزت فوق الرصيف الأيمن جهة البحر، ظلت تسير لزمن محسوس منحني فرصة خفض السرعة ومحاولة إرجاعها إلى الطريق، لكن قبل أن أفلح تماما في إنجاز ذلك كانت العربة المنفلتة تصطدم بعمود إنارة حديديّ. تمّ الاصطدام من جهة الباب الأمامي الأيمن، ثم دارت السيّارة إلى الاتجاه المعاكس قبل أن أضغط أنا على الفرامل بشكل نهائيّ.

صرخت نادية عاليا. بل بدأت في الصراخ حين أدركت أنّنا نسير فوق الرصيف. ثم صمتت وقت الاصطدام، قبل أن تعود لشقّ السكون الطارئ حين توقّفت السيارة أخيرا عن الحركة. رفعت رأسي عن المقود وسألتها هل هي بخير؟ ردّت بعد أن هدأ روعها:

- قدماي، قدماي لا أستطيع تحريكهما.

- هل أتصّل بالإسعاف؟ سألتها وأنا أرجع رأسي إلى الخلف في استسلام تامّ.

لم يبلغني ردّها. كنت قد دخلت في دوّامة جلعت كلّ ما حولي يبتعد نحو عمق سحيق. أطلّ أحدهم من النافذة جواري بعد وقت لم أدر أكان طويلا أم قصيرا. قال شيئا. وقلت أنا أيضا شيئا. ثم شعرت بالباب يُفتح، وبأيد تمتدّ وتسحبني خارجا. أتذكّر أنّي ابتسمت حين رأيت تلك الوجوه تطلّ من فوق، ثمّ استسلمت للنوم ربما وأنا أوضع إلى جوار نادية داخل سيارة الإسعاف. أفقت لأجدني ممدّا على سرير في المستشفى. كان طبيب أو ممرّض يمسح يدي بسائل بارد. ابتسمت في وجهه وعدت للنوم من جديد.

حكاية الدكتور عمر

(6)

شهريار يحكي...

بعد غياب طويل، جاءني الدكتور عمر، ذات صباح يوم سبت، بشعر رأس طويل أشعث، ولحية كثيفة. سألته أين طول الغياب هذا؟ فأخبرني أنّه في مشكل عويص متعلّق بالعمل، وأنّه يوشَك أن يُتّخذ في حقّه قرار إداري قد يدمّر حياته المهنية. وقال لي إنّه لولا إلحاح زوجته عليه لتعديل هيأته، لما رأيت وجهه هذا الصباح. ثمّ حكى لي بينما أجزّ غابتيّ رأسه ووجهه، عن الحادثة الغريبة بأحد المستشفيات، والتي كان هو بطلها، قبل أن يصير مجرما في عين القانون، يطالب الجميع برأسه.

- ...لجأت إلى هيئة الأطباء، فقالوا إنّي لم أعد طبيبا. كلّمت إحدى النقابات التي ليست ضمن من تدخّل عبر الخطّ ضدّي، فوعدوني أنّهم سيخرجونني منها كالشعرة من العجين. لكن بعد أسابيع وحين اتصلت بصديقي في الوزارة أسأله عن الجديد، فاجأني بأنّ النقابة المعنية لم تجر أيّ اتصال ولم تتدخّل بأيّ شكل من الأشكال.

بعد مرور أسبوع تقريبا، جاءني أشرف في وقت متأخّر، يحمل صحيفة

ألقاها على الطاولة أمامي، بينما أنا أنظّف الأدوات عقب انصراف آخر الزبائن. أشار إليها قائلا:

– هذه نسخة الغد. لقد كتبت مقالا عن واقعة الدكتور عمر. الخبر الساخن أمامك الآن.

– ماذا؟ قلتها وأنا أتناول الجريدة مقلّبا الصفحات. وهذه صور له. واحدة ببذلة الطبيب، وأخرى تبدو جديدة له. من أين حصلت عليها؟

– بعد أن حكى لك ثمّ أنت حكيت لي، بحثت عنه وأجريت معه مقابلة صحفية.

– وكيف عثرت عليه؟

– تلك أسرار المهنة يا حبيبي.

– ولم تخبرني حتّى.

– أنا لم أكن واثقا من شيء. لا ممّا سأخرج به من المقابلة، ولا من رأي رئيس التحرير في مسألة النشر. ولولا أنّي أقنعته أنّ هذه الحادثة ستتحوّل إلى قضيّة رأي عامّ، وأنّنا نحظى بشرف السبق في كشف ملابساتها لما وافق رغم كلّ المجهود الذي قمت به.

كان أشرف كعادته على حقّ. إذ بعد نشر مقالته حول حادثة الدكتور عمر، سارعت مختلف الصحف، الورقية والإلكترونية، إلى الحديث عن قضيّته، والأهمّ أنّ روّاد مواقع التواصل الاجتماعي تداولوا حكايته. فقد جاءني حمزة يضع شاشة هاتفه الذكيّ أمام وجهي يقول لي:

– أليس هذا الدكتور عمر؟ أنظر ماذا يقول الناس عنه في التعليقات، إنّهم يصفونه بالبطل.

وسمير أيضا بينما هو يقلّب ذات مرّة في الفايسبوك قفز من مكانه قائلا:

– هذا فيديو للدكتور عمر. إنّه يتحدّث عن قضيّته.

كلّ الذين يعرفون الدكتور عمر، من زبائن وروّاد صاروا يحكون عنه.

بل إنّ البعض منهم صار متربّصا في صالوني ينتظر مجيأه لأخذ صورة معه. أمّا أشرف مفجّر القنبلة، والذي علمت من بعد أنّه هو من كان وراء نشر الفيديوهات أيضا، فقد كانت أسهمه الصحفية في ارتفاع، وما غيابه هذه الأيام عن الظهور بالصالون إلّا إشارة أنّه يحضّر لقنبلة جديدة.

حكاية الأستاذ عبد الرحمن فالح

(1)

الأستاذ عبد الرحمن يحكي...

هل أعتزل السياسة بعد هذا العمر؟ أأطوي صفحات نضالاتي ثمّ أقفل عليها بين دفتيّ دفتر مذكّرات؟ أأقف هنا بعد أن ظننتني قد أوشكت على الوصول ثمّ أرفع راية الانتكاس وأغادر الطريق؟ الانتخابات على الأبواب، وأنا اليوم دون انتماء.

منذ ريعان الشباب آمنت بتلك الأفكار. بحّ صوتي لإسماعها في التظاهرات والوقفات وباحة الجامعة وفي المقاهي والحفلات. حدّثت تلاميذي في الفصل عنها، قلت لهم: هذه أمور متعلّقة بالحياة. أن تبنوا مستقبلكم منذ الآن، بالدراسة والعلم والتشبث بالمبادئ والقيم الفاضلة أيضا.

قال لي مدير الثانوية حين بلغه خبر خروجي عن مقرّرات الدرس من مجموعة أولياء أمور يعيشون الجهل ويريدون ضمان استمراريته في دماء أبنائهم: «يا أستاذ، لا نريد مشاكل هنا! المنطقة يغلب عليها الطابع البدوي، وهؤلاء يرون أيّ خروج عن الموضوع تضليلا لأبنائهم...».

رغم ادّعائي سرعة البديهة والذكاء، إلّا أنّي لم أفهم جيّدا كلّ ما أراد

السيد المدير قوله. لكن، وبعد تحوّلي نحو نشر مقالات على الجرائد، خصوصا التابعة للحزب، وقد فطن هو إلى أنّ صوتي مسموع داخل الحزب، تراجع عن اندفاعه وأخبر هؤلاء المشتكين أن يدعوني وشأني، وقال لهم: «إنّه رجل ذو نفوذ!». عبارة كانت كافية لتجعلهم يدبرون وأرجلهم ترتعش من الخوف.

لم أكن سعيدا بذلك. فأنا لا أحبّ أن نردع الناس ونرهّبهم. وددت حينها لو استطعت أن أجلس مع هؤلاء البدويّين وأفسّر لهم، أنير عقولهم وطريقهم. هم حتما لديهم عقول، لكنّهم يحتاجون فقط لربطها بأسلاك من نور حتّى تشتعل بها مصابيح المعرفة التي يفتقدون. وأمنيتي هذه، لم تكن لتتحقّق في ذلك الوقت. لكنّ ذلك سيحصل فيما بعد. على وجه التحديد في فترة ترشّحي في انتخابات المجالس الجماعية.

الأبناء، تلاميذي، الذين آمنوا بخطاباتي ووثقوا بمصداقيتي، هم من كان لهم الفضل في تشييد جسور اللقاء بيني وبين آبائهم وعائلاتهم وجيرانهم. لم يعد أحد يراني وقتها كرجل نفوذ كما أشاع مديري، بل هم نعتوني بالأستاذ، ورأوا فيّ كما أبلغهم أبناؤهم الرجل المثقف المدافع عن حقوقهم، والآمل في حياة كريمة لهم. دعوني لمشاركتهم موائدهم وأفراحهم، وتبعوني في الأسواق حتى أشاركهم تجمّعاتهم. ومع الاحتكاك بهم اكتشفت الطيبين منهم والآخرين الذي عمدوا على تضليلهم عندما وقفوا وقفتهم الشنيعة تلك ضدّي، وعرفت كيف أدمج نفسي معهم، أنصت لشكواهم وأسمع لنكاتهم، ثم أقطع على نفسي الوعود التي ينتظرون.

دخلت المعركة باسم الحزب، الحزب القويّ، وباسمي «الأستاذ» الذي صار على لسان الصغير والكبير، المرأة والرجل، في الدائرة التي ترشّحت فيها. وفزت... فوزا كاسحا.

ثم دخلت معركة أخرى، وهي رئاسة المجلس البلديّ. وهنا أين تجلّى

«نفوذي» الحقيقيّ كما وصفه مديري بالثانوية. فمسؤولو بعض الأحزاب بالعاصمة الذين يعرفون اسمي عبر الجرائد وبعض المنشورات الفكريّة والندوات والنضالات استجابوا لنداءات الحزب فراسلوا مرشّحيهم الفائزين هنا بالبلدية من أجل منح أصواتهم لي في تحالف تشكيل المجلس.

كنت أدرك أنّ منصب الرئيس هنا بالبلدية يمنحني فرصة من ذهب لأثبت لنفسي كما أعلّم تلاميذي، أنّ الأفكار التي أؤمن بها والقناعات التي لا أتنازل عنها، ليست مجرّد كلمات تتربّع على واجهات الصحف، وخطبا تُنفخ في أبواق المهرجانات الحزبية، ومفاهيما ألقّنها لهم بالفصل، إنّما هي أمور متعلّقة بالحياة، تخدم صالح الإنسان وتعمل على حفظ كرامته بين ربوع هذا الوطن أو أيّ وطن شبيه كان. وهكذا بدأت العمل على إنزالها على أرض الواقع، وحملت الأمر على كاهلي طوال السنوات التي قضيتها في المنصب. وكنت أرى خلال ذلك الوقت كيف أنّ أمور البلدة صارت تتحسّن، وكيف أضحت بالتدريج، تلتحف زيّها الجديد الأنيق، بينما راح أبناؤها وزوّارها أيضا يثنون على مجلسها الجديد ويمدحون.

لكن حربا كانت تستعر في الخفاء، راحت تطفو على السطح الهادئ، فتثير عاصفة دفعت بالأمواج المتلاطمة صوبنا. لقد ظهر القراصنة من خلف الضباب الكثيف. كانوا هناك يراقبون متربّصين. وحين عبرت سفينتنا قريبا منهم أمطروها برماحهم وقصفوها بمدافعهم. وخيّرونا بين أمرين إمّا الرجوع من حيث أتينا والمكوث هناك حتّى انتهاء الولاية الجماعية، وإمّا إغراق سفينتنا في هذا المكان البارد العميق.

هؤلاء أصحاب نفوذ فعليّ هنا بالمنطقة. مصالحهم فوق كلّ اعتبار، حتّى وإن كان في مقابل تدمير البلدة ومحو اسمها من الوجود. وأعتقد أنّ السبب الحقيقيّ والمباشر وراء ذلك، هو أنّ بعض مخطّطات المجلس

التي راحت تخرج للحياة اصطدمت بمشاريع لهؤلاء أُسّست على مبدأ احتكار عقول الناس ولجم حقّهم في الاختيار. فمثلا، حين رخّصنا لمستثمر جديد إنشاء مخزن ضخم لتسويق بذور زراعية ذات جودة عالية كان ذلك ضربة قويّة لمخازنهم التي تفرض على المزارعين هنا وبالضواحي سلعتهم عادية الجودة، بينما يبيعون بالمقابل البذور الجيّدة لمعارفهم ويبذرونها أيضا بأراضيهم الخاصّة.

كذلك حين عمدنا على مراقبة المساحات المخصّصة للتجار بالسوق الأسبوعي للبلدة، موقفين بذلك فوضى استعمار أماكن شاسعة بقلب السوق ذي الرواج الأكبر والدفع بتجّار آخرين للتراجع للخلف في مساحات ضيّقة، كنّا كمن أعلن حربا ضارية في وجه كبار التجار المحتكرين للسوق مكانا وعرضا، والذين ينضوون في صفّ هؤلاء النافذين أيضا.

والكثير الكثير من الصدامات التي واجهها مجلسنا البلدي في سعيه لإنزال إصلاح شامل على شؤون البلدة وساكنيها، فاندفع هؤلاء في البدء للدخول في مفاوضات معنا وعملوا على التقرّب منّي وباقي أعضاء المجلس وفق شكل مفضوح. فقد راحت تصلنا دعوات حضور عرس بنت أخ هذا، أو عقيقة ابن ذاك، أو ببساطة حضور مأدبة عشاء بمزرعة الحاجّ فلان... وقد كان بعضنا فعلا يستجيب للدعوات حتّى نحافظ على علاقات طيّبة مع جميع طبقات البلدة الاجتماعية، مع الحرص على تقليص الظهور بتلك المناسبات درء للشبهات. ثمّ إنّي أكّدت على باقي أعضاء المجلس وموظّفي البلديّة أنّ أيّ تلاعب بالقرارات أو قبول للعمولات أو الرشاوي أو عرض تنازلات... هي أمور لن أسمح بها أبدا، بل سأكون مستعدّا لعرض المقدمين عليها على القضاء، وأنّي أنا أيضا غير مستثنى عن هذه القاعدة.

بعدها، وحين لم يجدوا للحيلة معنا سبيلا، ولم يثمر تودّدهم نتيجة

مرجوّة، دقّوا دون تنبيه مسبق طبول الحرب ضدّنا، فانقلبوا من مدافعين إلى وضعيّة الهجوم. لقد أذاعوا الشائعات بين الناس، عن كوننا لصوصا مرتشين نخدم مصالح أشخاص أجانب عن البلدة والمنطقة، وأنّنا نسعى إلى احتكار خدمات البلدية وتدمير نسقها الذي تعيش وفقه منذ تاريخها القديم. دسّوا ذلك في عقول الناس عن طريق خدمهم وعمّالهم والمتملقّين لهم، الكثر طبعا. ثم راحت شكاوى ضدنا ترسل إلى العمالة والولاية وحتّى الوزارة. بل إنّ مسؤولي الحزب استدعوني لمعرفة ما يدور في بلديّتي بعد أن نُشر تقرير في جريدة تضمّن جملة من الأكاذيب وتزييف للحقائق.

وعندما تمّ رشق زجاج نافذة سيارتي بحجارة، عرفت أنّ حنق هؤلاء عليّ قد بلغ حدود الجنون والتهوّر. قدّمت شكاية إلى السلطات الأمنيّة، وسُجّلت ضد مجهول. قال المسؤول في الدرك إنّهم سيباشرون التحرّيات على وجه السرعة. لكنّي فوجئت صباح بعد الغد وأنا ألقي النظرة الأولى على السيارة أنّ عجلاتها الأربع فارغة من الهواء، بينما تمّ نقش خطوط متوازية بمسمار أو ما شابه على جنبيها. سألت حارس السيارات الليلي فقال إن حراسته تنتهي مع الساعة السابعة صباحا، وإنّه قبل ذلك الوقت كانت كلّ العربات في منطقته كما تركها أصحابها. نفس الجواب صرّح به في مخفر الدرك.

في نفس ذلك المساء تلقّيت مكالمة من أحدهم قال إنّه فاعل خير، وسألني إن كنت قد استوعبت الرسائل، ثم ختم كلامه أنّ الرسالة القادمة، ستكون هي رؤية النار تلتهم سيارتي.

سارعت إلى مخفر الدرك لتقديم شكاية جديدة، فقال لي الملازم إنّ الأحرى بي فكّ مشاكلي مع هؤلاء. سألته في تحايل:

– من تقصد بهؤلاء؟

فأجاب بعد أن رمقني بنظرة حذرة:

– هؤلاء الذي يبدو أنّك قد دخلت معهم في مشاكل. ثمّ همس في أذني: أنت حتما تعرفهم، لأنّ كلّ من في البلدة يعرفهم.

– أنتم أيضا تعرفونهم إذن. وواجبكم ملاحقتهم لينالوا جزاءهم.

– نحن يا سيّدي نودّ ذلك فعلا، لكنّنا لا نريد الدخول معهم كما فعلت أنت في مشاكل.

غادرت مخفر الدرك حانقا. فكّرت أن أطرح الموضوع بشكل رسميّ على أحد مسؤولي الأمن الكبار في البلدة: وكيل الملك، الباشا، رئيس الدائرة... وأعتقد أنّي قد فكّرت ذلك الصباح بصوت مسموع، إذ اتّصل بي وكيل الملك بعد الزوال، ودعاني إلى زيارته. طبعا لم أتردّد، فقد وجدتها فرصة سانحة.

استقبلني وكيل الملك بحفاوة في مكتبه الفخم بمبنى المحكمة الابتدائية، وبعد مقدّمة ثَنائية منه على ما حقّقته للبلدة منذ تسلّمي رئاسة مجلسها، وقبل أن أفتح أنا باب الحديث في الموضوع ثمّ أخبره بما أجابني الذركيون حول شكاياتي، كان هو من فاجأني بمبادرته إلى ذلك، ثمّ وكأنّه يكشف لي عن الحلّ الوحيد المتاح:

– أنا يا سيّد عبد الرحمن سأضمن لك الحماية التامّة إلى انتهاء ما فضُل من فترة ولاية مجلسك، وأعدك أن لن يعود هؤلاء إلى استفزازك أو إزعاج راحتك. لكن بعدها إن أنت عدت في ولاية ثانية، فستكون مضطرّا إلى تغيير أسلوبك معهم، لأنّي عندها، لن أستطيع ضمان المزيد من الحماية لك والدعم.

حكاية سمير

(7)

سمير يحكي...

كنت أمضي متحمّسا في الحياة. أعمل بكلّ جهد ونشاط على إتمام تجهيزات المشروع بمحلّ زوجة عمّي بحيّ الفردوس في أقرب وقت ممكن، وقصّة حبّ كنت أعيشها تجعلني أرى القادم من أيّامي مرسوما بألوان طيف زاهية. لكن... كان ذلك صادما لي، مثبّطا لكلّ عزيمة بصدري. الفتاة، ابنة المصلوحي، ذات العينين الشمسيتين، التي غيّرت بنظراتها المشرقة نظرتي للحياة، وحمّستني في النهاية لبناء مستقبل جديد لي بعيدا عن ورشة المعلّم إبراهيم الوجدي الغارقة في الضيق والعتمة، حيث الجشع الرأسمالي لا يهتمّ بعواطف الناس أو بمشاعر شابّ يعرف العشق الحقيقي لأوّل مرة في حياته، منى، بنت المصلوحي، تزوّجت وتركتني أبلع خيبتي مع ريق مرّ ثقيل.

شلّة السمر قالوا لي:

– إنّما هي مجرّد خطبة، ما زالت أمامك فرصة لفعل شيء. الفتاة إن كانت تريدك فهي سترفض هذا الزواج، ستعمل على إفشاله. وأنت في المقابل، عليك فعل شيء.

كنت أنظر إلى الأرض كلّما راحوا يخوضون في هذا الموضوع، لأنّي كنت مدركا أنّ ما يقولونه هو مجرّد هباء وحيلة منهم، مكشوفة لي، لجعلي أتناول حقيقة ما أنا فيه على جرعات متفرّقة، فأجدني في النهاية وقد تقبّلته متحاشيا وقع الصدمة دفعة واحدة على قلبي. ولم أكن أريد أن أسمع منهم توجيهات جديدة، لذلك كنت أبدي رغبة في الانصراف كلّما شرع أحدهم في اقتراح شيء، فكان يتراجع عن فعل ذلك في الحال.

أجّلت فتح المحلّ إلى أجل غير محدّد. استاء عمّي من ذلك، لكنّي تجاوزته حين قلت له إنّنا نحتاج إلى مزيد من الوقت، لأنّ الزبائن قد ينزلون علينا مثل النحل حين يعلمون بأمر فتحنا لمحلّ جديد للنجارة، فكثيرون من زبائن المعلّم الوجدي كان يعجبهم عملي ويطمئنون إلى التعامل معي، ونحن بعد لا نعرف رأسنا من قدمينا.

لم تعد لديّ أيّ رغبة في العمل. وحمدت الله أنّي تخلّصت من ارتباطي بالعمل مع الوجدي قبل تلقّي ضربة مُنى. فما إن فتح عمّي أمام طموحي مصراعيّ باب حانوت زوجته حتّى ركضت صوب الوجدي لأقدّم استقالتي. تاهت نظرته في وجهي، وكأنّه لم يستوعب قرار فكّ ارتباطي به.

– هل بدّلتني بمعلّم جديد؟ سألني وقد جفّ ماء وجهه.

– أجل.

– ولماذا فعلت ذلك يا بنيّ؟ هل صدر منّي لا سمح الله شيء لم يرق لك؟

– أنت لمّحت في أكثر من مرّة إلى كونك لم تعد راغبا فيّ معك.

– أنا فعلت؟ متى؟ لقد أسأت فهمي يا بنيّ. أنا فقط كنت أودّ استنهاض همّتك، وهو لمصلحتك.

– مهما يكن. فأنا الآن قد اخترت مصيري الجديد.

- كما تشاء يا بنيّ. لكن من هو هذا المعلّم الذي ستعمل معه؟

- إنّه أنا. أنا سأصير معلّما على نفسي. ثمّ أخبرته أنّي سأفتح ورشة نجارة خاصّة بي.

فتح فاه في عجب، ثم عاد ليسألني:

- كيف؟

لكنّي ابتسمت تاركا الحيرة تلتهم وجهه. ثم ذكّرته أنّه لم يدفع لي شيئا منذ شهر. تغيّرت نظرته المندهشة إلى نظرة حانقة:

- ولماذا أدفع لك؟ عن عملك الرديء، الذي كنت تكلّفني مشقّة ووقت إصلاحه بعدك؟ أم عن استهتارك بتوقيت العمل؟ أنسيت أم أذكّرك؟

- تلك كانت مجرّد أخطاء بسيطة سببها أنّي كنت أمرّ بفترة عصيبة، وهي لم تكن تكلّفك غير مرور خفيف. وأنا كنت أجيبك أنّي سأصلحها، لكنّك كنت تصرّ على فعل ذلك بنفسك. ثم أنا أطالبك بأجري على ما عملت خلال الشهر المنصرم، أم أنّك نسيت كم طلبيّة أنجزت؟

- أنت الآن تتخلّى عنّي. فبأيّ حقّ أدفع لك؟

- بحقّ ما عملت. وإن ساءك إصلاح أخطائي تلك فاحسمها ببساطة من أجري.

باستخفاف ضحك، قبل أن يردّ:

- أنت تخرّف. كلامك لا يتقبّله عقل.

قالها ودار والجا داره، ثمّ صاعدا الدرج. ظللت أنا في مكاني جامدا، قبل أن يطلّ عليّ من نافذة الدرج بعد أن تجاوز الطابق الأوّل:

- امكث هناك لبضع ساعات، سأجلب لك المال من البيت.

- أنت وغد، وستبقى وغدا طول حياتك. سأجعل كلّ زبائنك يهجرونك.

- العب غيرها يا صغيري.

- بل هي ما سألعب. وسترى.

توقّفت الحياة عندي. وتوقّف الزمن بي ليلة خطبة منى. فقط، ظلّت ذاكرتي تعيد نسج تفاصيل لحظات تلاقي نظراتنا، وتبادل الرسائل المشفّرة عبرها. هي الآن حتما تعرفني. وتدرك أنّي كنت أطاردها بغرض الوصول إلى مبتغى. وهي لابدّ أنّها تساءلت حول ما أريده منها. وما يريده الرجل من امرأة ينظر إليها بعشق وإعجاب غير أن تصير معه. أن تكون له ويكون لها. أليس هذا هو الحبّ الذي يتكلّم عنه أوغاد شلّة الصالون. وتتحدّث عنه الأفلام والمسلسلات والقصص الغرامية والشعراء؟ أجزم أنّها تدرك الأمر وتعيه جيّدا. هل كانت تبادلني نفس الشعور ولم أكن أعلم؟ هل كانت تنتظر كلمة منّي أو إيماءة وأنا لم أفعل؟ فلماذا إذن لم تقبلني على فايسبوك؟ أم أنّها أرادتني أن أتقدّم رسميا لطلب يدها من أهلها؟ أتكون هي راغبة في الزواج وهي بعد تدرس؟ لكن... لكنّها ستتزوّج الآن؟ هل كان عليها أن ترفض الخطبة وتنتظر خطوتي؟ هذا إن افترضنا أنّها كذلك تريدني مثلما أريدها أنا. وماذا إن خذلتها ثم انصرفت عنها دون أن أتقدّم نحوها؟ وهل يا ترى لا زالت الفتيات يعشقن بمجرّد نظرات متبادلة؟ رفاقي ضمن شلّة السمر يقولون إنّ ذلك من الماضي. الفتيات اليوم لم يعدن عاطفيات ولا رومنسيات، إنّهن اليوم لا يقعن في الحب إلّا بعد علاقة، وعلاقة طويلة أيضا، فأنت تجد إحداهن اليوم تواعد أكثر من واحد في نفس الوقت، وتجد لديها مئات الأصحاب في فايسبوك لا يكفّون عن إبداء إعجابهم بصورها ومنشوراتها... فكيف ستقع إحداهن في حبّك بمجرّد نظرات ساذجة متبادلة وسط حافلة حيث روائح العرق والأجساد المتعفّنة؟

هههه، هؤلاء أوغاد فعلا. لكنّ كلامهم هذا جعلني أضع احتمال أنّ منى كانت على علاقة بخطيبها قبل أن يتقدّم لطلب يدها من أهلها، وأنّ

خطوة منّي نحوها ما كانت لتغيّر من واقع الحال شيئا. وتفكيري في صحّة هذا الاحتمال يريح ضميري ويخفّف كثيرا من حدّة لومي لذاتي.

ذات مساء تمشّيت على طول شارع ابن زيدون أقابل السماء تتلوّن بألوان الغروب الزاهية. سحابات بيضاء متفرّقة، ولقالق رائحة، تتقاطع مع ما فضُل من أشعة شمس محلّقة بالوجود. كانت خطواتي ثقيلة بإيقاع رتيب، ويداي تنزلقان داخل جيبي سروالي الواسعين في خمول. كان ذلك اليوم يصادف مرور شهر كامل على خطبة مُنى، التي تأكّد حدوث القبول فيها بين العائلتين، عن طريق المصلوحي بنفسه عبر نشره للخبر في ابتهاج وافتخار، بين ساكنة الحيّ. فالخاطب أستاذ ثانوي وعائلته ميسورة الحال، ولديه شقّة وسيارة، على حسب ما روّج له المصلوحي.

قبل الوصول بمشيتي إلى مفترق الطرق عند سوق الجملة القديم، انحرفت نحو مقهى «أنطانيا»، طالبا قهوة بلبن بالقشدة المخفوقة. جلست بسقيفة المقهى أرشف قهوتي الساخنة وأنا أتابع العربات السريعة تعبر الطريق ذات مسلكي الذهاب والإيّاب المنفصلين، متجاهلا الإنصات لأحاديث دائرة في الجوار بين روّاد المقهى، ومبقيا سمعي في تركيز يجاري أصوات محرّكات العربات وأصوات احتكاك عجلاتها مع الإسفلت الخشن.

وبينما الشمس تسحب معها آخر أشعّة هذا اليوم، مفسحة المجال للعتمة لتزحف عبر الرصيف والطريق وواجهات البيوت عند الطرف المقابل من الشارع، رنّ هاتفي. كان ذلك أشرف يدعوني للجلوس بمقهى إلى أن يقترب موعد سمرنا بالصالون. أخبرته أنّي جالس أصلا بأنطانيا. لم تمض خمس دقائق حتّى كان يوقف سيّارته في الرصيف الشاسع أمام المقهى. هو طلب قهوة سوداء (نورمال)، وأشعل سيجارة. ثمّ أخبرني أنّه في صدد الإعداد لمقال سياسي...

– هل تقرأ مقالاتي؟ سألني محرّكا السكر داخل القهوة.

– طبعا. وهل أقرأ غيرها؟ أجبت بحزم بينما ضحك هو.

– وكيف تجدها؟ ما رأيك فيها؟

– وهل رأيي مهمّ؟ فأنا لست قارئا جيّدا. وأنت تعلم أنّي بالكاد أفهم بعض ما أقرأ في مقالاتك المعقّدة.

– يا صديقي، آراء جميع القرّاء مهمّة، وعلى تنوّعها تكون الفائدة. ورأيك أنت بالذات يهمّني. أتدري لماذا؟ لأنّك إنسان بسيط وطيّب. وأنا كثيرا ما أحبّ أن أستمّد بعض أفكار كتاباتي من أمثالك.

أصدرت ضحكة خافتة قبل أن أردّ:

– ها أنا لم أفهم ما تقصد. ولا أريد أن أسألك كيف تستمدّ أفكارك من أمثالي لأنّي أعرف أنّ جوابك سيكون أصعب على الفهم ممّا قلت في الأول. أرأيت؟

ابتسم أشرف وهو يجترّ الدخان من سيجارته:

– حسنا، أنت ربحت. دعنا من هذا. ضاربا يده على ركبتي سائلا: كيف تسير بك الأمور مع ما صار من أمر خطبة محبوبتك؟

– أنت تعلم أنّي لم أعد أريد الحديث في هذا الموضوع. ثمّ هي ليست محبوبتي، ولم تكن.

– حسنا.

بدا أنّ أشرف قد احترم رغبتي في عدم الحديث عن الأمر، فقد صمت طويلا، ثم تناول الكأس راشفا من قهوته.

– ما أخبار ورشتك الجديدة؟ سألني.

– والله يا صديقي أشرف ليس لي مزاج هذه الأيّام لفعل شيء. لقد أوقفت تجهيز الحانوت عند المرحلة الأخيرة. وعمّي دون شغل ولا مشغلة، كلّ ساعة ينطّ على رأسي يستعجلني البدء في العمل. وأنا في الوقت الراهن لا أريد غير الاختلاء بنفسي والإنصات لها، بعيدا عن صداع الناس.

- أتعلم أنّي لهذا أردت مقابلتك، والحديث معك، وعلى انفراد؟ أنت تذكر حتما تلك القصص الغرامية الكثيرة التي حكيناها لبعضنا في الصالون؟ وتذكر طبعا تلك الليلة السامرة التي حكى لنا خلالها نبيل عن قصّة الأستاذ حسن ومحبوبته هناء؟ وأنت حتما تعرف تفاصيل قصّتي مع مريم؟

- أجل، أذكر.

- إذن فانظر من حولك! الأستاذ حسن تزوّج وأسّس بيتا، وابنه مراد صار رجلا يكسب المال بمجهوده الشخصيّ. وانظر إليّ أنا! أعمل مسيّرا في شركة، وتلك السيارة أمامك مسجّلة باسمي، وقد حقّقت حلمي بأن صرت أنشر كتاباتي عبر الجرائد والناس تقرأ لي...

- وما دخل هذا بي؟ سألته مقاطعا.

- نحن جميعا عشنا قصص حبّ فاشلة. إنّها أمور واردة. كأن تضع طبخة على النار ثم تغفل عنها لتجدها قد احترقت. اسمع يا سمير! أنت كأخ أصغر لي، أنا أعرف أنك مستاء لزواج، أو خطبة بنت المصلوحي، وهذا يؤثّر طبعا على إقدامك على الحياة. لكن يا صديقي عليك أن تبقى واقعيّا...

أشحت بوجهي بعيدا. كان أشرف قد لمس بكلامه هذا الوتر الحسّاس الذي يكبّل انعتاقي ورجوعي إلى الحياة.

- انظر حولك يا صديقي! واصل أشرف حديثه، الحياة تستمرّ، والكوكب يدور، والنادل هنا يخدم الناس والناس يتبادلون أطراف الحديث ويضحكون كما يحدث دائما بالمقاهي، مسابقات كرة القدم في أوروبا التي كنت تتابعها بحرص ومواظبة لم تتوقّف، والأهمّ أنّ الوقت لم يتوقّف، لقد مضى شهر على خطبة بنت المصلوحي، وخلال هذه المدّة أنت توقّفت. لقد كنت تمضي بطموح كبير لفتح ورشة النجارة، لكن ما إن اكتشفت أنّ الفتاة التي تحبّ ليست من نصيبك حتّى انهرت، فانهار من حولك كلّ شيء...

كان أشرف يواصل حديثه بشكل مسترسل، وأنا أنظر بعيدا إلى الطريق شاحب الإضاءة، وأنصت بتركيز عال لما يقول.

- أعلم أنّ كلامي قاس عليك، لكنّي اضطررت أن أكون صريحا معك. لقد تابعتك خلال هذه المدة، ورأيت كيف أنّك تغرق يوما بعد يوم في بحر انكسارك وأنهار أحزانك، تتحاشى كلامنا، وترفض نصائحنا. ومن سبق أن اكتوى بنفس النار مثلك يعذرك تماما، لأنه يعلم أنّه ردّ فعل طبيعي وعاديّ جدا. لكن الرسالة التي وددت أن أوصلها لك هي ألّا تجعل إخفاقك هذا ينال منك ويثبّط عزيمتك. ثمّ أنت لم تتلقّ صدمة بحجم ما تلقيّتُ أنا. مريم، تلك الفتاة التي حكيت لكم عنها، عشقتها أنا عن قرب، أقابلها كلّ يوم يصادف أن تكون لدينا فيه معا دراسة، نتنزّه جنبا إلى جنب، ونجلس معا نتجاذب أطراف حديث عذب، نتبادل الرسائل القصيرة كلّ ليلة، ونتشاطر الرؤى والأفكار... أعترف أنّها لم تكن قصّة حبّ مكتملة الشروط، لذلك عزمت على تشييد ما تبقّى من ركائز بناء، لكن في النهاية انهار كلّ شيء. وأنا، امتصصت الصدمة ولم أنهر. بل العكس اتخذتها محفّزا للانطلاق إلى الأمام...

عندما بدأ أشرف كلامه هذا شعرت بأنفاسي تنقبض، وبحرارة جسدي ترتفع، لكن عندما واصل باسترسال حتّى بلغ هذه الفقرة الأخيرة المتعلّقة بقصّته مع تلك الفتاة، ثمّ توقّف عن الحديث ناظرا حيث كنت أنا كذلك أنظر محرّرا زفرة طويلة، شعرت بكلّ الأثقال تنزاح بعيدا عن كاهلي، ساحبة معها كلّ الأسى العالق بصدري.

حكاية عبد الإله المنصوري ونادية

(7)

نادية تحكي...

حين وقف عبد الإله أمام طاولتي بأحد مقاهي العمل، عرفت أنّه هو منذ الوهلة الأولى. بقيت محدّقة في عينيه وأذناي تلتقطان صوته يسألني الولّاعة بأسلوب محترفي صيد البنات. كانت إلى جانبي سميرة، صديقتي وزميلتي الجديدة في الحرفة. تلك الفتاة دائما ما اعترفت لها أنّها فال خير عليّ. لأنّها في كلّ مرة تكون معي إلّا وأحصل على زبون جيّد. وحتّى أبقيها برفقتي في جلّ خرجات عملي، كنت أطمّعها بأن أدفع عليها ثمن المقاهي والسجائر والتنقّل أيضا، لكن بشرط أن يتأكّد لي الفأل الحسن بحصولي على زبون سخيّ ومحترم. أمّا هي، رغم كونها أصغر سنّا منّي وأخفّ ظلّا، إلّا أنّي كنت ألفت إليّ انتباه الرجال، وأصرفه عنها. وهذا كان يغضبها. بل في مرّات كثيرة تحاشت الخروج معي حتّى تحافظ على فرص اصطيادها لزبون جيّد. وحتّى لا أفقد ميزة تواجدها معي صرت أقترح عليها الخروج معي إلى نفس المكان لكن أن تجلس كلّ واحدة منّا إلى طاولة منفصلة.

لكن في ذلك المساء ونحن ندخل المقهى، رأت هي مجموعة

من زميلاتنا مجتمعات عند إحدى الزوايا، ولاحظت أنّ المقهى يعجّ بالرجّال ذوي العيون العطشانة، لذلك آثرت الجلوس رفقتي حتّى نكون معا قادرتين على جلب اهتمام أكبر أمام المجموعة الأخرى التي كانت تفرقع الضحكات. وما كدنا نعتدل في جلستنا حتّى راح أحدهم يراودني بنظرات مطوّلة، يطرق بابي. وكنت أنا فعلا قد بدأت الاستجابة الاعتيادية في انتظار حركة جديدة منه. عندها كانت هامة عجيبة تتقدّم نحوي. أجل، بدت عجيبة لأنّها اخترقت نظرتي إلى الرجل الآخر، وشوّشت على تركيزي في العمل، لقد اقتحمت تلك الهامة لحظتي تلك. وحين نظرت إليها، كان وجهه يسطع أمامي كشمس ظهيرة ربيعية دافئة.

– هل يمكن أن أستخدم ولّاعتك الجميلة؟

صدر صوته من الماضي، فرحلت عن الزمان والمكان، ضعت في عينيه، كانتا حائرتين، وكانت ابتسامة محيّاه واثقة. نطقت اسمه، ليس لكي أتأكّد أنّه هو، بل تعبيرا عفويّا منّي على كون الواقف أمامي هو نفسه عبد الإله ذاك الذي عرفت وأحببت. عندها فقط عرفني هو.

طلبت من سميرة الذهاب صوب البنات، لأنّ بقاءها إلى جواري دون معنى لي وبلا فائدة لها. وهي طبعا لم تكن لتفهم ما يقع أمامها، بل حتّى لتهتمّ. ثم جلسنا، أنا وهو، لوقت طويل، جلسة كانت أولى خطواتنا نحو إكمال قصّة الماضي البعيد.

مرّة أخرى، ها أنا أرجع إلى عبد الإله، بل الأصحّ، هو من عاد أخيرا إلى حضني بعد غيابه الطويل. أطلعني على تفاصيل حياته. زواجه وأبناءه وعمله. وحكى لي عن مغامراته مع البنات. ثمّ أقسم لي أنّه حين عثر عليّ قرّر الكفّ عن عبثه ذاك. أنا أيضا أخبرته أنّي قد اعتزلت الرجال من اليوم الذي عدت فيه إلى حضنه. لكنّه قال لي إنّه لن يكون قادرا هذه المرة على وعدي بشيء، لأنّ كوني لم أعاتبه على ما فعل بي من قبل وغفراني ذلك

له، يجعله أكثر حذرا في التعامل مع مشاعري. وأنا، قلت له يكفيني أن تكون الآن معي. لكنّي في عزّ انتشائي، ودون إنكار ذلك، كنت أهمس له:

- أتعرف ما أتمنّى الآن يا حبيبي؟

- ماذا يا ندى الصباح؟

- أتمنّى لو كنّا متزوّجين.

فيضحك في ارتياح:

- أنت سكرانة لا غير.

لا! أنا لم أكن أهذي مثلما كان يظنّ. فأنا صراحة لم أعد أملك من أمنيّة في هذه الحياة، غير أن يكون هو زوجا لي. هذا هو الأمر الوحيد الذي سيربطني بالماضي الجميل الذي لم يفارق أنفاسي. سيعيد إلى روحي المتصدّعة روحها الأولى. ستعود نادية إلى نفسها. نادية التي كانت تحلم بالغد، وتتوقّع «الحياة» من الحياة. نادية التي كانت ترى الوجود من حولها يتغيّر فقط لسماع كلمات حبيبها الغرّ، الذي كان اسمه عبد الإله. ليس نادية الأخرى التي تبعثرت أيّامها، واندثرت أحلامها في النسيان. زواجي منه، سيجعلني أصالح نفسي، وأصالحها مع أهلي، حتّى وإن لم يوافقوا أو حتّى يعلموا، فالصلح سيتمّ هنا في نفسي، مع نفسي. لذلك قطعت وعدا عليها، أن أطلب منه أن تحقيق أمنيتي هذه. سأقولها له وأنا في كامل وعيي، دون اللجوء إلى جرعة خمر تجعل ما في الذهن يطفو على اللسان. لن أطلب منه تطليق زوجته وهجران أبنائه، لا لن أفعل ذلك، ولن أفكّر فيه حتّى. فلأكن ضرّة إذن! لا يهمّ. زواج في السرّ؟ في الجهر؟ لا يهمّ. المهمّ أن يكون زواجا شرعيّا. سيحتاج إلى موافقة زوجته؟ أعلم. وهناك احتمال غالب أنّها لن توافق. إذن، نسافر إلى مدينة أخرى، وأنا أحصل له عن طريق معارفي الكثر على شهادة عزوبية مزيّفة. نعقد زواجنا هناك، نجعله عرسا. ثمّ نعود بعدها إلى هنا. أجل، سأطلب ذلك منه. وأشعر أنّه في هذه المرّة، عكس ما فعل في الماضي، لن يخذلني.

لكنّي خفت. خفت رغم تلك الوعود المتكرّرة التي قطعتها على نفسي. ففي كلّ مرّة أتهيّأ للإقدام على ذلك، يجتاح أضلعي تخوّف لعين. لم أكن مطمئنّة من ردّة فعله. لا سيما حين أتصّور أنّ عدم تقبّله لطلبي، قد يدفع به للتخلّي عنّي، فلا أجني أنا غير ندم جديد.

حكاية نبيل

(6)

شهريار يحكي...

ذات ليلة، أتذكّرها جيّدا، برذاذ كان ينقر بخفّة على السقف القصديري، وأنا أتناول بنهم فطائر ساخنة مدهونة بالزبدة البلدية مع إبريق من الشاي، بعد يوم طويل من السير خلف القطيع، تلقّيت اتصالا على هاتفي المحمول من أخي محمّد. وحيث كان فمي ممتلئا بشكل مفرط بالطعام، فقد اكتفيت بالإنصات لما يقول.

تدفّق صوت محمّد عبر أذني المتحفّزة جملة واحدة، بينما ذهني يفكّ بتركيز عال شفرات الكلمات التي كان لها وقع الرذاذ الساقط على السقف، ناعمة ومتناغمة. وكأنّه يلقي على مسامعي قصيدة نثر ملحّنة. كيف لا وهو يخبرني، بل يزفّ إليّ، أنّه قد علم صدفة، إثر حديث دار بينه وبين أحد أقاربنا هذا المساء، أنّ أخ هذا الأخير والذي يملك صالونا صغيرا للحلاقة بمدينة تمارة، والذي يشتغل فيه بنفسه، قد حصل مؤخّرا على عقد عمل للحلاقة في السعودية، وقد فضل أمامه أسبوعان قبل السفر، لذلك فهو يبحث عن حلّاق ثقة يشغل مكانه، حتى لا يذهب ما حقّقه من شهرة للصالون أدراج الرياح، وأيضا حتى يضمن استمرارية عمل الصالون إن

اضطرّ هو للرجوع إليه، و... و... إلى آخره. فما كان من أخي محمّد إلى أن اتصل بي سريعا يعرض عليّ الأمر، ما دام قريبنا، صاحب الصالون، قد سُرّ حين اتصل به أخوه، يخبره أنّه ربما قد عثر له على الشخص المناسب.

لم تكن تلك ليلة للنسيان، وأجمل خبر سمعته يمدّد ساعاتها رفقة الرذاذ الذي استمر نقره لسقف البيت حتى منتصف الليل. ولم تكن ليلة يسمح فيها ذهني النشط لحواسّي بالنوم، وقد بات يفكّر في أشياء كثيرة، أمور مترابطة وأخرى متشابكة وأيضا أخرى متنافرة. فكّرت في المدينة، في بناتها المثيرات، في مقاهيها المكتظّة كلّ الأوقات، في صباحها السريع، وفي ليلها ذي المصابيح الملونة، وفي طرقاتها الصاخبة، وأرصفتها المزدحمة... فكّرت في لعنة جدّي الراعي التي سأكون في خلاص أرجوه أخيرا منها، وفي خلاص آخر صار أكيدا من يوم البادية الطويل، ومن نظرات وألسن الشامتين... فكّرت في الحقيبة السوداء التي عليّ جمع محتوياتها في الغد استعدادا للرحيل الجديد الذي قد أقدم عليه في أي لحظة... فكّرت في القصاصات التي جلبتها معي ذلك اليوم، أين أكون قد نقلتها في آخر مرة؟ في الدولاب تحت ملابسي؟ أم في صندوق أوراق العائلة المهمة؟ أم في العلبة الكرتونية حيث تتكدّس الكتب؟ تخيّلت حلّاقي القرية الذين اشتغلت معهم في الأسابيع الأخيرة كيف ستكون ردّة فعلهم حين يتّصلون بي كما العادة يطلبون مساعدتي فأخبرهم أنّي صرت مشرفا على صالون خاصّ بي، بل وهو في المدينة فوق ذلك؟ وتذكّرت ذلك النهار القائظ الذي عدت فيه إلى هنا أجترّ حقيبتي وخيبتي. تذكّرت إخفاقي في الجامعة، الامتحانات اللعينة، المحاضرات الرتيبة، الطلبة المتوترين طول الوقت، والطالبات المنحازات لأصحاب السيارات وأصحاب النتائج الجيّدة...، الأساتذة الاستغلاليين، والأساتذة المتعجرفين، وحتى الحافلات التي كنّا نتسابق ونتدافع لنتكدس داخلها كالخرفان تذكّرتها في تلك الليلة العجيبة. ثم

تذكّرت غرفتي بشقّة أخي محمّد، تذكّرتها بكلّ تفاصيلها الدقيقة، كيف كانت قبل رحيلي عنها. تذكّرت السمر رفقة محمّد، وكيف كنّا نعدّ معا طنجرة أو طجينا للعشاء، قبل أن نجلس بعد تناوله نحتسي كؤوسا من الشاي ونحن نتابع فيلما حتى وقت متأخّر من الليل.

توقّف المطر عن السقوط، غير أنّ ذهني كان لازال يخيط أمامي مزيدا من الصور والمشاهد، بينما حنين عنيف وغريب يستيقظ بداخلي. لم أكن أعلم أنّ أجواء المدينة، بأزمنتها وأماكنها، قد نالت من مشاعري إلى هذا الحدّ، وأنّي في رجوعي هذا إلى القرية والبيت والمراعي كنت كسمكة أخذت من البحر إلى نهرها الأوّل، فجرت مع تيّاره تنتظر عند كلّ انحدار أن يعيدها مرّة أخرى إليه. فأيّ ارتباط هذا الذي نبت بيني وبين المدينة خلال تلك المدة المتقطّعة التي قضيتها بها رغم كلّ إخفاقاتي فيها؟ أيكون ذلك الطموح القديم، يوم خرجت بأمل الرجوع بنصر أزفّه إلى أمّي وأجعل به أبي يتكلّم بدل النظر إليّ، لا يزال حاضرا بداخلي؟ أم أن انبهاري بحياة المدينة رغم كلّ تناقضاتها هو ما أبقاني في اشتياق لها؟ أم هو هروب فقط، من مخاوف أن تصيبني لعنة جدّي الراعي إلى الأبد؟

في الصباح، وبما أنّي لم أستيقظ في الوقت المفروض لإخراج القطيع، وبينما أنا غارق في حلم لذيذ، هزّني من فراشي صوت طرق عنيف على باب الغرفة حيث أنام. ومن بين الضجيج ومغالبة النوم اندفع صوت والدي يستحثّني على النهوض لإخراج القطيع. وحين استوعب أنّي لا أستجيب جذب باب الغرفة نحوه بقوّة ثم أطلّ برأسه، بينما انتشرت عبر فضاء الغرفة طبقات من النور الخفيف. وقبل أن يعود هو إلى المناداة باسمي بأعلى صوت، كنت أنا قد اعتدلت جالسا فوق الفراش. قلت له فاركا عينيّ دون القدرة على النظر تجاهه، حيث شعاع مبهر يكتسح الفجوة بين الباب والجدار:

– لقد نسيت أن أقول لك! سأسافر غدا إلى المدينة.

- ولماذا تريد أن تسافر إلى المدينة؟

- لقد عثر لي محمّد على عمل هناك.

- أيّ عمل؟

- حلّاق. سأشرف على صالون للحلاقة بمدينة تمارة. يمتلكه أحد أبناء الحاجّ بهيج.

طبعا أنا لم أكن أنتظر تعقيبا من أبي، لا سيما وأنّ الحوار بيننا جرى إثر مناورة منّي لتجنّب «أمره لي» بالنهوض لإخراج القطيع إلى المرعى. لكنّي رأيت هامته وهو يدور وسط الضوء المندفع ثم ينصرف تاركا باب الغرفة مواربا. ظللت للحظات ساهما في الأرض. تثاءبت بقوة، ثمّ ملت في استسلام إلى الخلف جاذبا الغطاء فوق جسدي حتّى أعلى رأسي.

لم أقم بشيء ذي أهمية تذكّر في ذلك اليوم، غير جمع أغراض الحقيبة، خصوصا أدوات الحلاقة، التي نظّفتها جيّدا، ومسحتها بعناية. كانت تلك هي المرة الأولى التي يخرج فيها القطيع من دوني من يوم أن أخرجته أوّل مرة عند رجوعي إلى هنا قبل أشهر. وقفت أمام الحظيرة الفارغة، مشرّعة الأبواب، ورائحة روث بقر وغنم عنيفة تصفع وجهي. وفكّرت في هذه العلاقة العجيبة التي تتحقّق بين الإنسان، الراعي، وقطيعه الذي يرعاه. وقلت مع نفسي إنّ الأمر يتطوّر فعلا إلى عاطفة غريبة. كيف لا، والراعي رفقة قطيعه كلّ يوم، من طلوع الشمس وحتى غروبها. فالراعي أكثر شيء يراه طيلة النهار هو حيواناته، بل ربّما لا يتكلّم مع أحد آخر كما يفعل معها. عندها تذكّرت لعنة جدّي الراعي كما أسمّيها، وكيف سعى جدّي الأكبر دون إرغام أو توجيه من أحد إلى امتهان هذه الحرفة التي تجعله قريبا إلى هذا الحدّ من القطيع. هل هذه العلاقة مرتبطة بفطرة إنسانية معيّنة، كتجاذب طبيعي بين الإنسان والحيوان؟ قد يكون انجذاب الإنسان هذا متعلّقا بعاطفة صافية لا غير تتلخّص في قول إنّ الإنسان يحبّ الحيوان، وقد يكون دافعه هو حرص الإنسان الفطري على العناية بحيواناته الدليلة

باعتبارها مورد رزق له، فهي تمنحه اللبن والزبدة واللحم والصوف والجلد و و و... أجل، حتما هذا هو الأمر الذي يخلق هذه العلاقة، شيء مبنيّ على مصلحة متبادلة، الكلأ والمرتع والرعي مقابل اللبن واللحم و و و... لكنّ جدّي الراعي، لم يكن يمتلك تلك القطعان التي كان يسوقها. أجل هو سيحصل على أجر، لكنه ليس وفق التفسير الذي توصّلت له، ربما بشكل غير مباشر، لكنّي أبحث في الدوافع الفطرية المحضة وليس المكاسب التي تدخل في دائرتها العلاقات الاجتماعية. إذن، ربما تكون فطرة الرعي في حدّ ذاتها، أعني أن يكون للإنسان شيء تحت مسؤوليته: يرعاه، يحرص على مأكله ومشربه ومرتعه وعلى أمنه أيضا، يقوده ويسيّره. أجل، ربما. كعاطفة الأمومة والأبوّة مثلا. دوافع فطريّة تلحّ على زوجين حديثين بأن ينجبا أبناء. أشيء كهذا هو ما دفع بجدّي لكي يتحوّل إلى راع لقطعان القبيلة؟ ثم وجدتني، حين عدت للتفكير في العلاقة العجيبة التي تحصل بين الراعي وقطيعه، أتخيّل افتراضا زوجا وزوجة يقيمان معا ولوحدهما في بيت معزول عن الناس. لديهما ربما حقل أو قطيع أو أي شغل آخر. المهم أنّ أكثر شيء يراه كلّ واحد منهما طيلة اليوم ويسمع صوته ويتحدّث ويتعامل معه هو الآخر، وأنّ هذا التفاعل الإنساني، يتكرّر كلّ يوم. أتخيّل هذه العلاقة التي تشمل الزمن أكثر ممّا يشملها الزمن، وأتساءل: أيّ عاطفة هذه التي يمكن أن تتولّد من رحم هذا التفاعل البسيط والكثيف؟ ثمّ يبدآن في إنجاب أبناء. سواء قرّرا ذلك أو لم يفعلا. لكنّهما فكّرا في أنّهما سينجبان، وأحبّا بعد ذلك كونهما ينجبان. ثم وجد كلّ واحد منهما أنّه يكنّ عاطفة قويّة تجاه هؤلاء الأبناء، قبل حتّى أن يغادر هؤلاء الأبناء الرحم، أي أنّ تلك العاطفة تفجّرت عند اللحظة التي اكتشفا فيها وجود حمل. وهذه العاطفة القوية الجديدة التي لم يعرفاها من قبل تفرض عليهما دون أيّ توصية أو شرط رعاية هؤلاء الأبناء، رعاية شاملة كاملة. فهما إذن يفعلان ذلك حتى دون تفكير، بعفوية مطلقة، وبحبّ وافتخار أيضا.

لقد فكّرت في كلّ هذه الأشياء، وخضت في البحث عن تفسيرات لها، فقط لكي أفهم سرّ تعلّقي العجيب هذا بالقطيع. كان الوقت ظهرا، والشمس ساطعة بعناد في جوف السماء عكس الليلة الماضية، وكنت أنا قد قطعت وقتا طويلا من المشي دون أن أنتبه لذلك، إلّا حين جلست على تلّة عند مشارف الغابة، أتأمّل القطيع، قطيعنا، يرتاع في ظلّ الأشجار، بينما حميد ابن أخي إدريس يضرب بعصاه، عصا الراعي، أغصان الشجر، ويلتقط ما سقط على الأرض من ثمار بلّوط.

حكاية أشرف

(3)

أشرف يحكي...

ما الذي أيقظ حكاية عشقي لمريم من سباتها الذي دام لسنين وجعلني أحكيها دون مركّب نقص لشلّة السمر بالصالون؟ أم أنّ الحكاية ظلّت هناك، بأعماق القلب القاتمة، كبركان يغلي بالحمم في فجوة جبل هامد مكسوّ بدغل رطب أو مغطّى بطبقة سميكة من الثلج؟ هل أنكر أنّي لم أنس مريم؟ أو بالأحرى ما فعلته بي مريم؟ لقد ظلّ، ما فعلته بي، كالجمرة التي توقد كلّ حين النيران الهائجة بداخلي، يبرد كلّ شيء وتظلّ تلك الجمرة متّقدة تنتظر زفرة ريح لتعيد إشعال كلّ شيء. وكان عليّ أن أوجّه فوهة النيران تلك صوب الوجهة الصحيحة، لكيلا تحرق كلّ الطرقات أمامي، وتحيل كلّ أخضر في الحياة إلى رماد، بل وأجعل منها وقودا لمحرّك الانطلاق نحو أفق أحلامي.

تلك السنة، أكملت فترتي التدريبية، واجتزت الامتحان النهائي بنجاح. كانت أيّاما سوداء. ولم أدر كيف تحمّلت كلّ ذلك وواصلت المسير حتى خطّ النهاية. فرحت بالنجاح، الذي وضعته بين يديّ أبي كما طلب: «أنت احصل على الديبلوم ودع الباقي عليّ!». وكان صيف تلك السنة فصلا

للراحة والاستجمام، والاحتفال أيضا. ولم لا الاحتفال، وقد حصلت على الديبلوم وحرّرت كاهلي من عبئه الذي وضعه أبي فوق كتفيّ طيلة أيّام السنتين الماضيتين؟ الآن، أنا قادر على الخلوّ بذاتي وسبر أغوار سبل توصلني إلى بلوغ حلمي الأسمى، الذي جعله ما فعلته مريم بي يعود للصحو من جديد والتحليق أمامي. ثمّ إنّي لن أشغل نفسي بعناء البحث عن عمل، ولا إرهاق فكري ووجداني بالأسئلة التي ترهق هواجس الرغبة في الحصول عليه، مادام والدي قد وكّل نفسه للقيام بهذه المهمة عنّي. وصراحة، الآباء ذوو المعارف والسبل الملتوية غالبا ما يجدون لأبنائهم عملا دون حتّى أن يذكروا ذلك للأبناء. أمّا والدي فلا أظنّه وعدني بذلك قياسا على ما يفعل هؤلاء، بل ليوهمني ويدفع إلى نفسي، لا أكثر، ببعض التحفيز حتى أجدّ وأثابر لتحقيق ما أعتبره مراده وليس مرادي. فأنا أعرف جيّدا كيف يفكّر ويخطّط أبي لمثل هذه الأمور. طبعا فهو رجل تعليم، ومن الطراز القديم أيضا.

مطلع ذلك الصيف، كنت مستعدّا للقيام بأيّ شيء يقترحه الرفاق عليّ. الذهاب إلى الشاطئ، السفر شمالا وجنوبا، الخروج في رحلة اكتشاف نحو البوادي والجبال، السهر حتّى الفجر بالخارج، معاكسة البنات في الشارع، الغناء في حديقة أو مكان عامّ بينما أحدنا يعزف على قيثارة أو أورغ... كنت أنطلق في جنون، أحيى طفولة جديدة، دون ما يثقل الكاهل، أو يؤرق الفكر. لكنّي لم أكن أدرك حينها أنّ كلّ ذلك اللعب والانعتاق من مسؤوليات الحياة، وهدر الوقت بشكل مستمرّ، إنّما كان تمرّدا وعدم تقبّل لحقيقة أنّ زمن الطفولة والمراهقة يولّي بعيدا، ليُقبل بدله زمن آخر، زمن البلوغ الحقيقيّ، زمن بداية النضج.

ومريم؟ هل كنت أسعى إلى إقبار ذكراها هي الأخرى عبر هذا الجنون والعبث؟ لماذا كنت أعاكس الفتيات وأبدي إعجابي بهن دون التفكير في تجاوز ذلك إلى ما هو أكثر من كلمات عابرة لا يفوق مصدرها اللسان

والحلق؟ هل كنت خائفا، مرهوبا من خوض حكاية أخرى تنتهي بي إلى جحيم جديد؟ هل انتهى بي المطاف إلى محارب استنزفت قواه معركة فلم يعد قادرا على إكمال الحرب؟

ومريم... ها أنا سأراها مرّة أخرى في أواخر ذلك الصيف الحافل بجنون.

كنت نازلا بمفردي عبر شارع محمد الخامس بالرباط. وكانت هي تقطع الطريق في اتجاهي، رفقة شابّ متقدّم قليلا عنّا في السن، هو حتما غيرُ «شابٍّ كرسيّ حديقة المعهد». يبدو أنيقا وميسور الحال أيضا، فهو كان يرتدي تي شورتا وسروالا كالتي يرتديها لاعبو الغولف. هي أيضا بدت أنيقة، وساحرة الجمال. بكنزة قطن برتقاليّة اللون مشدودة على الصدر، وسروال ثوب أسود مستقيم، وسندل كعب جلديّ بأحزمة، بنيّ اللون، بينما يسطع وجهها ناصع البياض، تُرسم على صفحته ملامح ربّانية جميلة، مصبوغة بريشة مستحضرات تجميل خفيفة. ثم ذاك شعرها كما كان يعجبني أن أراه عليها، ملفوف إلى الخلف على شكل ذيل حصان، يفوح لونه الكستنائيّ الغامق ببهجة البراري الجامحة. لقد لاحظت ذلك كلّه عبر نظرة واحدة. هل كانت حقّا نظرة واحدة؟ أم أنّها كانت واحدة مطوّلة، لا تنتهي برمش العين، أو تغيير اتجاه البصر، بل هي تستمرّ هناك في أوعية العقل والذاكرة في امتداد لا نهاية له.

كانا يقطعان الطريق على رويّة. وكانت هي ممسكة بذراعه. متشبّثة بها بشدّة. كأنّها تعانقها مخافة أن تنفلت منها على حين غرّة. وكان هو يميل برأسه نحو وجهها، يهمس لها وهي تبتسم. تقابلت مسيرتانا عند الرصيف. لمحتني. نظرت إليّ، في عينيّ. عينيّ الحزنتين المندهشتين. ظلّت تنظر إليّ وقتا محسوسا، وأنا كذلك فعلت. ثمّ أشحت بوجهي عنها، كأسد استولى عليه كبرياؤه فجأة فزأر. أجل زأرت حين صارت خلف ظهري. صرخت كجنديّ مهزوم مكلوم. لم أكن حزينا في ذلك

الوقت وأنا أتدحرج عبر الشارع الطويل مترنّحا، بل كنت غاضبا ومشفقا على ذاتي.

استيقظت كلّ الأوجاع المنسية بداخلي ذلك اليوم، وأمضيت ليلة من الأرق، تعود بي ذاكرتي إلى تفاصيل لحظات الزمن المعدوم التي أمضيتها رفقتها، في عشقها، في حلم عشته وحدي، حلم لم تشاركني هي إيّاه. حلم تعلّمت عند نهايته أنّ الوهم ليس مجرّد فكرة أو اعتقاد، إنّما هو أيضا شيء محسوس، واقع يعاش.

لم أنم في تلك الليلة حتّى الصباح. كان قلبي سهرانا يبكي، يلفظ العَبَرات. وكانت شفتاي تبتسمان لحظة ثمّ تعودان للانقباض. كانت الحكاية كلّها تعبر أمامي بفصولها في غير ترتيب زمني، وبين الفصل والفصل أرى مشهد مريم وهي تفرّ من يديّ لتمسك بذراع رجل آخر. هل كان هذا الاسترسال في المشاهد حلما؟ كابوسا؟ لا، لم أكن نائما، أنا متيقّن من ذلك. لقد كانت ذاكرتي تفعل ذلك بي، تستفرغ نفسها من الحمل الثقيل وتلصقه بي، تُحمّلني إيّاه في تلك الليلة الطويلة. فكيف أتحمّل أنا ذلك؟ أنا لن أذرف حزنا مُهلكا على فتاة تركتني ومضت دون أن تكترث لما قد يؤول إليه حالي. أبدا لن أفعل ذلك.

قبل أن ينجلي ظلام تلك الليلة وينقشع الصبح، كنت قد قرّرت: يجب أن أعيد لنفسي اعتبارها المفقود، وكرامتها التي أحسّها قد هوت إلى الأرض، والسبيل لذلك أن أنجح في حياتي، وأوّل نجاح عليّ تحقيقه هو بلوغ حلمي الطفوليّ.

سنة دون عمل...

عند انقضاء ذلك الصيف، وبداية موسم، دراسيّ ومهنيّ، جديد، انفضّ جمع أصحاب تلك الفترة، ومضى كلّ إلى شؤونه، باستثنائي أنا. لكنّي لم أكن لأهتمّ بأمر العمل في تلك الفترة. الديبلوم في خزانة والدي، وهو إن لم يجد لي عملا فأنا لن أرهق نفسي في بحث عنه أو حتى سؤال.

بينما وجدتها أنا فرصة للانكباب بحثا عن سبل تقرّبني من تحقيق غايتي. كنت أدرك أنّ عدم توفّري على دراسة أو تكوين في مجال الصحافة أو الإعلام يصعّب عليّ الأمر. لذلك فكّرت أن كتابة مقالات صحفيّة هو السبيل المتاح، ثمّ أرسلها كما كنت أفعل من قبل إلى تحرير الجريدة، عبر البريد العادي أو البريد الإلكتروني الذي كان التعامل به في ذلك الوقت قد بدأ ينتشر في كثير من الأوساط، وأجرّب حظّي هذه المرّة.

عدت إلى شغف المطالعة: الجرائد، والمجلات الثقافية، والآداب، والفكر، والتاريخ... وتراجعت عن متابعة البرامج الحوارية في مقابل الأفلام الوثائقية والسينمائية. كنت أكوّن نفسي بنفسي، ذلك التكوين الذي لا يفرضه عليك نظام تعليمي ولا يمليه عليك أستاذ. أدرس برغبتي، حسب اختياراتي، وفق ميولاتي، وحسب الاستعمال الزمني الذي يناسبني وأرتاح إليه. أليس التعلم وفق هذا النظام المستقلّ أنجع من الأنظمة التقليدية؟ أليست المطالعة الحرّة والتلفاز وسيلتين تمنحانك من المعرفة ما قد لا تجده في المدرسة؟ (الأنترنيت وقتها - منتصف الألفينات - كانت حكرا على نوادي الأنترنيت، وكان قليل من الناس من يمتلكونها في البيوت)، المهم أن تكون لدينا رغبة في التعلم، وقليل من الإمكانيات، وبالبحث وطرح الأسئلة، عندها تكون المعارف قريبة المنال بكلّ تأكيد.

ومضى ذلك الموسم دون أن تفلح محاولاتي في كتابة مقالات في أن تجد موطئ قدم لها على صفحات الجرائد التي ظللت أراسلها بشكل مستمرّ. استولى عليّ اليأس بعد أشهر قليلة من المحاولة، فتركت المطالعة والكتابة جانبا ودخلت في زمن الكسل كما سمّيته. أُمضي اليوم بين النوم الكثير والتلفاز والتسكع بين شوارع تمارة والرباط، أشاهد مباريات الكرة في المقاهي، وأُدمن جديد الأفلام على أشرطة الفي سي دي، ولا أفوّت حلقات برامج أو مسلسلات أثارت إعجابي... كنت أدرك أنّي أعيش مرحلة فراغ، وكنت أتواطأ مع نفسي على الاستمرار في فعل ذلك. أحيانا

كنت أتساءل عن نهايتها، لكنّي لم أكن ألمح لها حدّا. فالديبلوم منسيّ بين أوراق أبي، والجرائد لا يروق لها شيء ممّا أكتب، والمطالعة صرت أعتبرها دون جدوى مادام الزمن متوقّفا عندي. حتّى الصيف الذي كان على الأبواب، لم يكن لي شوق إليه، ولم أكن أنتظر منه شيئا.

ازدادت الأمور سوء فلزمت البيت ولم أعد أخرج إلى أيّ مكان. أبي انتابه القلق من انطوائي حول ذاتي وانزوائي في ركن البيت. اقترح عليّ السفر عند أحد أخوالي بالشمال لتغيير الجو فلم أتحمّس للأمر. سألني لماذا توقّفت عن الكتابة؟ فرددت ببرود ألّا أحد يعجبه ما أكتب. طلب منّي أن أجلب ما كتبت. ناولته إياه. وضعه في محفظته وانصرف إلى مدرسته.

في المساء، على مائدة العشاء أعاد عليّ نفس السؤال:

– لماذا توقّفت عن الكتابة؟ لكنّه أضاف: مستواك يتطوّر من مقال إلى آخر؟

أجبته مبتسما:

– المهم أنّ هناك شخصا قدّر، ولو نسبيّا ما كتبت.

قال وهو يلوك لقمته:

– لا يعني بالضرورة أنّ سبب عدم النشر هو أنّ ما تكتب سيء. كثير من الجرائد لديها سياساتها في النشر وتتّبع توجّهات معيّنة. أنت تكتب بموضوعية حينا وحينا آخر بشكل نقدي تتدخّل فيه آراؤك الخاصة. وأعتقد أنّ هذا ليس عيبا، بل على العكس هذا يمنح أفقا أرحب لطرح رؤى جديدة ومختلفة. لكنّي أعتقد أنّ المشكل الذي لديك هو في اختيار المواضيع. يا أشرف الجرائد، والصحافة بصفة عامّة تساير الموجات السائدة، الأحداث الحاضرة، والملفّات الشائكة، وبعضا من الرجوع إلى ما يثير فضول الناس من أحداث تاريخية... ما يشغل اهتمام الناس عموما. أنت مثلا، كتبت في أحد مقالاتك، عن علاقة السينما بالأدب، وقلت إنّ

مطالعة المرء للأدب، تُتيح له عند مشاهدة فيلم، أن يراه وفق أبعاد أخرى ومن زوايا عديدة، وتكون قراءته له أشدّ عمقا. وفي المقابل، فمشاهدة المرء للأفلام الجيّدة تفتح خياله على نطاقات أرحب عند قراءة نصّ أدبي. وأوردت بعض الأمثلة من تجربتك الخاصّة حول ذلك. وخلصت في النهاية إلى كونها علاقة أخذ وردّ.

عندما استرسل أبي في الكلام كان قد توقّف عن مدّ يده نحو طبق المرق بالدجاج، رغم أن قطعة خبز كان قد جهّزها لذلك بين أنامله، وواصل:

– كلّ هذا وجدته رائعا وقيّما أيضا. لكن، يا بنيّ الجرائد ليست كالكتب المعرفيّة، الجرائد يغلب عليها الطابع التسويقي، ومجاراة انشغالات الناس. قليلون الذين سينتبهون لمقالك هذا، وقليلون الذين سيقرؤونه. افتح أيّ جريدة وانظر إلى ما يتربّع بقوّة على صفحاتها الشاسعة الكثيرة؟ حسنا، أخبرني أنت!

كان يطرح عليّ السؤال. أجبت:

– أخبار الجرائم والقضايا والفنّانين و...

وأنا أفكّر في المزيد، أكمل هو:

– وأخبار السياسة والرياضة والفكاهة أيضا.

أجبته بالتأكيد. فواصل وهو يمدّ يده نحو طبق التفاح:

– فهذا ما يثير الناس إذن.

– لكنّها أخبار عادية؟ قلت في استنكار.

– عادية بالنسبة إليك، لكنّها تمثّل الشيء الكثير بالنسبة لقراء الجرائد. وأصحاب الجرائد يعون جيّدا ما يفضّله الناس. مقالك ذاك يمكن أن تنشره في مجلّة متخصّصة أو ثقافيّة أو تعليميّة. وما دامت مقالاتك تروم التحليل والنقد فيمكنك مثلا أن تحلّل ظاهرة سياسية أو فنّية...

- لكن السينما التي تحدّثتُ عنها، هي أيضا فنّ. قاطعته وأنا أضغط بقوّة على السكين لشطر التفاحة التي بين يديّ.

- أجل، لكن السينما التي تتحدّث عنها أنت لا يهتمّ بها كثير من الناس، بل لا يعرفونها حتّى. فهناك فنّ، وهناك فنّ آخر. ورُبّ قليل نافع.

نهض أبي عن المائدة ليغسل يديه. بينما أنا جالس على السداري أقضم بعصبيّة من نصف التفاحة، وأفكّر فيما قاله لي. كنت أدرك أنّ كلامه هذا لن يخفّف شيئا من حالة اليأس التي انتابتني، بل على العكس سيزيد يأسي إحباطا.

وقتها أخذت كلامه هذا بلامبالاة، مادام لن يغيّر لصالحي شيئا. غير أنّ حديثه هذا الذي ظللت أتذكّر تفاصيله بدقّة إلى اليوم، تجلّت جدواه فيما بعد، وظلّ يزداد تجلّيا أمامي يوما بعد يوم، مدركا قيمته، تلك التي كانت محجوبة عنّي وقتها بضباب رماديّ كثيف. ومع ذلك نهضت في تلك الليلة عن مائدة العشاء بسحابة من سرور تدغدغ قلبي، فوالدي اهتمّ أخيرا بشأن مقالاتي، بل وأبدى إعجابه بما أكتب. لقد اعترف بذلك أخيرا.

***

مطلع صيف تلك السنة، جاء عمّي العربي المتقاعد من الدار البيضاء، في زيارة مطوّلة استمرّت لما يقارب الأسبوع. استغلّها للجلوس مع والدي بالمقاهي والسمر معه ليلا بالبيت في استحضار ذكريات بعيدة. وفي نفس الوقت لقضاء بعض مآربه بالرباط ومقابلة بعض أصحابه القدامى هناك.

منذ إحالته على التقاعد، فتح عمّي مطعما صغيرا (سناك)، للوجبات السريعة وعواصير الفواكه. في البداية كانت انشغالاته كثيرة مع مشروع عمله الجديد، لكن الآن، صار مطمئنّا على سير الأمور فيه وفق الشكل الذي يحبّ حتّى وإن لم يكن موجودا. فابنه البكر علي، الذي كان

يعمل في إحدى نقط بيع شركة للاتصّال، أقاله منها، ثمّ وكّله على تسيير المطعم. وبذلك وفّر لابنه عملا أحسن من الأوّل واطمأنّ هو على مراقبة العمل وصندوق مداخيله ومصاريفه.

ولعمّي هذا علاقات واسعة مع الناس، سواء هنا في الرباط حيث درس وكان يعمل بالبداية، أو هناك بالدار البيضاء، كما لديه معارف أيضا بمختلف مدن المملكة. فطبيعة عمله كموظّف بالمحكمة، فتحت له الطريق لتعارف أكبر مع الناس، المتقاضين وعائلاتهم على وجه الخصوص. ولطول الخدمة، ولباقته هو، والقبول الذي يحظى به، فقد توسّعت شبكة المعارف هذه. وإلى اليوم، مع زبائن المطعم، إضافة إلى بحثه الدائم عن أصدقائه القدامى، فهي في توسّع مستمرّ.

عمّي العربي، كان على علم أنّي أمضي أيّامي دون شغل ولا مشغلة. وكان يعلم أيضا أنّي مهتمّ بكتابة مقالات لم تعرف طريقا للنشر. ولم يفته أن يطالعها، فهو مدمن جرائد أيضا.

- أنت تكتب بشكل جيّد.

ثمّ طلب منّي أن أنسخ المقالات له على عدة نسخ.

- من يدري، لعلّي أصادف أحدا يفيدنا في أمر النشر هذا. فالوساطة يا ابني أشرف هي أنجع سبيل لتحقيق غاياتك في هذا البلد السعيد.

- إن وجدت له وساطة بخصوص ديبلوم التسيير الذي بحوزته، يكون أفضل له. ومسألة النشر قد تجيء في أيّ وقت. تدخّل أبي.

- إن أردت الاشتغال حسب تخصّص دراستك أو تكوينك، فأنت ستمكث كثيرا حتّى تتاح لك الفرصة.

- هذا إن أتيحت. قال أبي. ثمّ أكمل: ثمّ إنّ نشر تلك المقالات لن يكسبك لقمة عيش.

كنت أتابع ما يدور حولي في صمت كئيب. لكنّ مسألة أخذ عمّي لنسخ من كتاباتي جعلت أملا يطرق أبواب قلبي المنكسر.

عاد عمّي إلى بيته، وبحقيبته نسخ من مقالاتي والديبلوم وسيرتي الذاتية. بعد أيّام اتصل. كان يكلّم أبي عنّي. ووقفت أنا عند رأسه وهو مستلق فوق السداري أمام التلفاز يتكلّم عبر جوّاله. كان قلبي يقرع طبولا كبيرة التجويف، مترقّبا أن يُثلج صدري بخبر نشر بعض ما كتبت. ضحك أبي ثمّ قال:

– حسنا سأخبره. ها هو إلى جواري يتجسّس.

كان ذلك بشارة خير. أقفل أبي المكالمة ثمّ نظر إليّ:

– لقد وجد لك عمّك عملا. هو لا يدخل في مجال تخصّصك، لكنّه براتب مقبول.

حكاية الدكتور عمر

(7)

الدكتور عمر يحكي...

كثير من الناس، والذين لا أعرف أغلبيتهم الساحقة، جاؤوا لزيارتي.

يجيئون فرادى أو جماعات. يتربّصون بي أمام مبنى العمل، وأمام باب البيت، بالمقهى الذي أعتاد الجلوس به. يسلّمون عليّ، يقول شيئا طيّبا في حقّي، ويعبّرون عن مدى إعجابهم بما صنعت، معلنين تضامنهم الشامل معي، ثم لا ينصرفون إلّا بعد التقاط صور رفقتي. زارني صحفيّون ومهنيّون، وجاء إلى مقابلتي أيضا ممثّلون عن تلك النقابات والهيئات التي كانت قد تدخّلت عبر الخطّ ضدّي، على حدّ التعبير الذي استخدمه صديقي عبد الواحد بالوزارة، وعرضوا هذه المرة دخولهم عبر الخطّ إلى جواري، لكنّي رفضت. هم أصرّوا عبر كلام معسول، لكنّي انفعلت في وجوههم.

وبعد أيّام قليلة عن الضجة التي انبعثت من حولي، اتصل بي عبد الواحد ليبشّرني بأنّ الوزارة لن تصدر أيّ قرار في حقّي بعد تراجع المشتكين ضدّي عن شكاياتهم. وحتّى المندوبة جاءت إلى مكتبي وسلّمتني بيدها قرار الإذن بالرجوع إلى مزاولة مهامّي. وبمكتبي أيضا

جاء مسؤولو النقابة التي كنت قد طلبت منهم التدخل إلى جانبي، والذين لم يقدموا على شيء غير وعود معسولة واهية. دخلوا إلى مكتبي وهم يصفقون ويردّدون شعاراتهم النضاليّة، ثم أعلن أحدهم حين انتبه أنّ قاعة المكتب قد امتلأت عن آخرها بالموظّفين:

- ألم أقل لك، يا بطلنا الدكتور، أنّنا سنخرجك منها كالشعرة من العجين؟

انتفضت من مكاني:

- أنتم لم تقوموا بشيء، لا شيء، لا شيء. قلتها موجّها إصبعي كالمدفع صوب وجهه. تفاصيل كلّ ما يجري حول ملفّي في الوزارة أنا على علم بها، لحظة بلحظة.

وحتّى لا أسمع شيئا يستنفر غضبي، اندفعت مخترقا أجسادهم نحو الخارج.

أُقفل ملفّ القضيّة، بعد شهرين فقط على فتحه. حمدت الله كثيرا على التعاطف الذي حظيت به من الناس. وقرّرت أن أعانق أشرف، صحفيّ صالون «شهريار» للحلاقة، هكذا أنعته، وأشكره على العمل البطولي الذي قام به لتعريف الرأيّ العام بقضيّتي. جميل أن ترى بالوطن مثل هؤلاء الشباب. تحس أنّ العالم لا يزال بخير. تطرد الإحساس القاتم الجاثم على صدرك، وتنظر إلى الغد القريب بتفاؤل وارتياح. وتتمنّى لو كان كلّ شباب الوطن مثله. شاب مثقّف ومتعقّل وطموح في نفس الوقت. والأهمّ، ربما هذا لطبيعة عمله، يحلّل الأحداث، وينتقد بشكل موضوعيّ، ويسعى بإلحاح خلف الحقيقة. اعترتني دهشة كبيرة حين علمت أنّ عمله في الصحافة هو عمل إضافيّ. إذ إنّه يعمل طوال النهار مشرفا على فرع إحدى الشركات. ذاك الشاب، يمتلك إرادة قويّة. وقد قال

لي: «إنّ العمل في الصحافة هو حلمي الأزليّ. أمّا عملي الآخر فهو مورد رزقي الحقيقيّ. إنّه بلد التناقضات يا دكتور.»

وأنا أيضا، لن أظلّ متناقضا مع نفسي، فمواقع التواصل الاجتماعي، من فايسبوك ويوتيوب وغيرها، والتي كنت أصرّ على انتقاد مدمنيها دائما، أعترف اليوم أنّها قد ساهمت بشكل لافت في التعريف بقضيّتي وجمع كلّ تلك الأعداد من المتعاطفين معي. لذلك فأنا أقول إنّ التكنولوجيا هي شيء نافع ما دمنا نستخدمها في الاتجاه الصحيح.

ورغم إقفال ملفّ قضيّتي ورجوعي إلى مزاولة عملي بشكل طبيعي، ورغم نشر ذلك في الصحف وعلى الأنترنيت، إلّا أنّ الناس ظلّوا يتوافدون عليّ، بل وبأعداد أكثر من الأوّل. وكأنّ الخبر حين يلج عبر خيوط تلك الشبكة الهائلة، ويظلّ يتناسل هناك، كما تنشطر الخلايا، يصعب إيقاف تدفّقه. في مواقع التواصل، ينتشر الخبر سريعا، لكنّه أيضا يمكث في صفحاتها طويلا. فكما شرح لي ابني عماد ذو العشرين سنة، فيكفي أن يعيد شخص واحد نشر خبر منسيّ على صفحته حتى يظهر عند مجموعة أصحابه، ويكفي أن يتفاعل أحد من هؤلاء بإعجاب أو تعليق حتّى يظهر عند مجموعة أصحابه هو الآخر، وهكذا دواليك... فيكون الخبر في غضون ساعات قليلة قد عاد للانتشار في المملكة كلّها.

جميل، جميل، جميل. لكنّ المنفعة المطلقة هي شيء خياليّ، خصوصا إذا ما تعلّق الأمر بالعلم والتكنولوجيا. فزوجتي التي تظلّ جالسة بجانب أبنائي وهم يبحثون، كلّما عادوا من مدارسهم، على اللوح الإلكتروني جديد الصور التي ينشرها لي من صاروا يصنّفون كمتعاطفين، والتي أخذوها لي رفقتهم أو رفقة أحد معارفهم، صارت جدّ منزعجة من أمرها، بل ومن أمر المعجبين، كما صارت تنعتهم، برمّته. والسبب الحقيقي من انزعاجها ذلك، هو كون نسبة كبيرة من تلك الصور كنت أظهر فيها رفقة نساء وفتيات. أبتسم بعفوية، ثمّ أفسّر لها أنّ المسألة متعلّقة

بتعاطفهن مع قضيّتي. لكنّها تتجاهل هذا التفسير، وتنفعل في وجهي وهي تشير إلى تلك الصور على اللوح الإلكتروني في يدها:

- أجل يا سيّدي. أنظر إلى هذه المتعاطفة مع قضيتك، المحجّبة يا حسرة، والتي تجلس ملصقة كتفها بكتفك، ماذا كتبت فوق الصورة: «هذا بطلي الدكتور...» زفت، وانظر إلى هذه الباربي الشقراء ماذا كتبت: «اسمعن يا بنات! أنا لن أتزوّج إلّا برجل مثل الدكتور عمر: مثقّف ولبق وإنساني ووسيم أيضا.» ثم تختم ذلك برسم قلب وقبلة حمراء...

- هذا هو حال بنات الفايسبوك. أردّ بهدوء. حتّى وإن لم يأخذن صورا معي كنّ سيعثرن على صوري في مكان آخر ويكتبن عنها ما يشأن.

- آآآآه. الرجل، الدكتور المثقّف المحترم، صار يعرف كيف تفكّر بنات الفايسبوك، بل وأضحى مدافعا عن تصرّفاتهن. ألا تخجل من أبنائك حين يرون مثل هذه الصور ويقرؤون مثل هذا الكلام المنحطّ؟ ألا تخجل من شيبتك يا رجل؟ إنّك على أبواب التقاعد. أنسيت؟

- كنت على أبواب التقاعد، لكن بعد مشروع الإصلاح اللعين لم أعد. أردّ ضاحكا.

- لا تغيّر الموضوع يا عمر. أنا لست في مزاج للتنكيت. يجب أن توقف هذه المهزلة؟

- كيف؟

- على الأقلّ لا تسمح للمزيد منهنّ بأخذ صور معك.

كيف؟ هكذا رحت أتساءل بعيدا عن آذان فتيحة، زوجتي. أجل، كيف؟ كيف أمنعهن حين يطلبن منّي ذلك، وهن الراغبات في فعل ذلك تعاطفا معي؟ بينما أنا في المقابل سأوافق على أن يأخذ الذكور صورا رفقتي، بل أيضا بابتسامة مرسومة على وجهي؟ كيف؟ إن تصرّفت وفق هذا الشكل

التمييزي لن أعلم كيف سيكون ردّ هؤلاء النسوة. ثمّ إن بعضهن ناشطات حقوقيات مهتمّات بالدفاع عن قضايا المرأة. ومزاجية النساء قد تجعلهن ينقلبن ضدّي هكذا ببساطة، فيتحوّل تعاطفهن ومساندتهنّ لقضيّتي إلى سخط وانتقاد لمواقفي تجاه المرأة. أجل، سيجعلن الأمر هكذا. بل إنّهن قد يبلغن إلى حدّ وصفي بالمعقّد أو الرجعيّ. أجل، فكلّ هذه التأويلات تبقى واردة. فهل أخبر فتيحة عن خطورة إقدامي على مقترحها بالامتناع عن أخذ صور معهن؟ وهل ستستطيع هي الإنصات إليّ حتى النهاية؟ إنّها تستقبلني كلّ يوم عارضة شاشة اللوح الإلكتروني أمام وجهي، تكرّر نفس الملاحظات. بينما أنا أقسم لها أنّي امتنعت اليوم عن أخذ صور جديدة، سواء مع الذكور أو مع الإناث، لأنّي ببساطة غادرت مبنى المندوبيّة قبل وقت الانصراف المعتاد حتّى أتجنّب احتمال تربّص بعضهن بي عند الباب. واعتزلت الجلوس في المقاهي لنفس الغرض أيضا. فتتوقّف عن اللغو حين يشفي تكرار قسمي غليلها، ثمّ تحرّر بسمة عريضة، قبل أن تطلب منّي غسل يديّ لتناول الطعام.

لكن، إلى متى سأستمرّ في فراري هذا؟ ثمّ خروجي المستمرّ قبل الوقت من العمل قد يفتح الباب أمام مشاكل أخرى، لاسيّما وأنّي لازلت في وضعيّة حسّاسة؟

– خذ إجازة! هكذا ردّ صديقي إبراهيم، الموظّف بإدارة العمالة، على حيرتي، ونحن جالسان نحتسي الشاي بمقهى قرب بيته بحيّ المسيرة.

– يعني أسافر؟ الأبناء في دراسة.

– لا، ليس بالضرورة أن تسافر. امكث بالبيت لأسبوعين حتّى يهدأ الموضوع.

– لكنّك تعلم، سأحتاج للخروج إلى المقاهي. وكثير منهم يجيء بحثا عنّي هناك.

- بسيطة. تحاشى الجلوس بمقاهيك المعتادة. اذهب إلى أحياء بعيدة. خذ السيارة واشرب قهوتك بالهرهورة أو بالمدينة (وسط مدينة الرباط)، مثلا.

- والله معك حقّ. وهل تعتقد أنّ أسبوعين كافيين ليتركني الناس وشأني؟

- جرّب إذن، لتعلم!

عبد الإله المنصوري ونادية

(8)

شهريار يحكي...

في كثير من المرّات تبلغني حكاية برواية أولى، فأتناولها كطبق رئيسي، ثمّ يحدث أن أتلقّى رواية جديدة لها، بعد زمن ربما، فأكتشف أنّي لم أكن أرى من الجبل الجليدي المنتصب في المحيط غير الجزء الظاهر فوق الماء، بينما ما خفي كان أعظم.

لقد كنت على علم مسبق، قبل الحادثة، بمغامرات عبد الإله المنصوري وأصحابه مع الفتيات وبائعات الهوى. وقد أخبرني أيضا أحدهم بأمر الشقّة في حيّ الفتح. عبد الإله الموظّف بإحدى إدارات وزارة الفلاحة بالرباط، والقاطن بإحدى الإقامات في نهاية نفس الشارع حيث يتواجد صالوني، والذي كان غالبا ما يقصدني من أجل حلاقة الرأس أو الذقن، لم يسبق له أن قال شيئا عن الأمر. وهذا ما أعتبره عاديا. فالرجل متزوّج، ولديه سمعة محترمة بالحيّ، وأيّ حديث مشبوه في صالون جلّ روّاده من ساكنة المنطقة، سيكون كالخروج من حمّام الريصاني (حمّام بلديّ في نفس الشارع، شارع ابن خلدون) عاريا، بالتبّان فقط. لكنّه بعيدا عن

ذلك الموضوع، كان يتحدّث في أمور أخرى كثيرة. يبدؤها بالحديث عن أبنائه، مرورا بالحي والمدينة، وصولا إلى الحديث عن أحوال البلد. وكان ينتقد الحكومة كثيرا، لاسيما قراراتها رفع سنّ تقاعد الموظّفين، وزيادة اقتطاعات جديدة على الأجرة من أجل إصلاح صندوق التقاعد، ومعاقبتها لكلّ مُضرب عن العمل بالاقتطاع من راتبه الشهري... وقد كان يعرف أنّ أشرف يكتب بالجرائد، لذلك كان يلحّ عليه أن يتناول في مقالاته هذه الأمور.

– هيّا يا أخي، هذه مواضيع تهمّ المواطن البسيط، وسأزيدك، التعليم والصحة والعدل... أليست هذه أسسا لبناء وطن سويّ؟ إذن فاكتب يا أخي... اشف بعض غليلنا! وأنا أمامك نموذج لمواطن مستاء، اجر معي إن شئت حوارا وانشره، سأفضفض لك بكلّ ما يعتمل داخلي. لكن دون أن تكشف هويّتي (يضحك)، فلسنا ندري من سيقرأ مقالك هذا.

وأنا حين علمت بأمر مغامراته، أدركت أنّ تصوّراتنا عن بعض الناس تكون واهية، وأنّ الحقائق تعرض في أماكن أخر، أقبية معتمة، لا تبلغها أنوار قناديل علمنا. فأنا توّجت عبد الإله برزانته وجدّيته وانتقاده الموضوعي اللاذع للأشياء السيئة المحيطة بنا، لا سيما في الحيّ، كنموذج للرجل المستقيم، المتواضع مع أهل الحيّ، الموظّف المحترم، ربّ الأسرة الذي يسعى إلى تعليم أبنائه وتربيتهم تربية سليمة... إلخ. رجل تحبّ أن تجالسه وتنصت له وتحاكيه. ثمّ فجأة، وأمام عينيّ، هوى ذلك التاج الزجاجي عن رأسه شظايا على الأرض.

– يا أخي تلك تصرّفات عادية، قال لي حمزة، أنت الذي تعقّد الأشياء في رأسك.

– لكنّه كان يبدو رجلا محترما، أقصد ظاهريّا. متزوّج، لديه أبناء، وحديثه معنا ومع الجيران دائما نظيف ومهذّب...

– يا صديقي، كثير هم الأزواج، أرباب الأسر، المحترمون ظاهريا كما تقول، الذين تجد لديهم عشيقة على الأقلّ. هذا وارد الحدوث. ليس في مجتمعنا فحسب، بل في العالم كلّه.

شعرت أنّي مغفّل أو متغافل، وحمزة يفسّر لي أشياء أنا دائما ما أسمع عنها عبر الحكايات التي يرويها على مسامعي الزائرون.

– أعلم. أعلم. بل أعرف كثيرا من القصص الحقيقية عن مثل هكذا أمور. لكن، ليس أن تتعلّق بشخص لديك عنه حكم مسبق طيّب.

الرواية الأولى عن حكاية عبد الإله انتهت هنا. عند حواري هذا مع حمزة. ثمّ وقعت الحادثة التي أكّدت لي ما جاء في الرواية الأولى وكشفت عن رواية ثانية، وهي المتعلّقة بقصّة خليلته السابقة أيّام دراسته بالجامعة، نادية، التي عاد للّقاء بها من جديد، وخوض مغامرات أكثر نضجا معها، ليس على شكل مغامراته الأولى العابرة مع هؤلاء الفتيات وبنات الطريق.

إثر ذلك انكشفت علاقته معها، وانفضح أيضا أمر شقّة حيّ الفتح. وعلم أناس الحيّ، وعائلته وعائلة زوجته بما كان مخفيّا. فمحاضر الشرطة التي وثّقت الفضيحة وتابعتها بالتحقيقات كانت الدليل القاطع على ما كان يقترفه عبد الإله وأصحابه.

ثمّ مثل عبد الإله وزوجته أمام قاضي الأسرة بعد أن أرغمته على تطليقها والتخلّي عن حضانة الأبناء مهما كان، حتّى وإن تزوّجت هي، مقابل أن تتنازل له قضائيا عن قضيّة الخيانة الزوجيّة، ومن ثمّة لا يفقد هو وظيفته ولا يعكّر بياض سجلّه العدلي.

الرواية الثالثة، جاءت متأخّرة عن الروايتين الأولتين. ولم أكن أتوقّع سماعها، لسبب واحد، هو أنّ عبد الإله هو من سردها بلسانه على مسامعي. حدث ذلك بعد أن طلّق زوجته التي لم تستجب بتاتا لاستعطافاته وتوسّلاته، وظلّت تهدّده بعدم التنازل عن دعوى الخيانة الزوجية إن لم ينفّذ طلباتها. وكان حكيه لي عمّا قام به من تصرّفات عابثة

وغير مسؤولة بمثابة، اعتراف منه بكلّ ما راج عنه في الفترات السابقة. وكان عليّ وأنا أنصت لفضفضته تلك، التي تختلط فيها الحسرة الشديدة، بحسّ المغامرة، أن أربط بين ما يقول وبين ما يُحكى. رواية أولى، وثانية، وثالثة، وكلام متفرّق من عند هذا وذاك، جمعت كلّ ذلك في ذاكرتي، وألّفت به في ذهني حكاية عنه، عن عبد الإله المنصوري ونادية.

حكاية الأستاذ عبد الرحمن فالح

(2)

الأستاذ عبد الرحمن يحكي...

واصلت عملي وفريق المجلس في صمت. وكنت أرى الوجوم يسطو على وجوههم، لكنّهم كانوا يواصلون سلك الطريق معي، رغم الضباب والمطبّات الإسفلتية. لكنّي كنت أعرف أنّهم لن يقدروا على السير عبر هذا الطريق أكثر من رحلتهم هذه معي. فظللت تلك الشهور المتبقية أفكّر فيما ستحلمه الأيّام لي؟ فأنا لم أكن متقبّلا لفكرة الانهيار الوشيك. وشعرت أنّي عند الانطلاقة الجديدة سأكون وحيدا. فالناس أضحوا ينظرون إليّ بريبة، ولا بوادر دعم تتجلّى لي على وجوههم أو في أصواتهم. رفاقي في المجلس سيركضون بعيدا عن أفكاري. وأصحاب النفوذ هنا لن يدعوني أشتغل كما أحبّ. ورجال السلطة يقولون ألّا ضمانات جديدة سيقدّمونها لحمايتي من تهديدات محتملة. لذلك، قرّرت أن أكون واقعيا ودون تهوّر. فبدل الدخول في مواجهة أصحاب النفوذ مرّة أخرى أو الاستسلام لهم، لم لا أسلك حلّا وسطا يرضيني ويرضيهم، فأخدم أنا مصالح البلدة وأحافظ في نفس الآن على مصالحهم؟

انقضت فترة ولاية المجلس. ترشّحت من جديد في دائرتي وفزت.

تعجّبت لتحقيقي ذلك. لكنّي هذه المرة لم أجد من يؤازرني لتشكيل المجلس. تراجعت إلى الخلف وتركتهم يشكّلونه من دوني. مكثت زمنا طويلا أتنقّل بين الثانوية والبيت. لم أكن وقتها قد عدت أفكّر في شيء.

ثمّ اشتاط تلاميذي القدامى والجدد وبعض الغيورين على البلدة غضبا حين رأوا أن أحوالها لم تعد تسرّ. فالحدائق دون عناية، والمصابيح دون إنارة، والشوارع دون نظافة، والفوضى صارت تعمّ الأسواق والأحياء. فطالبوني للتدخل لفعل شيء. قالوا ذلك بثقة وهم يوارون أو يطردون حقيقة علمهم أنّي لن أستطيع فعل شيء وأنا خارج مجلس البلديّة. لكن في أعماق عقلي كانت بنات أفكار ترقص على نور قناديل ملوّنة. تركتها ترقص على نفس الإيقاع لأيّام. فتحت شبكة بعض معارفي. طلبت مشورتهم ودعمهم. ثمّ عدت لقطف أفكاري، والتي وجدتها قد نضجت وأينعت، فوضعتها في ترتيب سليم، وتسلسل منيع. جلست مع هؤلاء الغيورين الغاضبين وأعلنت لهم أنّي سأنشئ جمعية هدفها الأسمى جعل البلدة ترتدي حلّتها البهيّة مرّة أخرى.

مع الحزب، ظللت مهتمّا بحضور التجمعات، والقيام بالمداخلات، ونشر المقالات على الجرائد. هل كنت أنتظر ولاية انتخابية جديدة للرجوع إلى مجلس البلدية؟ لا، بكلّ تأكيد لا. فقناعاتي انتهت إلى أنّ الدور الذي صارت تقوم به جمعيّتنا وباقي الجمعيات المشتغلة تحت عباءة أفكارنا هو أنجع سبيل لجعل البلدة تنهض من جديد. لقد صرنا نقابل الناس عن كثب، ننصت لهم، وينصتون لنا، نتجاوب معهم ويتفاعلون معنا. اهتممنا بنظافة البلدة وجعلنا الساكنة يحرصون على ذلك أيضا. جعلنا الحدائق الشاحبة تستعيد عافيتها، والطرقات التي تنزف سواد المجاري تكفّ نزيفها. زرعنا الأشجار على طول أرصفة الشوارع، ووضعنا حاويات قمامة في الأحياء. جمعنا الصنّاع العاطلين والشباب المتسكّعين اليائسين ضمن دورات توجيه وتحفيز، ثمّ أدمجناهم ضمن

تعاونيات ومشاريع صغيرة مدرّة للدخل. نظّمنا أسابيع ثقافية وأحيينا موروثات المنطقة عبر معارض واستعراضات. أنشأنا فريق كرة قدم جديد يمثّل البلدة والضواحي، أقمنا دوريات أحياء ومؤسّسات، ونظّمنا مارطونات وسباقات. فتحنا دار الشباب أمام الجميع، وجهّزنا دار الثقافة بمكتبة منتقاة. زرنا المؤسسات التعليمية ودار الرعاية، أقمنا بها عروضا فنّية وأمسيات ثقافيّة.

راح بعض أثرياء المنطقة يدعمون خزانة جمعياتنا التي كانت قد انضوت تحت راية تنسيقية موحّدة، بل إنّ كثيرا من السكان استجابوا لمبادرة من بعض شباب الأحياء بدعم ما سمّوه صندوق الغيورين على البلدة والذي يعتبر قناة وصل بين تبرّعات السكان والتنسيقية. وأنا لن أنكر أنّ الحزب كان له دوره في إنعاش ميزانيتنا عبر تدخلّات قويّة سهّلت لنا الحصول على دعم من الدولة ومنظّمات أخرى.

راحت البلدة تقوم تدريجيا من سباتها الطويل، وكانت ابتسامتها تزداد إشراقا كلّما حصل لها شيء جديد جميل. وأنا أيضا غمرني شعور كَوْنِيّ بالسرور أوصلني إلى اختزال معنى الوجود في هذا المكان، الذي بدا لي ما يطرأ له كشتلة غرستها وحرصت على سقيها ورعايتها حتّى رأيتها تتحوّل إلى شجرة تؤتي أكلها. حتّى قوى السلطة بالبلدة: وكيل الملك، والباشا، ورئيس الدائرة... عبّروا عن امتنانهم وسعادتهم بما أحدثناه في البلدة من ثورة تنموية على حدّ وصف أحدهم. ونظّموا لتأكيد ذلك حفل تكريم كبير لنا، ونصّبونا بحكم مناصبهم مسموعة الكلمة أبطالا للبلدة. ولم يفت لوكيل الملك أن يهمس في أذني:

– أنت رجل ذكيّ. عرفت كيف تصل إلى مبتغاك بعد أن أغلقت في وجهك السبل.

مبتغاي؟ تلك كلمة لم تعجبني، لأنّها دائما ما ارتبطت عندي بأهداف

فردية ومصالح. أمّا ما سعيت له أنا فكان أن أعمل على ما أؤمن به وأجعل الناس يقتنعون به أيضا.

في فترة السطوع هذه، كان ميعاد انتخابات تشريعية يلوح في الأفق. ووجدتني أعود لالتزاماتي الحزبية. وكنت أتهيّأ بشكل جدّي لدعم مرشّحنا المحتمل في المنطقة، بل فتحت باب مقرّ فرع الحزب المنسيّ بالبلدة، ودعوت الشباب المهتم بالسياسة إلى الانخراط معنا وفتحت لهم المجال لتأسيس شبيبية للحزب بالبلدة.

وعند اقتراب موعد الإدلاء بأسماء المرشحين استدعاني مسؤولو الحزب الكبار، ظننت في البداية أنّهم يودّون تعريفي بمرشّح الحزب بالدائرة الانتخابية التي تتبع لها البلدة، لكنّهم فاجأوني حين اقترحوني أنا لهذا الأمر. لم أكن مستعدّا ولا راغبا صراحة، لا سيما بعد تجربتي في المجلس البلدي. عدت أدراجي إلى البلدة، فوجدت أن الخبر كان قد سبقني. اجتمع أهل البلدة على رأي واحد، وهو ترشّحي. الساكنة، الأعضاء في الجمعيات، زملائي في التعليم، موظّفو البلدية والمقاطعات والمحكمة والمستشفى، و... و...، الباعة والفلّاحون والعمّال، وكبار رجال سلطة البلدة أيضا. كلّ هؤلاء رفعوا رايات مساندتهم لي للترشّح.

كنت أدرك تمام الإدراك أنّ دخول قبّة البرلمان ليس بالأمر الهيّن، لا سيما أن الدائرة والمنطقة على وجه العموم محكومة بسلطة أصحاب المال والنفوذ. فالذين يمثلونها بالبرلمان يحافظون على احتكارهم لذلك بقوّة نفوذهم وشراء أصوات الناخبين وتخدير عقولهم وتضليلهم. فالطابع البدوي هو الغالب على المنطقة ما يجعل جلّ سكان بلداتها وقراها وبواديها منصرفين عن التفكير فيمن يمثّلهم؟ ولم يمثّلهم؟ وكيف يمثّلهم؟ بل لا يشغلون راحة بالهم حتّى بالتفكير في مشاكل المنطقة واحتياجاتها ومستقبلها ومستقبل أبنائهم.

وفي المقابل كنت أعي أنّ دخولي إلى البرلمان سيضع بيدي المفتاح

السحري الذي بواسطته أستطيع فتح الأبواب الشاهقة التي استعصت عليّ من قبل، وبدل الانزواء في العمل الجمعوي وأنشطته التطوعية بين أسوار البلدة، سأكون قادرا على فرض كلمتي في المنطقة كلّها، على المجالس الجماعية وعلى السلطات وعلى عصابات أصحاب النفوذ أيضا. ومن ثمّة سيكون بوسعي تحقيق كلّ ما صبوت إليه من قبل وبأيسر الوسائل والطرق.

وافقت إذن في النهاية على دخول تجربة الترشح للبرلمان. رفعت شعار التغيير أثناء الحملة التي ساندني فيها أناس كثر من أبناء البلدة. كانوا سعداء بتواجدهم رفقتي وأنا أجوب رفقة قافلة الحزب مختلف بلدات وقرى ودواوير المنطقة. كانوا متطوعين في ذلك، مثلما يتطوّعون للعمل رفقتي بأنشطة الجمعية بالبلدة وضواحيها. بينما كان عدد قليل من سكان باقي المنطقة يحضرون لتجمعاتي الخطابية. فقد كنت أبدو للقرويّين والبدو هناك بلباسي المدنيّ الأنيق، رجلا غريبا عنهم، يتفوّه بكلام غير مفهوم، بلغة أهل المدارس والتلفاز المتجاوزة لمدى استيعابهم.

حكاية أشرف

(4)

أشرف يحكي...

«مفارقات، تناقضات». لكم ستصير هاتان الكلمتان ملازمتين لي، ولكم سيضحي لساني متشبّثا بهما إلى حدّ تفضيلهما على سائر أدوات التعبير المتاحة وغير المتاحة. وفي البداية، ستعطيني الحياة دروسا في مفارقاتها وتناقضات الإنسان الذي يعيش إلى جواري في هذا الوطن. وطن سيصير بالنسبة لي هو المفردة الأنسب لتركيب جملة مفيدة مبتدؤها أو خبرها إحدى هاتين الكلمتين.

وقبل ذلك، هناك حكاية عشقي لمريم التي انتهت بحزن عشعش في العمق، وهناك دراستي في معهد للتكوين المهني، وتخرّجي منه بدبلوم تقني متخصص في تسيير المقاولات، وهناك مقالاتي التي يقول كلّ من قرأها أنّها جيّدة، لكن ولا جريدة واحدة استجابت لطلباتي الملحّة على النشر، وهناك...، وهناك...، ثم هناك هذا العمل الذي عثر عليه لي عمّي، في محاولة منه وأبي انتشالي من حفرة الإحباط...

فبعد أسبوعين فقط عن مكالمة عمّي يبشّر أبي أنّه قد عثر لي على «شيء»، كنت أنا قد التحقت بعملي الجديد، أو بالأحرى عملي الأوّل.

هو عمل سهل، لكنّه غريب. ببساطة هناك شركة في الدار البيضاء تشتغل على توزيع مختلف تجهيزات المقاهي والمطاعم، من كراسي وطاولات ومناديل وستائر، بل وحتّى بعض الأصناف من الأواني.

الشركة كبيرة ومشهورة على الصعيد المحليّ، وملّاكها يطمحون باستمرار للتوسّع على نطاق يتجاوز حدود الدار البيضاء وضواحيها والمدن القريبة. وفي عمليّات نقلهم للبضاعة وتوزيعها يستخدمون شاحنات صغيرة الحجم وكبيرة أيضا. كلّ فريق عمل يخرج مع الشاحنة هو مكوّن من السائق وعامل أو عاملين ومراقب، هذا الأخير هو الذي يسيّر عمليّة التوزيع ويراقب مرحلة الشحن والتفريغ ويجمع التوقيعات والملاحظات من عند الزبائن المستلمين.

المراقب الذي يشتغل على خطّ تمارة – الرباط – سلا، سينتقل بعد شهر أو أقلّ للعمل بخطّ آخر جديد وأطول، يتطلّب خبرة أكبر. لذلك، فأنا، التقنيّ المتخصّص في تسيير المقاولات، والطامح ليصير صحفيّا، أو بالأحرى كاتب مقالات رسميّ بجريدة ما، هو الذي سيشغل منصب المراقب الجديد في شاحنة التوزيع على خطّ العاصمة وضواحيها.

عند لقائي الأول بمُشغّلي بإدارة الشركة بعين السبع بالدار البيضاء، شرحوا لي أنّ الشاحنة في أيّام التوزيع ستدخل تمارة على الساعة السابعة صباحا، ستقلّني أنا من مكان يتمّ الاتفاق عليه مسبقا، لنبدأ مباشرة عملية التوزيع في تمارة، ثمّ الرباط، فسلا، ثمّ إنزالي في رحلة الرجوع بتمارة. والأسابيع المتبقّية للمراقب السابق قبل انتقاله إلى خطّه الجديد، هي فترة تدريب بالنسبة لي، لأنّه هو من سيقوم بتأطيري حتّى أستوعب كيفيّة العمل وتفاصيله.

ألفان وخمسمئة درهم هو راتب الانطلاق. هذه الأجرة اليوم هي شيء تحت الحضيض، لا سيما في مدينة كبيرة مرتفعة التكاليف، لكنّها قبل

عشر سنوات، بالنسبة لفتى في مقتبل العشرينات، يأخذ مصروف جيبه من والده، كانت عرضا مغريا.

المال يدغدغ مشاعر الإنسان. وأنا قبلت العمل ليس من أجل المال فقط. لقد أمضيت عاما خارج مجرّة الحياة، وتلك نظرة أبي تلاحقني بحسرة وأسف، وزملائي في التكوين وغيرهم تصلني أخبار بعضهم الذين وجدوا عملا، أو يُجرون تدريبا، أو يُكملون دراستهم هنا أو بالخارج. شعرت بذلك -أنّي أحلّق بعيدا عن مسار السرب الذي يتقدّم في الحياة - في اللحظة التي توقّفت فيها عن الكتابة. كان زمنا مظلما، مقفرا، وكنت أترقّب بداية الموسم المقبل لأعلن رجوعي إلى الحياة، رغم أنّي لم أكن أعرف كيف سأقوم بهذا الإقبال. لكن، وقبل ذلك، جاء عمّي ونفضني من تحت الرماد.

أوّل راتب أتلقّاه...ورقة مئة درهم على ورقة مئة درهم. لو سلّمني إيّاه المحاسب على شكل أواق مئتي درهم لما بدا بتلك الفخامة بين أنامل يدي. في تلك اللحظة وأنا أطبق يدي على تلك الرزمة الصغيرة وأدسّها في جيب سروالي الأمامي بحرص وتأمين، دغدغ المال مشاعري.

هل ستكون نفس الدغدغة لو كان هذا المبلغ عن مقالات لي تنشر على صفحات جريدة؟ تساءلت وأنا أتجاوز عتبة دارنا ذلك اليوم وقد ازداد الشعور اللذيذ سيلانا بصدري. أم أن ذلك يتبدّل حسب طبيعة العمل وعلاقته بالشخص العامل؟ هل للمال مذاقات أخرى غير هذا الطعم الذي يملأ حلقي ولساني ولهاتي وشفتيّ؟ وما هذا الإحساس الآخر الذي يثبّتني في الأرض، كأنّي صرح أثري عتيق ينجذب كلّ الناس لأخذ صور معه؟ بجيبي مال، إذن فأنا موجود... دع مسألة «أنا أفكّر» الآن جانبا! فأنا أستطيع بهذا المبلغ قضاء ليلة مع عشاء فخم في أفخر فنادق العاصمة. هل يستطيع أن يمنعني أحد؟ هل سيقول موظّف الاستقبال مثلا في الفندق:

عفوا سيّدي نحن لا نستقبل العاملين في الشاحنات؟ هل يستطيع التفوّه بذلك أو حتى التفكير فيه؟ نحن سواسية إذن، إذا ما ساوانا المال.

أنا اليوم أتغيّر فعلا. أرفع علمي الخاصّ معلنا الاستقلال عن التبعيّة لجيب والدي. بل وألج الدار محمّلا بأكياس تحوي ما أظنّه أشياء تنفع: لحم، وسمك. فواكه وحلويات. بيجامة لأمّي وقميص لأبي. حذاء رياضيّ وكرة قدم لأخي. حذاءان لأختيّ... لقد سعدوا جميعا بهداياي. حتّى أبي، الذي ظننته لن يلقي اهتماما للقميص، ارتداه فور فتحه للكيس، ووقف أمام المرآة يستطلع شكله عليه. الآن يصحّ قوله الذي لطالما ردّده على مسامعي: «أنت رجل البيت في غيابي!». لكن ما صار يردّده منذ تلك الفترة وصاعدا هو: «لهذا أردتك أن تعمل أوّلا. الآن، اكتب مقالاتك وأنت تطلّ من فوق السحاب!».

هل كنت راضيا؟ قابلا بذلك العمل، إذا ما قارنت نفسي بما يشتغله زملاء دراستي المحظوظون؟ علمت أنّ بعضهم يشتغل في مراكز للنداء بأربعة آلاف درهم، وحتى الخمسة آلاف، أي ضعف ما أقبض أنا. وآخرون يعملون في وكالات بنكيّة، ويرتدون ملابس كلاس أنيقة بربطة عنق. ماذا لو قابلني أحد هؤلاء أو أولئك نازلا من شاحنة السلع أرتدي إضافة للقميص الأبيض المتهدّل وسروال الجينز الأزرق الباهت والحذاء الرياضي العريض، جيلي (سترة خفيفة بدون أكمام مفتوحا من الأمام) رمادي اللون، مطبوعا على ظهره شعار الشركة وعنوانها ورقم هاتفها وفاكسها؟ وفوق رأسي تنتصب قبّعة شمسية خضراء تحمل نفس الشعار؟ أم أنّ هذا لا يهم، ما دمنا جميعا نعود آخر الشهر والمال يدغدغ مشاعرنا؟

بعد مرور أشهر في العمل، وجدتني قد ذبت في تفاصيله حدّ النسيان. نسيت نفسي، ما كنته من قبل. نسيت الكوكب البعيد الذي كنت قد غادرته ذات إحباط عميق، حيث تركت على سطحه حلما قديما تذروه زوابع لا تأتي بخير أو حتّى بأثر حياة. وما دامت مركبتي قد حطّت بكوكب جديد،

به ناس وحياة، فإنّ الصواب كان هو ما وافقته غريزة البقاء ومشاعر الرضا والسرور. لذلك فقد انغمست في نهره الجاري حتّى الأذنين.

لم تكن الشاحنة تقوم بالتوزيع كلّ يوم، لكنّها حين لا تأتي إلى هنا فهي كانت تذهب نحو خطّ مغاير، وفي المقابل فقد كان سائق آخر يأتيني في سيارة متوسّطة الحجم في نفس التوقيت، لنقوم بجولة جمع الطلبيات الجديدة وما تبقّى من أوراق تسليم سابق ومبالغ. وحين لا تجيء لا الشاحنة ولا السيارة، فقد كنت أحصل على يوم عطلة مجاني. وهو يوم للتسكع وتبذير المال والتأنّق ومطاردة الفتيات.

هكذا عدت إلى العبث من جديد. كنت أحسّني بلا مسؤوليات، بلا أحمال تثقل كاهلي. العمل سلسل بسيط. والمال هو في النهاية ملك لجيبي، دون مصاريف سكن أو مأكل أو فواتير استهلاك. ففي البيت، لم أكن أنا ملزما بشيء، يكفي أن أدخل ببعض الأكياس مرّة أو مرتين في الشهر حتّى أبدو في صورة مُفرح العائلة بهداياه. وهو أمر كان يبهجني أنا أيضا.

كان عليّ أن أنتظر مرور عام وأكثر حتّى يعود الماضي ليتداخل مع الحاضر، فيعيدني أنا كما كنته لذاتي. لقد كان يكفي أن تصحو ذاكرتي ذات يوم بلا رحمة ولا شفقة، لتنفض الغبار عن الأشياء القديمة: ترمي بمقالاتي المنسيّة فوق طاولتي، وبحلم طفولتي أمام عينيّ، وبحكاية عشقي لمريم على وجهي. أجل، لقد صفعتني الذكريات فأيقظتني من نعستي، ودقّ قلبي يُعلن انبعاث روحي من رمادها. ارتعشت يداي وقد فار الدم ساخنا عبر شراييني. فمن أين أبدأ؟ أأتناول جريدة فألتهمها كما كنت أفعل؟ أم أهيم بخيالي في كتاب – رواية –، أمحّص في تفاصيله دون كلل أو ملل؟ أم أتناول دفترا جديدا فأرسم أفكاري مقالة على صفحاته العذارى؟ أم أنقش وجع قلبي على ورقة بيضاء أبدؤها بكلمة «مريم»؟

المهم أنّي عدت إلى نفسي. من أيّ باب دخلت أوّلا على وجه الدقّة؟ هذا لا يهمّ بتاتا.

بعد الرجوع إذن، انتظم وقت الفراغ لديّ وتوزّع بين الأمرين الأهمّ: المطالعة (جرائد وطنيّة، مجلّات ثقافية، كتب أدبيّة)، ومحاولات الكتابة. كنت أفيق في صباحات يوم العطل بعد تُخمة نوم عقب سهر، أحمل تحت إبطي دفترا وقلما، في وجهة إلى مقهى يغمره الهدوء ويحفّ جنباته السكون. هناك أمضي ما بين الساعتين أو الثلاث في الكتابة. عصرا، أستلقي في الصالون أطالع كتابا أو أجلس وسط الدار أقرأ في جريدة أو مجلّة، والمساء هو لمشاهدة برنامج أو فيلم على التلفاز هذا إن وجدت فرصة بين انكباب أبي وأختاي على مشاهدة برامجهم أيضا في ذلك الوقت من اليوم.

كانت كتابة مقالة واحدة ونقرها على الحاسوب ثمّ بعثها، يتطلّب منّي أسبوعين أو أكثر. وكنت أدرك أنّ مهاراتي في الكتابة قد تراجعت عقب فترة الركود، وأيضا أفكاري صارت متضاربة بسبب بعدي عن القراءة. أبعث المقالة إلى جريدتين أو أكثر، ثمّ أتجاهل الأمر. أكتب من جديد وأبعث من جديد، وأتجاهل. ما كان يهمّني في تلك الفترة هو البقاء متّصلا بعالمي الخاصّ ما استطعت، لأنّ وقتي لم يعد كما كان كلّه ملكا لي، أمّا النتائج السلبية التي أنا متعوّد عليها فإنّها لم تعد تضرّني الآن بشيء.

لم يستمرّ هذا الأمر وفق هذا الشكل إلّا شهورا قليلة. فملّاك الشركة التي أشتغل بها ليست لطموحاتهم التوسّعية حدود. لقد عزموا فتح فرع جديد بديور الجامع بالرباط، والهدف هو كسب زبائن جدد وتقريب الخدمات من الزبائن القدامى، والإسراع في تنفيذ الطلبات. علّق أبي على ذلك بحزم قائلا:

– إنّه «البزنس». المال والأعمال.

مهمّتي كمراقب بالشاحنة لم يعد لها دور الآن حسب ما شيع من أخبار. لأنّهم سيستبدلون الشاحنة الكبرى بأخرى صغرى. والتوزيع سيصير مباشرا إلى زبون واحد، دون اللفّ على كثير منهم عبر المدن الثلاث.

وكثرة الإجراءات والحسابات لم تعد مهمّة الآن، إذ يكفي أن يوقّع الزبون على الاستلام، أمّا الدفع أو الباقي منه فسيتمّ في إدارة الفرع. تساءلت: هل يمكن أن يتمّ تحويلي للعمل بمخزن الفرع؟

بعد أسابيع قليلة عن نشر خبر فتح نقطة للتوزيع بالرباط، توقّفت شاحنتي عن أداء مهمّتها. إذ راحت تنقل السلع من الدار البيضاء نحو المخزن الجديد بالرباط. وتملّكتني مخاوف من أن يكون الاستغناء عن خدماتي بشكل تامّ وارد الحدوث. مضى أسبوع دون أن أشتغل. انتهت مهمّة الشاحنة في نقل السلع. ودخل الأسبوع الثاني. واستوعبت أنّ خط تمارة - الرباط - سلا، الذي كنت أشتغل به لم يعد له وجود. ازدادت مخاوفي. والعمال الذين كانوا رفقتي استلموا الشاحنة الصغيرة، وهم قاعدون بالمخزن الجديد ينتظرون أن تفتح الإدارة أبوابها أمام الطلبات.

في آخر أيام ذلك الأسبوع تلقّيت اتصالا من أحد المسؤولين بالإدارة، يخبرني بضرورة الحضور يوم الإثنين القادم لمقابلته بمبنى فرع الرباط. وكأنّه يهمس لي عبر الهاتف ختم كلامه قائلا: لا تأتي ببذلة العمل. ارتدي شيئا أنيقا.

سألت أبي ماذا يقصد بشيء أنيق؟ أجاب أبي دون أن يرفع عينه عن الجريدة المفتوحة أسفل وجهه: يعني أن ترتدي كلاس. ثم رافعا رأسه عن الصحيفة سأل: أليس لديك بدلة؟ أجبت بالنفي. حسنا. قال. تعال نجرّب بعض بدلاتي!

وعن أيّ بدلات يتحدّث؟ إنها بدلة واحدة. والأخريات التي قصد هي مجرّد سراويل على سترات توافقها في اللون لا غير. ارتديت البدلة الوحيدة. فوجدتها واسعة ومن طراز قديم، أو بالأحرى هي للأكبر سنّا. وقفت داخلها أمام المرآة وأنا أضحك. سألني أبي عمّا يجعل أسناني تظهر؟

أجبته: لا شيء. لكنّه أصرّ على معرفة سبب ضحكي هذا. فقلت وأنا أمسك كرشي في ضحك متواصل: هذه بدلة للشيوخ وليست لشابّ مثلي.

ردّ: إذن فأنا شيخ ما دمت أجدها مناسبة عليّ. قالها ثم شاركني ضحكي بضحكة خافتة. ثمّ قرّر في حزم: إذن نشتري لك واحدة!

قلت: وماذا إذا لم يكن من وراء هذا اللقاء شيء يسرّ؟

فأجاب: لا يهمّ، حتما ستحتاجها في المستقبل.

قلت: إذن على حسابك!

فردّ بمكر: أنا لن أقدّم لك هديّة تجيء وفق هذا الشكل. ربما يوم عرسك، أفاجئك بها. أو؟ قلت. فردّ بنفس عميق: حسنا، أو عندما تشتغل صحفيّا.

صباح يوم الموعد ارتديت البدلة الأولى لي. بخياطة عصريّة ولون لازوردي. أسفلها قميص أبيض بخطوط سوداء رفيعة، وربطة عنق سوداء تقطع لونها الليلي خطوط رماديّة مائلة في تواز. ثمّ حذاء أسود هو الآخر. خرجت من الدار وأنا أرتدي ما يتجاوز نصف راتبي الشهري. على الأقلّ فأبي قد دفع في النهاية ثلاثمئة درهم ثمن الحذاء. تلت أمّي على رأسي آية الكرسي وسورة الإخلاص والمعوّذتين، ثمّ مسحت بيديها بعد أن نفثت فيهما سائر جسدي. وأكّدت عليّ أن أقرأ مثلها ما إن أتجاوز عتبة الدار، درء للعين ووقاية من الحسد.

شعرت بالعرق يتصبّب داخل الملابس الخانقة، وبالحرج الشديد وأنا أسير في حيّنا الشعبي بنوعيّة لباس أرتديها لأوّل مرة. وكانت العيون تلاحقني. من يعرفني من سكّان الحيّ، ومن لا يعرف. أمّا في الحافلة، المتهالكة كأنّها خردة من بقايا زمن الحرب العالمية الثانية، فأنظار الناس ظلّت تلتهمني وأنا واقف وسط الزحام، حتّى لفظتني العربة المترنّحة، كأنّني سمكة لا يزال بزعانفها بلل كثير. عندها تساءلت: كم مرّة قرأت آية الكرسي وسور التعويذ القرآنية كما نصحتني أمّي؟

***

وقفت للحظات أمام البناية حيث لافتة فرع الشركة الجديد. هو عبارة عن طابق سفليّ من عمارة، نصفه أشبه بوكالة خدمات كبيرة بواجهة زجاجية وأرضية زلّيجيّة. أمّا النصف الثاني فهو مدخل شاهق بباب حديديّ رماديّ ذي مصراعين بأقفال كبيرة. غالبا هو مدخل مخزن السلع.

دخلت بحذر وريبة عبر باب الواجهة الزجاجية. تمشّيت قليلا في مساحة فارغة، أترنّح لصعوبة الحركة داخل الملابس الجديدة عليّ، قبل أن أتوقّف أمام منضدة رخامية، خلفها تجلس امرأة بحجاب رأس بنّيّ وبدلة نسائية سترتها برتقالية أمام حاسوب وفاكس وهاتف، ويقف إلى جوارها شابّ بسروال ثوب كلاس أسود وسريدة صوفيّة رماديّة بأزرار. يبدو أصغر منّي بسنتين أو ثلاث. دون مقدّمات سألتها عن السيد مصطفى، المسؤول الذي اتصل بي. فاعترتني الدهشة وهي تسألني:

– هل أنت هو أشرف؟ أجبت أن أجل.

– مرحبا بك سيّد أشرف. وموجّهة كلامها إلى الشاب قالت: افتح له يا إبراهيم.

فتقدّم الفتى نحو الجهة اليسرى من المنضدة وفتح بابا قصيرا:

– تفضل يا سيّدي!

– إنّهما بانتظارك بالمكتب هناك. قالت المرأة مشيرة إلى الداخل خلف ظهرها.

شكرتهما، ثمّ خطوت كما الأوّل مترنّحا عبر مساحة فارغة، في اتجاه غرفة زجاجية تتّضح عبر جدارها ظلال رؤوس وأيادي تتحرّك.

كان الباب مواربا. طرقته بهدوء.

– نعم؟ تفضّل! جاء الصوت من الداخل عاليا واثقا.

تردّدت قليلا وأنا أمسح عرق يديّ على السروال، ثم دفعت الدفّة وتقدّمت. وقف أحد الرجلين الجالسين، مادّا يده يصافحني:

– أهلا بك يا أشرف. أنا مصطفى الذي اتصلت بك. وهذا السيّد ربيع، وهو مدير الموارد البشرية بالشركة. سيّد ربيع هذا أشرف المراقب الذي حدّثتك عنه.

كان الرجلان يبدوان أنيقين لحدّ ما، لكنّ أناقة كلّ واحد منهما تنافر أناقة الآخر. فالسيد مصطفى، وهو يبدو رجلا خمسينيا من وجهه المتقلّص، وشعره الذي خالطه البياض، كان يرتدي بدلة سوداء كالتي عند والدي، تحتها قميص أبيض حليبي، ودون ربطة عنق. أمّا السيد ربيع، وهو أصغر سنّا، في الأربعين أو أكثر بقليل على حسب تقديري، يرتدي سروال جينز أزرق وقميصا فستقيّا بخيوط عموديّة بيض، تنعطف عندما تبلغ كرشه الظاهر قليلا. وجهه أبيض مكتنز، حليق بعناية، ويضع نظارتين طبّيتين. صافحته بلباقة مفتعلة، فابتسم في وجهي طالبا منّي الجلوس.

جلسا هما في صفّ وأنا أمامها في الصفّ المقابل، تفصل بيننا طاولة دائرية سوداء قصيرة، قد وُضعت عليها بعض الملفّات والدفاتر، بينما عن يمينهما مكتب صغير أنيق خلفه كرسيّ دوّار ودولاب رماديّ صغير.

جمع مصطفى يديه أمام ذقنه على شكل مثلّث ثم بدأ الحديث:

– سيّد أشرف لقد عملت معنا لما يربو السنتين، لم ترتكب أخطاء تستحقّ الذكر، ولم نتلقّ ضدك أي شكاية من الزبائن، وحتّى الفريق الذي كان رفقتك أبدى ارتياحه من عمله معك. ثمّ بخلاصة، كان تنظيمك لسير العمل وأداؤك له بشكل دقيق وحريص رائعا.

موجّها نظرته صوب السيد ربيع أكمل قائلا:

– سنجري معك الآن، أنا والسيد ربيع مقابلة مهنية. فهل أنت مستعدّ؟

– أجل. وأرجو أن تجدوني عند حسن ظنّكم.

– جيّد. تفضّل يا سيد ربيع.

ودون مقدّمات انطلق لسان السيد ربيع وبأسلوب رجال الأعمال المتمرّسين:

– لقد أنشأت شركتنا هذا الفرع هنا بالرباط. والهدف هو كسب ثقة إضافيّة من زبائننا القدامى، وأيضا، وهذا هو الأهم، الحظي بزبائن جدد. هذا الفرع سيحتاج إلى من يُشرف على إدارته. وبحكم موقعي كمدير للموارد البشريّة وابن لأحد ملّاك الشركة، ارتأيت أن يكون هذا الشخص الذي سيحظى بهذه المهمّة مميّزا. من حيث الخبرة، التفاني في العمل، الشخصيّة، المظهر، و...، و...، إلخ، وحبّذا لو كان لديه مستوى دراسي معيّن.

فجأة شعرت أنّ الباب الذي عن يميني فُتح، وأنّ موجة من الهواء البارد تلسع أعلى عنقي ووجهي المتّقد، ثم تتسلّل كخيوط جليدية عبر فتحات البدلة، تبرد العرق النازل حمما على جسدي. ثمّ ظهرت عن يساري المرأة التي رأيتها عند المنضدة تضع صينية أو ما شابه على سطح المكتب. وهي تعود أدراجها نهض السيد مصطفى، ووضع كؤوسا من الصينية أمامنا وهو يسألنا ماذا نشرب شايا أم قهوة؟ بلعت ريقي أخيرا الذي تكدّس في مدخل حلقومي منذ أن شرع السيد ربيع في الكلام. قلت: قهوة. السيد ربيع أيضا قال قهوة. السيد مصطفى وضع وسط الطاولة علبة من السكّر وكوبا به ملاعق، ثمّ صبّ لنا وله القهوة السوداء. شعرت عندها بالأنس يعمّ الجلسة، فاستشعرت بعض الثقة والاطمئنان.

راح السيد ربيع يحرّك القهوة وينظر إليّ أنا أيضا أحرّك القهوة وقال:

– والسيد مصطفى، بحكم وظيفته، قال لي إنّ هناك شابّا تجد فيه المواصفات التي تطلب. لديه خبرة في عملنا. يعرف زبائن المنطقة ويعرفونه، ويرتاحون للتعامل معه. الفريق هنا متوافق معه. مثابر في عمله وحريص على مصلحة الشركة. يقطن بتمارة. ولديه بكالوريا علميّة ودبلوم في تسيير المقاولات. أليس كذلك يا سيد أشرف؟

قالها وهو يمدّ الكأس إلى فمه:

– أجل يا سيّدي، تقني متخصّص. قلتها ثمّ رشفت سريعا من قهوتي.

– جيّد. أخبرنا إذن، فيما يمكن لدراستك هذه أن تفيد في مهمّتك الجديدة المحتملة؟

– يمكن أن أستغلّ ما تعلّمته في تنظيم العمل، تدبير المواعيد والوقت، وضع جداول للحسابات...

– هل سبق وأجريت تدريبا معيّنا. قاطعني. وأنا أضع الكأس بعد أن رشفت منه مجدّدا، أجبت:

– نعم، في إدارة عمومية.

– حدّثنا عن هذه التجربة. قالها السيد مصطفى مقطّبا جبينه في حزم. تحلّ صورة مريم أمامي. أزيحها وأردّ:

– هما شهران، كنت أنتقل بين مختلف مكاتب المصلحة لأضع لهم الجداول الحسابية الملائمة. ثم اقترحت عليهم بعض القواعد والأنظمة التي درسنا عنها من أجل تنظيم وقتهم أثناء العمل. (ما قلته عن هذا الاقتراح كان مجرّد مبالغة عن جدول رسمته لإحدى الموظفات بالتدريب).

– مثل ماذا؟ باغتني السيد ربيع بهذا السؤال. صمتّ قليلا. وبينما مفعول الكافيين أحسّه يأتي بمفعوله نطقت:

– مثلا: أن يرتّبوا تنفيذ أعمالهم حسب أهمّيتها وعجالتها.

وسّع السيد ربيع حدقتيه وهو ينظر إليّ واضعا سبّابته على شفتيه:

– طيّب. قالها وهو يدير رأسه صوب السيد مصطفى، الذي التقطته نظرة خاطفة منّي وهو يبتسم في حبور. ثمّ أكمل: المفروض أن يسألك السيد مصطفى عن شغل التوزيع وتفاصيله، لكن لسمعتك الجيّدة في ذلك ولثقة السيد مصطفى بك، لن نكون في حاجة إلى طرح مزيد من الأسئلة. لذلك سنقول لك مرحبا بك معنا مرّة أخرى.

قالها فشعرت برجفة جعلت جسدي السابح في برك من العرق البارد يرتعش فوق الكرسي ويرعش معه ما تبقّى من قهوة في الكأس.

- هنيئا لك العمل الجديد. قالها السيد مصطفى. لكن أوّلا، هناك شهر تحت التدريب مائة في المائة. ستكون كملاحظ ومساعد، وسيكون السيد مراد المسؤول على التوزيع في الشركة هو المشرف هنا. في الشهر الثاني سيستمرّ التدريب، لكن أنت من سيجلس هنا، مشيرا إلى الكرسيّ الدوار خلف المكتب، والسيد مراد سيتّصل بك يوميا لمراجعة ما فعلت، وزيارتك مرّة إلى مرتين في الأسبوع لمتابعة الأمور عن كثب. إذا نجحت في التدريب، في الشهر الثالث ستكون رسميا هنا. مشيرا مرّة أخرى إلى الكرسي. وإن أخفقت بشكل فادح فلكلّ مقام مقال. في الشهر الأوّل، سندفع لك ألفين وخمسمئة درهم، وفي الشهر الثاني ثلاثة آلاف، وعند تجاوز مرحلة التدريب سيكون راتبك رسميّا هو ثلاثة آلاف وخمسمئة درهم. تعال أريك فريق عملك الجديد. قالها ثم استأذن السيد ربيع.

خرجنا من الغرفة الزجاجية إلى حيث المنضدة:

- هذه السيدة فاطمة، مكلّفة بالسكرتارية والاتصال، وهذا السيد إبراهيم المساعد هنا الذي يقوم بكل شيء، قالها ثم ضحك واضعا يده على كتف إبراهيم الذي ضحك هو الآخر في افتخار. وهذا السيد أشرف، مشيرا إليّ بيده، المشرف على فرع شركتنا بالرباط.

عدت أدراجي ذلك اليوم وأنا أتساءل لماذا يفعل السيد مصطفى كلّ هذا؟ يقترحني من بين الجميع على السيد ربيع من دون أن يعرفني؟ يدعمني في اللقاء الذي أجرياه معي؟ ويفرح لي عند نجاحي في الاختبار وحصولي على العمل؟ والإجابة على كلّ ذلك ستجيء في المساء بينما نحن على مائدة العشاء، نستعدّ للاحتفال بما حصلت عليه، بطبق من دجاج محمّر وبطاطس مقليّة وزيتون أخضر ومشروبات باردة، عندما اتصل بي عمّي يفاجئني بالتهنئة على العمل الجديد. سألته:

- وكيف عرفت؟

فردّ:

- سّي مصطفى أخبرني.

سألته مجدّدا:

- ومن أين تعرفه؟

فردّ ضاحكا:

- إنّه زبون وفيّ للمطعم. يجيء مرّة في الأسبوع رفقة أسرته. وهو أيها «الضبع» من كلّمته من أجل تشغيلك في الأول. ثمّ أنا أسأله دائما وأوصيه عليك. ألا أستحقّ إذن أن تشكرني وتذكرني أمام أبيك والأسرة بخير؟

حكاية نبيل

(7)

شهريار يحكي...

كان اسمه صالون «أرقى حلاقة». أعجبني الاسم فتركته زمنا طويلا، إلى أن أشار عليّ أشرف بتغييره. فاقترح هو وباقي الشلة أسماء عديدة، كـ «صالون السمر»، و«صالون الشلة» و«صالون ابن خلدون» نسبة إلى اسم الشارع، و«صالون نبيل» ببساطة، نسبة طبعا إلى اسمي. لكن أخي محمّد حين شاورته في الأمر، اقترح عليّ أن أسمّيه «صالون الحكايات». قال ذلك ضاحكا وعلّل مقترحه:

– أوليس هو كذلك؟

وأنا صراحة اقتنعت باقتراحه، لكنّي وجدت أنّ كلمة «الحكايات» لا تصلح لتطلق على صالون أو حتّى مقهى. ففكّرت في استبدالها بشيء، وأن يحيل هذا الشيء إلى معناها، وأن يصلح في نفس الوقت ليكون اسما لصالون حلاقة.

«حكايات؟ حكايات؟ حكايات ألف ليلة وليلة... شهرزاد... شهريار... أجل، صالون شهريار.»

هكذا قادني الاسم الذي اقترحه أخي في النهاية إلى اسم «شهريار».

اسم جميل، وذو هيبة ملكيّة، مرتبط بالحكايات، بالخيال، بالأدب على وجه العموم. والأهمّ أنّ الجميع وافقني عليه.

في البداية، حين تسلّمت مفاتيح الصالون من يد أبناء الحاجّ بهيج، كنت أعلم أنّي بصدد مسؤولية كبيرة توضع على كاهلي. فتسلّمي لها يعني أنّي قبلت العرض الذي يقترحونه عليّ. وأنّ المهمة المنوطة بي هي جعل الناس يتوافدون عليه كما كانوا يفعلون من قبل. وأنا لم أكن أعلم كم كان يجني ابن الحاج بهيج من عمله بالصالون. فهو لم يخبرني وأنا لم أشأ أن أسأله. لذلك أخذت الأمر كتحدّ قد أصيب فيه وقد أخيب، لا سيما وأنّي لم أرد وضع أخي محمّد أمام أبناء الحاجّ بهيج في موقف حرج.

حين وقفت داخل الصالون، فكّرت أيضا في مسألة السكن. وكنت قد قرّرت عدم الرجوع لشقّة أخي محمّد احتراما لخصوصيّته وزوجته. وسريعا، رحت أجري حسابات حول إذا ما كانت الخمسون في المئة ممّا سأجنيه هنا كافية لتسديد ثمن غرفة أكتريها إضافة إلى متطلّبات الحياة اليومية الأخرى أم لا؟ ثم قلت لنفسي: «حسنا سأنام على تلك الأريكة الجلديّة الطويلة هناك إلى أن يتحسّن حالي...». وقبل أن تكتمل صورة الفكرة في ذهني، فتح ابن الحاجّ بهيج، الحلّاق السابق، بابا عند ركن الصالون الأيسر:

– هذه غرفة يستخدمها والدنا لتخزين سلع من ملابس جاهزة وأثواب وأحذية قبل حملها إلى المحلّات. غدا في الصباح الباكر سيجيئ العمّال لإفراغها، وبعدها ستكون تحت تصرّفك، مسكنا لك. لقد فكّرنا أنّ الأحسن لك ولنا هي أن يكون سكنك إلى جوار الصالون. ولن نجد مكانا أقرب من هذه الغرفة. أليس كذلك؟

قالها ضاحكا، فضحكنا جميعا، غير أنّ موسيقى من سرور وارتياح كانت تغيّر مجرى إيقاع ضحكتي فأجدها مختلفة عن ضحكات الآخرين.

في أيّام عملي الأولى كان الناس يجيئون ويسألون عن رشيد، ابن

الحاجّ بهيج، فأقول لهم إنّه قد هاجر إلى السعودية، وإنّي أنا هو الحلّاق الجديد بدله. ثمّ لاحظت بعد ذلك أنّ هؤلاء الزبائن لم يرجعوا مرّة أخرى عندي، ففهمت أنّهم كانوا يرتاحون لحلاقة رشيد، وربما لم يرتاحوا لحلاقتي أنا. فانعكس ذلك على رواج الصالون بشدّة، وانعكس على ثقتي بنفسي. وبعد الشهرين الأولين اللذين كان مدخولهما جيّدا، حلّت شهور صرت أخجل خلالها من تسليم المال القليل إلى الابن الأكبر للحاج إدريس. واستمرّ الحال كذلك لمدّة، جعلني استمرارها الطويل، أفكّر فعلا في إرجاع المفاتيح لأصحابها مع الاعتذار عن فشلي في إنجاح المهمة التي أناطوها بي.

لكن، وبشكل مفاجئ صار عدد الوافدين على الصالون يرتفع. فبدل زبائن رشيد القدامى صار يتشكّل للصالون زبائن جدد. زبائني أنا. وهؤلاء، الزبائن الجدد، صار يعجبهم، أن يتحدثّوا إليّ وأنا أقصّ شعرهم. وفي المقابل، أعجبني أنا أن أنصت لأحاديثهم تلك. بل صار كلّ من يجلس في الانتظار يتحوّل إلى طرف فيما يدور من حديث بيني وبين الزبون على الكرسيّ. ومن خلال تلك الأحاديث التي يعجّ بها صالوني صار الروّاد يسردون بعفويّة أخبارا وحكايات، قد تخصّهم، أو تخصّ أشخاصا آخرين. بينما أنا، أسمع، وأنصت باهتمام، بل صرت أربط بين ما أسمع من أخبار وروايات تخصّ نفس الأشخاص، متحرّيا الوصول إلى حكايات مكتملة العناصر والأبعاد.

ومن خلال أولئك أيضا، صار لي أصدقاء. ولم يكن لي في المدينة أصدقاء غيرهم. أشرف، وسمير، وحمزة، وعادل. وهؤلاء هم شلّة السمر، الذين بعثوا بصالوني نفسا جديدا. جعلوا المكان الصغير يتحوّل فعلا إلى عالم حقيقيّ بالنسبة لي. الحيّ والمدينة والبلد صاروا جميعا يعيشون عندي، في صالوني، عبر الأخبار والحكايات التي ينقلها الناس إليه. إذن فأنا لن أكون مخطئا أو مبالغا عندما أسمّيه «صالون شهريار».

حكاية الأستاذ حسن الوردي وأسرته

(4)

الأستاذ حسن يحكي...

ابني مراد خيّب آمالي. وقد توقّعت بعضا من ذلك.

في الحقيقة أمّه هي التي دلّلته. من يوم أن رُزقنا به بعد ثلاث سنوات عن زواجنا، في تلك البلدة البعيدة حيث كنت أشتغل، جوار مدينة تطوان، وهي فاقدة لعقلها جنونا به، حتّى كادت أن تنسى في الشهور الأولى أنّ لها زوجا، لم يزل يافعا، هو الآخر في حاجة إلى بعض العناية والعاطفة. وأنا حين أقول فقدت عقلها، فأنا أعني تماما ما أقول. فإدراكها لما حولها صار شبه منعدم، كأنّ حواسها تعطّلت عن كلّ شيء إلّا رضيعها. بل حتّى شكل ملامحها تغيّر. وكأنّك حملت رقيّة ووضعت مكانها رقيّة أخرى، امرأة أخرى. ببساطة، صرت أنا، بعد أن غادرتنا أمّها بعد شهرين من مكوثها إلى جوارها، من يطبخ وينظّف ويكنس... حتّى الملابس، أنا من صار يغسلها!

لكنّي كنت أتفهّم الحالة، رغم تجاوزها لحدود المألوف، فانتقال رقيّة السريع للعيش رفقتي هناك في تلك البلدة الباردة، عند سفح الجبل الموحش، بعيدا عن أهلها وحيّها العامر، بينما أقضي أنا أكثر من نصف

النهار بعيدا عنها هناك في القمّة، وأتركها في وحدة مع البيت والمذياع، ربما جعلها ترى في مراد المؤنس الذي سينسيها وحدتها واغترابها. لذلك تعاملتُ مع الموقف بحكمة وتبصّر، رغم سنّي الصغير آنذاك، ولم أتسرّع في الإقدام على قرارات كإشراك أحد من أهلي أو أهلها في إيجاد حلّ للمشكل، ولم أجابه ذلك بصبّ وابل استيائي في وجهها وهي في تلك الفترة الحرجة. بل، تحمّلت وانتظرت.

وكان الفضول يعتري سّي المعطي، المعلّم رفقتي بمدرسة الجبل، كلّما لمحني بساحة المدرسة، غارقا في دخان سجائري وشرودي، فيسألني عمّا بي؟ في البداية، كنت أتجنّب مصارحته بالحقيقة، حتّى لا أبدو أمامه في صورة المنهزم المستكين مرّة أخرى. أجل، فهو شهد عن كثب قصّة عشق عشتها هناك مع زميلة لنا بمدرسة البلدة قبل زواجي برقيّة، صراحة كان عشقا من طرف واحد كما يقولون. والأستاذ المعطي، رآني كيف تجرّعت في النهاية مرارة الإخفاق فيه ولوعة انكسار الوجدان. ولم أشأ أن يراني مجرّد غرّ أخرق، هام دون بصيرة في حبّ فاشل، تزوّج بعد نهايته مباشرة ثمّ لم يعرف كيف يقود سفينته مع أوّل مولود يُرزق به. غير أنّ تماديّ في حالة انشغال البال تلك، واستمراره هو في التساؤل عن سبب ذلك، جعلاني أرضخ بإرادة منّي فأبوح له بما أصاب رقيّة وما حلّ بي أنا من جرّاء ذلك.

– عليك بالصبر يا عزيزي. فمزاجيّة النساء تحتّم علينا نحن الرجال التحمّل في غالب الحالات.

– ها أنا صابر ومتحمّل من وقت طويل.

– إذن، امنحها مزيدا من الوقت. وحاول أن تظلّ إلى جوارها ما استطعت، لعلّ ذلك يجعلها تشعر أكثر بحضورك فتعود للتفكير بأمرك...

كلام سي المعطي حمل إلى نفسي بعض الاطمئنان، وجعل انتظاري يصير ذا معنى. وفي النهاية وجدت أنّ كلامه كان صائبا، إذ مع مرور الوقت، طبعا

كثير من الوقت، أضحت رقيّة تعود شيئا فشيئا إلى طبيعتها الأولى. وتراجع عقلها عن جنونه، وصارت تعامل مراد وفق العلاقة الطبيعية التي تربط الأمّ بوليدها. والأهمّ أنّها عادت للاهتمام بشؤون البيت، وبزوجها، أنا، أيضا.

لكن، تلك العاطفة الأولى التي كانت قد فجّرتها تجاه مراد، لم تكن رقيّة لتدعها تنفلت منها سدى. بل هي حوّلتها إلى دلال مبالغ فيه صرفته تجاهه. وهذا الدلال استمر رغم إنجابنا لثلاثة أبناء آخرين، أنثيين وذكر، ورغم حصولي أنا على الانتقال ورجوعنا إلى تمارة هنا، قريبا من أهلها الذين يقطنون في نفس الحيّ حيث بيت أهلي بمدينة سلا.

وها نحن جميعا، أنا وهي وهو، ندفع ثمن هذا الدلال ونجني غلّته. ابني البكر الذي عقدت عليه الآمال وحلمت له بمستقبل واعد لم يرد أن يكمل دراسته. وأيّ دراسة سيكمل؟ فنتائجه زفت وأسلوب تفكيره أزفت. فبعد الابتدائية الجيّدة، انقلب كلّ شيء في الإعدادي، قبل أن ينهار في الثانوي كبناية فُجّرت أساساتها بالديناميت فهوت في استسلام إلى الأرض. لكنّي كنت أتوقّع حدوث مثل هذا الأمر. وقد قلته لها ألف مرّة:

- أنت تدمّرين ابنك هكذا.

وهي لم تكن تنصت لتحذيراتي، بل تردّ عليّ وتتمادى في ذلك. والحمد لله أنّ إخوته الصغار لم يحظوا بنفس ذلك الدلال، وها هم جميعا متفوّقون في دراستهم ويحصّلون على أعلى المراتب. لكن مراد، خليفتي على البيت، انفصل عن الدراسة وصار يدخّن لي السجائر والحشيش أيضا مع مجموعة شباب منحرف، وأنا من يضع له الدراهم في جيبه... لست أنا تماما، فأمّه من تفعل، لكن من مالي طبعا.

لا دراسة ولا صنعة ولا رياضة ولا صلاح حال... فأيّ حلّ يبقى أمامي؟ ببساطة منعت عن رقيّة التصرف في مصروف البيت حتّى لا يصله هو مال يصرفه في دخان وحشيش. وقبل أن يعلم هو بذلك، واجهته أنا، وأخبرته. رفعت صوتي في وجهه كما لم أفعل منذ زمن، وقلت له:

- إن أردت المال فشمّر عن ذراعيك، وامض ابحث لك عن عمل!

هو لم يردّ على كلامي، طأطأ رأسه إلى الأرض وقد احتقن وجهه. ثمّ رفع رأسه ناظرا إليّ في حقد وغضب. هل أخافتني نظرته الحانقة تلك؟ لا! لا يجب على الأب أن يبدو خائفا من ابنه لاسيما وأنّ زوجته وأبناءه الآخرين يتابعون، حتّى وإن شعر ببعض الرهبة من توعّد ابنه. لأنّه إن فعل، سقط من أعين أفراد أسرته، فتسقط مع ذلك هيبته ثمّ سلطته. وإن غابت سلطة الأب سار البيت حتما إلى فوضى وخراب. وأنا أعرف آباء كُثرا يرتعشون من أبنائهم وزوجاتهم. أجل، فلم تعد لهم في البيت كلمة تُسمع أو أمر يُطاع. وأين هؤلاء من آبائنا وأجدادنا؟ أنا أذكر أمّي مهما كانت تثرثر في عصبيّة كان يكفي أن ينطق أبي فيخرس انفعالها. أمّا جدّاي رحمهما الله، لأبي وأمّي، فمجرّد نقرة من عكّازيهما على الأرض، أو نحنحة خفيفة، كانت كافية لتدفع كلّ من كان يتحرّك في البيت إلى الجمود في مكانه، أو إطلاق ساقيه للريح متفاديا أن تلتقطه عينا كبير العائلة. أمّا حال الآباء مع الأبناء والزوجات اليوم فحدّث ولا حرج.

بعد مواجهتي تلك مع مراد، ابني، وحرماني له من مصروفه بنيّة دفعه للعمل، ذقنا أيّاما عصيبة معه. فقد انفلت عن سيطرتنا وصار من الصعب ردعه. فحين أكون غائبا، كان إن لم يجد ما يكفيه من مال بالبيت أو عند أمّه يعيث خرابا في المكان. يكسر أواني المطبخ، يلكم ويركل الأبواب، يقلب الأثاث، يضرب إخوته ويسبّهم، ويصرخ في وجه أمّه... كمدمن؟ لكنّه لم يكن مدمنا، إنّما كان مدلّلا حتّى النخاع. وماذا كانت أمّه تفعل لتواجه كلّ هذا الإعصار؟ تصرخ وتولول، قبل أن تنهار أمامه وهي تترجّاه أن يتوقّف ويعود إلى جادة الصواب. ثمّ تلجأ إلى الجارات ليقرضنها بعض النقود له. تصوّر!!! ابن مراهق يملي أوامره على أمّه التي تنصاع له دون مقاومة. هل تفعل ذلك خوفا منه، أم خوفا عليه، أم لأنّها تحبّه بغلوّ وإفراط؟

وأنا، مع تكراريّة حدوث هذا الأمر، لم أكن لأنتظر أو أصبر كما تعوّدت أن أفعل من قبل أمام مشاكل مشابهة، رغم أنّ رقيّة سعت في كلّ مرّة إلى إخفاء ما يصدر عن ابنها من تمرّد عنّي، بل وكانت تعمد على توصية إخوته حتّى لا يخبروني، لولا أنّي حين كنت أدخل الدار فأجد الدموع والفزع لم يزالا عالقين في عيونهم، أسألهم عمّا بهم؟ أسألهم بعطف وحنان حتّى أجعلهم أقرب إلى البوح لي، فيعترفون ويحكون لي بالتفصيل. وكان من الطبيعي جدّا أن أؤنّب زوجتي. وحين تدخل في نوبة بكاء كسلاح أمام كلماتي القاسية، كنت أواسيها قائلا: «على الأقلّ لا تتسرّي عليه! أنا أيضا أخاف عليه كما أخاف على إخوته أن يمسّه مكروه، وأخاف عليك أنت أيضا يا عزيزتي...».

ذات صبيحة يوم أحد، أيقظت مراد باكرا، رغم علمي بأمر سهره بالخارج إلى وقت متأخّر بالليلة الماضية، وهذا شيء كنّا قد تعوّدنا عليه، وأنّه لن يستيقظ لي إلّا بمشقّة الأنفس. لكنّي جعلته يفعل، ويرافقني إلى المقهى، حيث تناولنا فطورنا هناك. ثمّ طلبت قهوتين لنا. وبعد أن رشفنا منهما، حدّثته، كما يحدّث أب ناصح ابنه الضالّ. كنت أدرك قبل البدء في الحديث أنّه ربما لن يتقبّل كلامي، وحتّى إن تقبّل سماعه فهو سيتجاهل تطبيقه. لكنّي حين شرعت في الكلام ولاحظت نظرته تلك، المنصتة، والتي لم تبد حاقدة عليّ هذه المرّة، قلت مع نفسي هذه بشارة خير. وأنا أُرجع نجاحي هذا في شدّ انتباهه للإصغاء إليّ، إلى كوني قد امتدحت قيمته داخل الأسرة:

- أنت يا بنيّ هو رجل البيت في غيابي. لا زلت صغيرا نعم، لكن وجب عليك تحمّل مسؤوليتك هذه، تجاه أمّك وإخوتك الصغار. نحن جميعا في حاجة إليك، لأنّ دورك داخل الأسرة بالغ الأهمّية.

ابتسمت حين قابلني هو بتلك النظرة المرتاحة، ورشفت من جديد من قهوتي. أكملت:

– ليس عارا أو عيبا أن تفشل في الدراسة. إنّها ليست نهاية العالم. أنا فشلت في دراستي. أنا لم ألتحق بالجامعة كأقراني، لكنّي نجحت في حياتي، حصلت على عمل، وتزوّجت وأنجبتكم، ولدينا سكن وسيّارة. أمّك أيضا فشلت في دراستها، لكنّها نجحت في حياتها هي الأخرى. لكن نجاحنا الحقيقي الآن هو إيصالكم أنتم إلى برّ الأمان. أتعلم ما معنى ذلك؟ معناه أن تحصلوا على تعليم جيّد وشغل كريم، حتّى تستطيعوا النجاح أيضا في حياتكم وتأسيس بيوتكم، هذه هي دورة الحياة. أنت درست ما قدرت عليه. وكلّ واحد يبلغ في الدراسة ما يقدر عليه. لكن هذا لا يعني أن تدمّر حياتك وتستسلم للأمر. فأنا أعلم أنّك تدرك أنّ ما تقوم به ليس بالأمر الصائب، فأنت فتى ذكيّ ولن يفوتك أمر كهذا.

كانت نظرته تزداد اتساعا أمامي، وملامح وجهه تزداد انشراحا، وحين تناول كأسه بهدوء ورشف منه على رويّة ليس كما تعوّد أن يفعل، حيث دائما أراه يتناول طعامه وشرابه بالبيت في سرعة ونهم، واصلت قائلا:

– اسمع يا بنيّ، نحن جميعا نحبّك، أنا وأمّك وإخوتك، ولا تتصّور أنّنا سندفع بك إلى ما يضرّك، على العكس. انظر فقط إلى أمّك كيف تجاهد وتتحمّل لترضيك! وأنا كذلك. لكن الفرق أنّها أمّ وأنا أب. هي تتعامل وفق عاطفتها لكن أنا أتعامل بواقعيّة وعقلانيّة. ربما تلاحظ أنّي أحدّثك بكلام كبير، لأنّي أعلم أنّك تفهم جيّدا ما أقول. وميزة الذكاء هذه فيك يجب أن تستغلّها في حياتك، وفيما ينفعك.

– كيف؟

كانت هذه أوّل كلمة نطق بها مذ أن بدأت الحديث معه، وقد كانت إشارة على أنّي قد نجحت في جعله يقتنع بما أقول.

– أنا لن أطلب منك الالتحاق مرّة أخرى بمدرسة خاصّة، ولن أشير إليك بتعلّم صنعة، ولن أنهرك مجدّدا لتجد عملا. أنت ببيت أبيك معزّز مكرّم، وأنا سأعطيك مباشرة مصروفك دون التحايل على أمّك. لكن،

عليك أن تتوقّف عن تعاطي الحشيش وتبتعد عن مجموعة أصحابك تلك...

- لكنّي لا أتعاطى الحشيش يا أبي.

- بل تفعل. أنا شممت رائحته أكثر من مرّة على ملابسك.

- لا، هم الذين يدخّنونه، وأنا فقط أكون جالسا معهم فتعلق رائحته بثيابي.

- لا تحاول مناورتي، فأنا لست أمّك الطيبة على كلّ حال. أنا متأكّد أنّك تفعل.

طأطأ رأسه دون أن يعود لتحايل جديد.

- والسجائر أيضا. لو تفاديتها يكون أفضل لك ولصحّتك. أمّا الحشيش يا بنيّ فهو سيبقيك في غفلة عن الحياة ومستقبلك. وأصحابك هؤلاء أيضا، لن يجيئك منهم خير أو منفعة.

- وأيّ مستقبل لا يزال بعد فشلي في الدراسة، إلّا أن أحصل على تأشيرة للرحيل عن هذا البلد؟

- أرأيت؟ أنت تعتبر نفسك فاشلا. وشعورك السلبيّ هذا لن يدعك تتحرّك إلى الأمام قيد أنملة. ثم أتحسب أنّك ستجد الأبواب مشرّعة أمامك بالخارج؟ على الأقلّ أنت معزّز مكرّم بين أهلك. تأكل وتشرب وتنام في الدفء وتستيقظ وقتما تشاء. أنت هنا تعيش حرّا. هناك ستصير عبدا مقابل أن تحظى ببعض الحياة. فلا تغرنّك مظاهر هؤلاء الذين يعودون من الخارج بسيارات أوربية الألواح وهم يبتسمون. إنّهم يذوقون الويلات هناك.

تنهّد بعمق، وهو يرشف قهوته وينظر بعيدا صوب الرصيف الآخر.

بعد أسبوع جاءني وأنا أشاهد التلفاز وسط الدار رفقة صينية الشاي وبعض حلوى «الفقّاس». جلس بجانبي. ثم قال لي وكأنه يكلّم نفسه:

– أبي، أنا لم أعد أتعاطى الحشيش، ولم تعد لديّ رغبة في مصاحبة أبناء الحومة هؤلاء.

صمت برهة ثمّ أكمل:

– وقد خطرت ببالي فكرة للعمل.

كان وقع كلماته تلك، والتي كان عليّ أن أصدّقها إن أردت إكمال مشروعي الإصلاحيّ معه، كوقع رؤية اسمك ضمن قائمة الناجحين في اختبار مهمّ:

– كنت أعلم أنّك ولد ذكيّ، ويعرف كيف يتجاوز صعابه بنفسه دون الاعتماد على أحد. عقّبت معتدلا في جلستي، ثم أكملت: وفي أيّ عمل فكّرت؟

– أنا أعرف كثيرا من أبناء الجيران يفرشون مبيعاتهم بالشارع. وفكّرت أن أعرض شيئا للبيع أنا أيضا هناك.

– جيّد، هذه فكرة طيّبة. قلت بحزم، فقابلني بصمت.

– إذن؟ سألته.

وهو يفرك شعر رأسه، قال بصوت مبحوح:

– ليس لديّ رأسمال.

حكاية الدكتور عمر

(8)

الدكتور عمر يحكي...

وصفة صديقي إبراهيم آتت أكلها. لقد تفاديت في الأسبوع الأوّل للإجازة التي أخذت مطاردة الناس لي. وموضوع الصور المنشورة صار يتراجع. فالظاهر أنّ الناس على الفايسبوك عندهم كلّ يوم خبر جديد، فلماذا الاستمرار إذن في نشر صوري والتعليق على موضوعي، لا سيما وأن سفينته التائهة قد رست أخيرا في مرساها الآمن، وعاد القراصنة المطاردون والمتربّصون إلى أوكارهم؟

لكن بداية الأسبوع الثاني من الإجازة حملت لي مفاجأة لم تكن لتزور مناماتي حتّى. اتصل بي صديقي القديم الدكتور عثمان، الذي يعمل طبيب أنف وأذن وحنجرة بإحدى المصحات بالرباط. سألني أين أنا؟ كانت الساعة تشير إلى حوالي الخامسة مساء. قلت له إنّي في الطريق إلى مقهى. فطلب منّي اسم المقهى ومكانه وعدم مبارحته حتّى يلتحق بي.

كانت وجهتي في ذلك المساء، مقهى جديد بشارع ثانويّ يربط شارعيّ محمّد الخامس وعلال بن عبد الله. اخترت ذلك المكان المنزوي عن أنهار الشوارع الكبرى حتّى أتحاشى قدر المستطاع أن يلمحني أحد المارّة

أو الجالسين فيتعرّف عليّ، فنعود بذلك إلى التقاط الصور، والنشر على الفايسبوك، فإعادة نشر صور لي منسيّة مع فتيات، والتي ستراها زوجتي حتما على سمارتفون أو لوح الأبناء الإلكتروني، ومنه إعلان حرب جديدة منها عليّ ما إن أخطو داخل الدار. فيكون المغزى من إجازتي هذه قد ذرته الرياح وصار في خبر كان.

طبعا الدكتور عثمان لم يتأخر، قبل انقضاء ربع ساعة عن جلوسي ظهر. فمن ميزاته أنّه حريص على الوقت، يزن الدقائق في رأسه، وكأنّ عقله مزوّد بساعة. بل وبمنبّه أيضا. لأنّه في كم من مرّة كان يقفز واقفا، معلنا انقضاء الوقت المخصّص لجلسته تلك. هكذا عرفته قبل سنوات، إثر عودتي إلى هنا، الرباط (تمارة) بعد نزع البذلة البيضاء. وأظنّه لا يزال كذلك.

ركن سيّارته على بعد عشرين مترا تقريبا. ثم تقدّم نحوي، حيث كنت جالسا بشرفة المقهى على الرصيف، في كامل أناقته، قميص قطنيّ أبيض بأكمام، وسروال ثوب أسود، بمعصمه ساعة كلاسيكية ذهبية، وأمام عينيه نظارتان طبّيتان، ورائحة عطر ماركة تسبق جسده الذي ازداد وزنا بشكل موزّع بنظام، رغم الكرش الذي بدا متدفّقا قليلا إلى الأمام.

– عمر، صديقي العجيب، الدكتور الذي ترك الطبّ ذات يوم بعيد، ثمّ عاد ليعالج الناس رغم أنّه صار موظّفا إداريّا.

قالها بصوت عال ضاحكا وهو يقترب منّي. قبل أن يعانقني، ثم يعيد النظر إليّ ببسمة بشوشة:

– لقد شبت يا صديقي.

– بل أنا شائب قبل آخر مرّة قابلتك فيها.

– حقّا؟ ومتى كان ذلك؟ منذ زمن بعيد؟

– ليس كثيرا. سنتان أو ثلاث عل أكثر تقدير.

– سنتان وليس كثير؟ إنهما أكثر من سبعمئة يوم.

قالها ضاحكا وهو يربّت على كتفي، ثمّ التفتّ إلى الخلف حيث رجل ببذلة سوداء أنيقة يتقدّم نحونا.

– أعرّفك يا دكتور عمر بالبروفيسور محمّد أمين بنهلالي، صاحب المصحّة حيث أشتغل... بروفيسور، هذا بطلنا صديقي الدكتور عمر.

طبعا أنا أعرف البروفيسور بنهلالي، أقصد أسمع به. وقبل أن أمدّ أنا يدي كان هو السابق، محرّرا بسمة مرحّبة عبر وجهه ناصع البياض، المحلوق بعناية فائقة. وأنا أمام هذه الفخامة التي يعكسها الرجل في هندامه بالغ الأناقة، وحركات رأسه ويديه المحسوبة، وكلامه الموزون، ونظراته الواثقة، ظللت مهزوزا في مكاني، لا أعلم ما أقدّم وما أؤخّر، بينما ملابس صديقي عثمان التي أبهرتني قبل لحظات بدت كأسمال بالية في مواجهة أناقة البروفيسور.

– تشرّفت بالتعرّف إليك دكتور، قالها البروفيسور وهو يشدّ يدي بقوّة، لقد هززت الصحافة والأنترنيت. لقد أبدينا نحن في المصحة تعاطفنا وتضامننا التام معك منذ اليوم الأول. أليس كذلك يا دكتور عثمان؟

– أجل، بكلّ تأكيد. لقد كان البروفيسور، حين علم أنّك صديقي، لا يفوته أن يسألني كلّ يوم عن مستجدات قضيّتك.

التفت البروفيسور حوله وكأنّه يستطلع المكان ومن فيه، المقهى، الرصيف، الطريق، الرصيف الآخر، ثم وجّه كلامه للدكتور عثمان:

– لم لا نذهب للجلوس بمقهى آخر أو مطعم، فالمكان هنا يبدو فوضويّا قليلا.

– طبعا أنا موافق. نرى فقط رأي الدكتور عمر.

– رأيي أنا؟ بكلّ سرور. على الرحب والسعة.

في مطعم فخم بحيّ أكدال، بعيدا عن الفوضى والضجيج، جلسنا نحن الثلاثة.

نظرت إلى قائمة الطعام ذات الأرقام الكبيرة وظللت حائرا. عاد النادل سريعا، وقف على رأسي وسألني أوّلا:

- نعم سيدي؟ نبدأ بالمقبّلات؟

كانت عيناي تدوران على القائمة دون حتّى أن تمنحاني فرصة للتدقيق. ثم بدا وكأنّ صديقي عثمان انتبه للورطة التي أنا غارق فيها، فتدارك الموقف موجّها كلامه إلى البروفيسور:

- بروفيسور، يشرّفنا أن نتعشّى حسب ذوقك.

أغلقت أنا القائمة، متنفّسا الصعداء. رفعت عينيّ تجاه البروفيسور الذي كان ينظر إلى قائمته في هدوء بينما ينفث دخان سيكاره. وفيما يشبه الهمس تكلّم في أذن النادل.

إذن ابتدأت ما اعتبرتها مأدبة حفلة، بمقبّلات من سلطات منوّعة: خضار، أرز، زيتون، فواكه بحر، فواكه برّ، صلصات...، كانت الأطباق تُصفّ على المائدة العريضة أمامي، فأشعر بأن جوعا غريبا عليّ قد راح يكتسح معدتي، وأن شهيّة مفرطة قد تمكّنت منّي. تناولنا المقبّلات في صمت. ثمّ جاء الطبق الرئيسي: كوكتيل شواء. هنا بدأت الحفلة عندي. كنت أغوص في الأطباق اللذيذة وجزء من دماغي يهمس لي: كل في اطمئنان، فحتما البروفيسور هو الذي سيدفع. فيزداد إقبالي على الطعام كأنّني عائد من جولة سباحة بحريّة.

- صديقي عمر، تكلّم عن يساري الدكتور عثمان وهو يغرس الشوكة في قطعة اللحم، البروفيسور يريد أن يعرض عليك أمرا بالغ الأهميّة.

- بكل سرور، هذا شرف لي. قلتها بعد أن استعنت بدفقة ماء على بلع ما تكدّس في حلقومي.

ابتسم البروفيسور الذي كان جالسا قبالتنا، وضع مرفقيه على الطاولة جامعا كفّيه إلى الأمام:

– لقد أُعجبت بتدخّلك لإنقاذ ذلك الرجل المصاب. وحين علمت من الدكتور عثمان أنّك قد تركت الطبّ من سنين طوال، قلت مع نفسي: هذا طبيب يمتلك من حسّ وموهبة ودراية التطبيب ما يندر وجوده بيننا كثير من الأطباء. لقد تعجّبت كثيرا، كلّ هذه السنين بعيدا عن الميدان ثمّ امتلكت الثقة والشجاعة لتقوم بما يشبه جراحة وتوقف النزيف وتخيط ذلك الجرح العميق؟ بل وهذا ليس من تخصّصك حتى؟

– يا سيّدي هذه شهادة أعتز بها، ثمّ إنّي زاولت في المستشفى الذي كنت أعمل به، كلّ التخصصات، بل وتصدّيت لحالات جمعت أكثر من تخصّص. وهذا هو ما وسّع معرفتي الميدانية وأكسبني خبرة.

– نعم يا دكتور عمر، لقد حكى لي صديقك عن كلّ تفاصيل عملك هناك. ولهذا فأنا أقترح عليك العمل معنا بالمصحّة.

– أجل، ستكون إلى جواري. ولن ينقصك أيّ خير مع البروفيسور. قال عثمان فاردا محيّاه عن ابتسامة عريضة.

– لكنّي لست طبيبا متخصّصا حتّى أشتغل في مصحّتكم.

– أعلم هذا طبعا. نحن الآن بصدد إنشاء جناح، سمّه أنت عيادة ملحقة للطب العام. وستكون أنت هو طبيبها.

– لكن يا دكتور أنت تعلم، أنا أشتغل بوظيفة جيّدة، والحال ميسور والحمد لله.

– عن أيّ وظيفة تتحدّث؟ ردّ عثمان يشهر ضحكة مصطنعة كبحها في الحين. البروفيسور يعرض عليك هديّة ستضاعف مداخيلك. هو يودّ الإقدام على شيء عبقريّ. عيادة طبّ عام تابعة لمصحّتنا ذات الصيت الواسع. أتدري كم زبونا سيجيئك يوميّا؟ ثمّ إن اسمك سيُنحت جنبا إلى

جنب مع اسم البروفيسور. يا صديقي هذه فرصتك حتّى تعود إلى مهنتك الأصليّة. لقد خُلقت يا دكتور عمر لتكون طبيبا، وطبيبا ذا شأن، وليس موظّفا بمكتب تأكل فيه الرطوبة أطرافك.

صمتُّ منصتا بحرص لواقعيّة كلام عثمان وقد أوشكت أن أوافق، بينما النادل يجمع ما تبقّى من أطباق الشواء.

- وحتّى تكون مطمئنّا، فإنّ العقد الذي ستوقّعه مع البروفيسور سيضمن لك حدّا أدنى من الأجر يوافق راتبك الحالي. ماذا قُلتَ إذن؟

كنت لا أزال عاجزا عن قول أيّ شيء، بل لم أكن قد توصّلت لشيء حتى أعجز عن قوله. وبينما النادل يضع أمامي آنية من المثلّجات الملوّنة وفي وسط المائدة يبسط طبقا من الفواكه المنوعة، كسرت قيد الصمت أخيرا:

- سأحتاج بعض الوقت للتفكير.

حكاية عبد الإله المنصوري ونادية

(9)

نادية تحكي...

بعد بضعة أيّام، غادرت المستشفى متّكئة على عكّاز.

علمت أنّ عبد الإله غادر قبلي بوقت طويل، لكنّه لم يفكّر بعد ذلك في زيارتي. أخبروني أنّه ذهب مسارعا لإنقاذ بيته من الخراب. ولم يزرني أحد من العائلة غير أمّي وأختي وخالتي فاطمة. في المقابل كانت سميرة وشريكتاي في السكن، يجئن لمؤانستي لبعض الوقت كلّ يوم تقريبا، جالبات لي معهنّ بعض طعام وعصير. أمّا الباقون من العائلة وزميلات العمل والصديقات القديمات، رغم كثرتهن، فلا وجه من وجوههم حلّ يحمل إليّ بسمة اطمئنان على حالي ودعوة شفاء.

بعد المستشفى واجهت لوحدي المحكمة. كنت خائفة أن يُرمى بي في السجن فأفقد كلّ آمالي من لقاء جديد بعبد الإله. لكنّ القاضي راعى كون اعترافاتي قد سهّلت عمل المحقّقين في القضيّة، ووفّرت عليهم الكثير من الوقت، وكوني لا أنتمي لشبكة دعارة منظّمة. ربما كان الحظّ في النهاية إلى جانبي. فقد حكم عليّ القاضي بوقف التنفيذ، ولولا العكّاز لقلت إنّي قد خرجت منها كالشعرة من العجين.

مكثت بالشقة المشتركة مع زميلاتي لأسابيع دون أن أحاول البحث عن عبد الإله أو الاتصال به. راعيت عزّة نفسي طيلة تلك المدّة، كونه لم يزرني ولم يتّصل بي حتّى ليطمئنّ على صحّتي. لكنّي وجدتني ذات مساء ثقيل أسحب الهاتف وأتّصل أنا به.

سألني أين أنا؟ ثمّ طلب منّي مقابلته. ظللت صامتة. فاقترح أن يمرّ بالسيارة ليصطحبني حيث أنا، فوافقت.

جلسنا في مقهى بركن منزو. ظلّ صامتا أغلب الوقت، يحدّق في الرصيف البعيد. بدا منهارا. صوته خافت وبسمته منطفئة. حتّى ملابسه كانت رثّة وغير مكويّة، على نقيض أناقته المعهودة. وكان عليّ أنا أن أتكلّم، أن أكسر رتابة الوقت الذي يتمدّد بنا دون صدور شيء.

– أهكذا تتركني في المستشفى، قدمي معلّقة إلى السقف في جبيرة جبس وحديد دون أن تسأل عنّي؟

– اعذريني! فأنا ما كدت أغادر السرير حتّى راح بيتي ينهار.

– وماذا فعلت؟

– فعلت ما في استطاعتي، لكنّ نجاة أصرّت على الطلاق وتمسّكت بأن أوافق لها على حضانة الأطفال الدائمة.

– وهل امتثلت أنت لمطالبها؟

– أجل لقد طلّقتها، ووافقت على حضانتها الدائمة للأولاد.

– وكيف سمحت لها بالحضانة الدائمة. قد تتزوّج وتحرمك منهم إلى الأبد؟

– لكنّها هددتني بفقداني للوظيفة. وأنا فكّرت أنّها مهما كان قلبها قاسيا فهي لن تحرم الأبناء من أبيهم.

ثم عاد للنظّر بعيدا وإلى الصمت الحزين.

– لا تفعل هذا بنفسك. أعلم أنّ ما حدث ليس بالأمر الهيّن أبدا. ومن

حقّك أن تغضب منّي، فأنا السبب. أنا السبب في كلّ ما حدث ويحدث لك. لن أغفر ذلك لنفسي حتّى وإن أنت غفرت.

– لا. لا تلومي نفسك يا نادية. أنا من قاد نفسه نحو الهاوية، حتّى قبل أن أقابلك. أنتِ فقط تقاطعتِ مع طريقي فأوقعتك معي في هذا السقوط اللعين. أتدرين؟ لعلّي لم أكتف بما تسبّبت به لك من آلام، في الماضي، في خروجك من بيتكم وأنت بعد صغيرة، في فقدانك لمستقبلك الدراسي، في امتهانك لهذه المهنة الحقيرة، عفوا، لا أنوي الإساءة... ثمّ تسبّبت في كسر ساقك، وها أنا الآن أثقلك بأحزاني على ما بك من...

وضعت يدي فوق يده مقاطعة كلامه:

– لا عليك حبيبي! أنا معك، وسيظلّ قلبي يخفق باسمك حتّى إن ذهبت بعيدا عنّي وتواريت من جديد.

تنهّد وهو يشعل سيجارة:

– أفكّر أحيانا فيما وقع، وأقول لعلّ ما حدث هو بسبب خطاياي التي اقترفت، بدءا بك، مرورا بخياناتي التي لا تُحصى لنجاة، ووصولا إلى ما أحدثته بك من أوجاع مرّة أخرى. ثمّ أقول، ولعلّه كان سببا أيضا لأعرف حقيقة نجاة، التي لم تشأ أن تغفر لي رغم كلّ التوسلات، عكسك أنت التي غفرت لي، ولا زلت تفعلين. لعلّه القدر أراد أن يعاقبني على كلّ ما اقترفت فجمعني بك ليكون مسلسل آثامي واضحا أمامي، مكتمل الأبعاد.

أمسكت يده بين أناملي، ومحدّقة في عينيه الشاردتين في عينيّ قلت له:

– تزوّجني يا عبد الإله وابدأ حياتك من جديد. أجل، تزوّجني ودعني أستعيد روحي العالقة فيك.

حكاية أشرف

(5)

أشرف يحكي...

بينما كانت قضية الدكتور عمر تتحوّل إلى قضيّة رأي عامّ وطنيّ، اعتكفت أنا بالبيت اعتكافا ليليّا، أدخل فيه فور رجوعي من العمل وأستمرّ به حتّى ساعات متأخّرة من الليل.

لأكثر من أسبوعين، أغلق عليّ باب الصالة، واضعا عن يميني على الطاولة فنجانا من القهوة، وأمامي حاسوبي المحمول، المتّصل بالأنترنيت عبر شبكة الواي فاي المبثوثة من الجهاز المثبّت حيث الحاسوب المكتبي بغرفة أختيّ، والتي يستعمرها في هذا الوقت من اليوم أخي يقارع ألعابه الحاسوبية المجنونة. كنت منكبّا طوال تلك المدة على إعداد تقارير أخرى حول قضيّة الدكتور عمر، ترصد ردود الفعل المختلفة سواء من رواد مواقع التواصل الاجتماعي أو من مختلف المنابر الإعلامية، وصولا إلى ما ستؤول إليه القضيّة.

بعد أسبوع، كنت قد نشرت تقريرين جديدين، وقد كانا مفصّلين مع تغليبي للأسلوب السردي حتّى أنكّههما بعناصر من التشويق لجعل القرّاء في تعطّش لمعرفة المزيد. كانت شريحة واسعة من الناس مهتمّة بتداعيات قصّة الدكتور عمر، فكان الطلب على نسخ الجريدة يعرف ارتفاعا يوما

بعد يوم. وكنت كلّما بعثت شيئا عبر البريد الإلكتروني إلى رئيس التحرير إلّا وجاءني الردّ بعد ساعات عبر مكالمة منه، تنفرج عبرها كلماته عن حبور غير محدود. أمّا حين أزوره بمقرّ الجريدة فقد كان يأخذني من يدي يدعوني لشرب قهوة أو تناول شيء رفقته. كنت أشعر بالثقة العظيمة التي صار يوليها لي، وبالافتخار الضمنيّ بما أسديته لجريدته في تلك الفترة.

وبعد شهر تقريبا من نشر آخر تقرير عن قضيّة الدكتور عمر، والتي كان ملفّها قد أُقفل، دعاني رئيس التحرير لحضور اجتماع بمقرّ الجريدة. كان وقت الاجتماع في العاشرة من صباح الغد. لذلك فوّضت أمر مراقبة المحلّ، كما تجري الحالة حين أكون مضطرّا للتغيّب، لإبراهيم، وشدّدت عليه الاتصال بي في حالة أن جاء زبون من أجل الطلب أو الاستلام أو الدفع...

جلست على طاولة الاجتماع، مثلي مثل جميع الصحفيين المجتمعين، رغم أنّي لم أكن مثلهم صحفيّا رسميّا. لكنّهم جميعا صاروا يعرفونني الآن جيّدا، بعد الذي أثمرته قصّة الدكتور من متابعة ونجاح.

مباشرة ولج رئيس التحرير في صلب موضوع الاجتماع. قال إنّ البلد مقبل على انتخابات تشريعية، وعلينا كجريدة العمل على مواكبة هذه الاستحقاقات الوطنية. في البداية علينا تعريف المواطنين بالأدوار التي يلعبها البرلمان باعتباره السلطة التشريعية في البلاد، وما نوّابه إلّا ممثّلون لهم ومدافعون عن قضاياهم الحياتية. علينا أيضا الحديث عن الأحزاب المشاركة، تقريب الناس من برامجها وتوجّهاتها، وسرد مسيراتها النضالية وتاريخها. وأن نتحدّث عن الوزراء الحاليين، انتماءاتهم الحزبية، إنجازاتهم في الموسم الحكومي المشرف على الانقضاء وأيضا تعريف الناس بسيرهم الذاتية والمهنية. و... و... و... ثمّ أن نعمل على إقناع الناس بضرورة المشاركة بكثافة لاختيار المرشّحين المناسبين لتمثيلهم في قبّة البرلمان.

في الجزء الثاني من الاجتماع، قام رئيس التحرير بتقسيم المهام. كلّ صحفيّ يختار الموضوع الذي يلائمه، وإذا ما وقع الاختيار على موضوع

من أكثر من صحفيّ، وتشبّثوا جميعا به، فقد كان يجري لهم قرعة. وهذا الأمر لم يحصل إلّا مرّة واحدة، حين تشبّثت صحفيتان معا بموضوع إنجازات الوزراء وانتماءاتهم بعد انسحاب صحفيّ كان قد اختاره في البدء، لأنّ المكلّف بمتابعته قد يجري مقابلات مع مصادر مقرّبة من هذا الوزير أو ذاك. أمّا باقي الاختيارات فقد تمّ توزيعها عبر التوافق بين الآخرين.

بعد انصراف الجميع، وخروجي أنا خاوي الوفاض من الغنيمة التي قسمت أمامي، استمهلني رئيس التحرير وأنا أهمّ بالمغادرة، طالبا منّي الجلوس. ثم كشف لي أنّه قد احتفظ لي بالموضوع الذي فكّر أن يوليني إيّاه. لأنّها المرة الأولى التي سأعمل فيها مع الجريدة بشكل احترافي على حسب وصفه. وبعد أن حرّكت رأسي بالإيجاب المصحوب بابتسامة انتشاء، أخبرني أنّ مهمّتي هي صياغة سلسلة من المقالات، في حدود العشرة، تركّز مضامينها على تنبيه القرّاء إلى أهميّة مشاركتهم وعائلاتهم في الاقتراع الانتخابي القادم، وإقناعهم بأن صوتهم هو حقّ في ملكيّتهم، وعليهم عدم التفريط به واستخدامه، على الوجه الصحيح طبعا، ثمّ تعطي صورة طيّبة عن الأحزاب السياسية المشاركة والدور الفعّال الذي تتحمّله كحكومة وكمعارضة. وقال إنّ هذه نقاط بدئية، وما إن أشرع في الكتابة حتّى يزوّدني بالمزيد، وإنّه سيحرص على متابعتي وتوجيهي في ذلك.

ابتسمت في هدوء ناظرا إلى سطح الطاولة المستطيلة، ثم قلت له وأنا أميل بنظري صوبه:

– لكن يا سيّد عبد المجيد، أنت تعلم أنّ كثيرا من الناس مستاؤون من الأحزاب، ومن الحكومة، ومن نوّاب البرلمان ومستشاريه، وجريدتكم لم تكن تتوانى عن تأكيد هذا الاستياء عبر تقاريرها ومقالاتها، بل والعمل على الزيادة من حدّته عبر كشف تقاريركم للفضائح وملفّات الفساد والوعود الكاذبة. ثمّ إنكم نشرتم مقالي الطويل حول عزوف الشباب عن السياسة، وأنت تذكر النقد الحادّ الذي مارستُه ضدّ...

ضحك مقاطعا كلامي وهو يقوم عن الكرسيّ ويتمشّى إلى ركن الطاولة، ومستندا بيديه على حافّتها قال:

- يا أستاذ أشرف، نحن الآن في مرحلة أخرى. البلاد كلّها في مرحلة جديدة. الحكومة، النواب، التحالفات، كلّها توشك الآن ولايتها على الانتهاء. أتّفق معك أنّ الناس يبدون بعض الاستياء، وأنّ موقفهم من السياسة لا زال يشوبه الكثير من عدم الاكتراث. لكنّ هؤلاء الناس سيدفعهم استياؤهم لمتابعة ما يجري في المشهد السياسي، وسيبحثون، وسيطرحون الأسئلة، الكثير من الأسئلة، وسيدخلون في نقاشات في المقاهي، في وسائل النقل العمومي، في المرافق الإدارية، في مكاتب العمل ومصانعه... إلخ. وهم حين سيجدون في جريدتنا، وهذا ما تفعله كلّ الجرائد، هذه المواضيع التي تثير فضولهم، مهما يكن حجم الاستياء أو السخط الذي تحدّثت عنه، فهم سينجذبون لقراءة ما ننشر باهتمام وفضول، بل وسيحرصون على متابعته.

- لكنّنا هكذا كأنّنا نخدع، أو... نسوّق لسلعتنا بأسلوب...

- اسمع جيّدا. أنت شابّ ذكيّ، وكاتب جيّد، وأنا أعرف أنّك تكتب وفق مبادئ وقيم، وحتّى تقاريرك الصحفية هي ذات غايات نبيلة. لكن يا بنيّ، الصحافة لا تقاس بمعيار واحد. نحن هنا، أوّلا محايدون عن أيّ توجّه سياسي، وهذا أمر نحسد عليه من الجرائد الأخرى التابعة، غايتنا: هي أن يقرأ القارئ لنا لأنّ هذا هو ضمان استمراريتنا، والوسيلة: هي أن نعطي للقارئ ما يريد، ما يبحث عنه، مع مسايرة الموجة العابرة. وموجة هذه الأيام هي الانتخابات القادمة.

- أتّفق معك تماما، لكنّي لا أستطيع أن أكتب عن شيء لا أؤمن به. سأخدع الناس، وأنكر قناعاتي.

- هل تريد أن تصير صحفيا رسميّا معنا؟

- أجل، بكلّ تأكيد.

– أنت على مشارف أن تصير كذلك. وهذه المهمة هي الجسر الذي سيوصلك، أو سيبقيك بعيدا عن امتهان الصحافة. ليس معنا فقط، بل مع كلّ الجرائد.

طرحت رأسي أرضا في صمت، وبينما أفكّر في طريقة قول: «إنّي لن أقدم على هذا الأمر» بشكل ديبلوماسي، أكمل هو:

– لا تقل شيئا الآن! اذهب وفكّر في الأمر على روية، وستجدني على حقّ. بعد هذه المرحلة، سندخل في مرحلة الحملات الانتخابية، عندها سيبحث الناس عن تغيير في المواضيع، ونحن استجابة لذلك، إضافة إلى استمرارنا في مدح المشهد السياسي، سيكون الباب مفتوحا أمام صحفيّ الجريدة وكتّابها حول شتّى المواضيع التي تواكب المرحلة، عندها يمكن لك أن تكتب وتنتقد كما تشاء، هذا وعد منّي.

أخيرا، أنا على بعد خطوة من تحقيق حلمي الطفولي، أن أوافق على ما طلبه رئيس التحرير منّي فيعلنني صحفيّا رسميّا بالجريدة. هل أنا مستعدّ على مناقضة ذاتي في سبيل ذلك؟ أو العكس، هل أنا مستعدّ للتخلي عن حلمي وقد صار على بعد رمية حجر في مقابل قناعات لا تقدّم أو تؤخّر من شيء؟ ولما إذن أسحق نفسي بين حجري الخيارين وقد تغيّرت نظرتي للأشياء؟ فالصحافة لم تعد حلما مهنيّا بالنسبة لي. هي الآن هواية وشغف. أمّا طموحاتي المهنية فهي هناك، في مكتبي ذي الجدران الزجاجية بالشركة. راتبي يكاد يساوي راتب أهمّ الصحفيّين هنا. وأنا قد تعوّدت الاشتغال كصحفيّ حرّ، لا يملي عليّ أحد ما أكتب، ولا يفرض عليّ رئيس تحرير الموضوع الذي أحرّر. هذا ما أحببته في الصحافة وكتابة المقالات: حريّة الرأي والفكر. ولا أريد أن ألوّث تلك الصورة البديعة، التي أحتفظ بها نقيّة طاهرة بخزائن وجداني، برصاصات طائشة من حبر.

حكاية سمير

(8)

سمير يحكي...

أحيانا، يتركنا القدر نغرق دون هوادة في يأسنا، وكلّما حاولنا الخروج منه عدنا للسقوط أعمق فيه. ثمّ، يحدث أن يمدّنا القدر فجأة بطوق نجاة، كان في الأصل موجودا، قريبا منّا، لكن كنّا دون القدرة على إبصاره.

عدت إلى الورشة. شرّعت أبوابها أمام الطلبات. واستأنفت العمل بجدّية وطموح. كان لكلمات أشرف وقع منبّه الصباح الذي يظلّ يتكرّر كلّ خمس دقائق حتّى يبعثك من الفراش. في تلك الليلة، وبعد سمر خفيف في الصالون، رجعت إلى البيت وكلماته تدور على مهل ببقاع رأسي. وحين أردت الخلود للنوم وجدت تلك الغصّة العالقة بحلقي قد رحلت، وبأنفاسي تنساب عبر صدري على مهل وفي نظام. وحين استيقظت صباحا وجدتني أستحثّ الخطى نحو حيّ الفردوس، حيث حانوت الورشة ينتظرني منذ شهر لكي أطرد الرطوبة عنه.

والأهمّ، هو أنّي حين تلقيت أولى الطلبات في غضون ذلك الأسبوع، والتي كانت عبارة عن دولاب ملابس صغير أراده أحد جيران عمّي ليدعم به دولاب غرفة نومه القديم، وحملت المترو والقلم والمنشار ثمّ

قصصت شريط افتتاح ورشتي الخاصّة، كنت قد أحجمت عن التفكير في بنت المصلوحي، تلك التي عيناها كالشمس حين يرسمها الصغار على الأوراق البيضاء.

ومرّ شهر آخر. لكنّه بالنسبة لي كان شهرا مميّزا، إذ تغلّبت فيه على نفسي، استرجعتها واسترجعت إرادتي وبسمتي في وجه الحياة. طبعا في الأيّام الأولى تكون وتيرة العمل بطيئة، وحتّى الطلبات لا تتجاوز دولابا صغيرا ومائدة وكرسيّا، أشياء من هذا القبيل. لكنّ البدايات هكذا تكون بسيطة ولذيذة دائما. إنّها النفَس الأوّل الذي تسحبه من الهواء ما إن يتجاوز رأسك الغائص سطح الماء، عندها يكون بصرك إلى السماء.

وذات مساء، كنت جالسا بغرفة الجلوس أشاهد أخبار الرياضة على التلفاز، بينما أمّي وأختي نعيمة تثرثران كعادتهما بالمطبخ، التقطت أذناي رغم تركيزي الكبير على ما يقال في التلفاز اسم «المصلوحي»، وحين انصرف تركيزي بتلقائية إلى الحوار الدائر هناك، استرجع ذهني ما قالته أمّي من قبل أن تنطق ب «المصلوحي»، ثمّ ربطت ذلك بما هي في صدد إكماله:

– لقد التقيت بزوجة المصلوحي هذا الصباح في سوق الخضار، كانت رفقة ابنتها التي خُطبت...

– خفّضت صوت التلفاز.

– ...البنت بالكاد خُطبت، ومع ذلك ما شاء الله، ازدادت جمالا...

شعرت بصقيع يزحف عبر أطرافي. ثمّ تحوّل ذلك إلى رغبة عنيدة في البكاء. وعاد لوم الذات يضغط على صدري من جديد. لماذا تركت تلك الحمامة تطير من بين يديّ؟ هل كنت عاجزا عن إيجاد سبيل للوصول إليها؟ كان يكفيني أن أقولها لأمّي، كان ذلك كافيا، وسهلا، أسهل من كلّ ما كنت متردّدا في القيام به. ألم يكن هذا الحلّ ليخطر ببالي؟

توقّفت أمّي عن الكلام حين انتصبت واقفا أمامها بباب المطبخ.

- من هو ذلك الأستاذ الذي خطبها؟ سألتها دون مقدّمات.

ربما بدا لهما سؤالي غريبا، جعلهما تندهشان لاهتمامي بمعرفة خاطب بنت المصلوحي، فأنا قلّما اهتممت لمثل هذه الأخبار التي تتناقلها النساء. لكنّ أمّي ربما بلعت دهشتها، وردّت بنبرة عاديّة:

- إنّه من منطقة الريف، يعمل معها بنفس الثانوية.

- وهل هي لحقت لتعمل؟ وماذا تعمل بالثانوية؟ سألت وغرابة ما أسمع أحسّها تلتهم شعر رأسي.

- إنّها أستاذة هناك.

- أستاذة؟ منذ متى؟

- منذ سنتين تقريبا.

- كيف منذ سنتين وأنا أراها كلّ يوم تذهب إلى الجامعة؟

انفجرتا ضاحكتين.

- أراك صرت تهذي يا أخي. هل تشرب شيئا عند عمّي عبد السلام؟ قالت أختي ذلك وعادت لتفجّر ضحكها في وجهي.

كان جسدي يرتعش، شككت فعلا في أنّ ما أسمعه من أمّي ليس هو ما تقوله حقيقة.

- آه. أنت تقصد البنت الصغرى؟ فهي التي تدرس بالجامعة.

قالت ذلك نعيمة فتزاحمت أضلعي. راح قلبي يخفق بشدّة، وجسدي يزداد ارتعاشا، بينما لساني يسارع لطرح أسئلة جديدة:

- هل اسمها منى؟ البنت الصغرى التي تذهب إلى الجامعة، تلك التي عيناها مثل...؟ أم الأخرى، الكبرى، الأستاذة، التي تزوّجت...؟ من هي التي تزوّجت؟ هل هي منى أم...؟

- حفظك الله يا ابني من كلّ سوء. سمير ما الذي أصابك؟

- ابنك يتعاطى شيئا. لقد تأكّد ذلك الآن.

- أجيبي... وكفاك بلادة! قلتها زاجرا نعيمة.

- لماذا أنت عصبيّ هكذا، ومحروق على معرفة من التي تزوّجت من بناتي المصلوحي؟ أم أنّك...؟

- أجيبيني يا أمّي قبل أن أنزل على رأس هذه المصيبة بمقلاة.

- حسنا يا عزيزي، سنجيبك، ولكن هدّئ من روعك قليلا. التي تزوّجت، هي الأستاذة، إلهام، وهي البنت الكبرى. أمّا التي تدرس في الجامعة، هي البنت الصغرى، واسمها منى. لكن أخبرني يا بنيّ، لم أنت مهتمّ هكذا بأمر بنات المصلوحي؟

حكاية الأستاذ حسن الوردي وأسرته

(5)

مراد يحكي...

وكأنّ النحس مقدّر له أن يظلّ ملازما لي! والدي يسمّيه فشلا ويطلب منّي تجاوزه، وأنا أعتبره نحسا وأظنّه لصيقا بكلّ خطوة أرميها صوب تغيير حالي.

توقّفت عن تعاطي الحشيش، وتجنّبت التجمع مع أبناء الحومة، وحلقت لحيتي كموظّف أنيق، وغيّرت طريقتي في الكلام حتّى صرت كطلبة الجامعة المهذّبين. أقبّل رأس أمي كلّ صباح، وأبتسم في وجوه إخوتي وأجالسهم حين يتجمّعون حول التلفاز كما يفعل رجل عاقل مع أبنائه. أمّا والدي، فأنا لم أعد أكسر له كلمة أو طلبا. لكنّ النحس كشُرطيّ عنيد، يطاردني عند كلّ ركن وزقاق.

شهران فقط بعد استئنافي بيع أوان وأدوات معدنية برصيف شارع علي الشريف، حتّى هبّت عاصفة السلطات ضد الباعة المتجوّلين. ولمّا نجا جيراني بجلودهم وسلعهم، ظللت أنا فارها فاهي في دهشة وحيرة حتّى أتى الإعصار الهائج على نصف سلعتي. بل وكان واردا أن أبيت ليلتها في سجن قسم الشرطة، حيث اشتبكت بالأيادي مع أحد رجال القوات

المساعدة وقد راح يركل سلعتي بحذائه «البروتكان» الضخم، لولا تدخّل بعض تجار المحلات في الجوار لفكّ الاشتباك والتوسل إليه وأصحابه الذين التفّوا حولي كالزرازير أن يدعوني أمضي إلى بيتنا في سلام.

والدي اشتاط غضبا، وقال لي:

- أليس في جمجمتك دماغ تستخدمه؟ هل كان من الصعب عليك أن تجمع سلعتك سريعا كما الآخرين وتختفي عند أقرب زقاق؟

- إنّه النحس يا أبي.

- بل إنّه أنت. وها قد مضى نصف رأسمالك سدى.

في الشهر الذي بعده، ضربت أحد الباعة بآنية من حديد على ظهره، عندما أراد الاستيلاء على موضعي بالرصيف. هذه المرة تدخّلت عصابة من أولاد حومته وانهالوا عليّ باللكمات، فرجعت البيت ووجهي مزيّن بالكدمات. ولولت أمّي وبكت أختاي، وحين رآني والدي قال:

- في المرة القادمة سنذهب لزيارتك في السجن.

لكن ما سيحدث في «المرة القادمة»، بعد ثلاثة أشهر تقريبا من استقرار الوضع، هو أنّه خلف نفس المكان الذي أبيع على رصيفه، بدا أنّ مقهى جديدا على أهبة الافتتاح. ومن يوم أن بوشرت الأشغال به، طلب منّي صاحبه الاستعداد لبرح المكان. ربما كان بإمكاني التقدم كما الآخرين، وفرش مبيعاتي وسط الطريق، لكن جنب الطريق على طول الشارع، كلّه كان محجوزا من طرف الباعة الآخرين.

أليس هذا هو النحس بعينه؟

نهايات حكايات، بدايات أخرى؟

حكاية الأستاذ عبد الرحمن فالح

(3)

الأستاذ عبد الرحمن يحكي...

تلك كانت صفعة جديدة تلقّيتها على خدّي. وجميع الذين كانوا حولي أُصيبوا بإحباط وانكسار. نظرت في وجوههم الشاحبة الواجمة، وأعلنت لهم أنّنا لن نستطيع المواصلة بعد هذا. قلت لهم: عودوا إلى بيوتكم وناموا جيّدا لترتاحوا، ولا تحملوا مزيدا من الهمّ على همومكم. لقد تعبتم كثيرا رفقتي في سبيل غاية نبيلة. لكن، ليس كلّ الناس يفكّرون على نفس منوال تفكيركم. والنتيجة أنّنا خسرنا جولتنا الحاسمة هذه، التي خضناها بكلّ ما امتلكنا من قوّة، ولم ندّخر في سبيلها أدنى جهد...

كنت واقفا في ساحة وسط البلدة، أمام باب مكتب فرع الحزب، أتلو كلماتي هذه. وكانت نظراتي كلّما اصطدمت بمقل تلاميذي الملأى دمعا وحزنا، إلّا وتوقّفت عن الكلام، وضغطت بجفنيّ على عينيّ، أستجمع رباطة جأشي حتّى لا أنهار أمام الجميع بالبكاء.

كانت تلك آخر خطبة ألقيها على أنصاري، أو بالأحرى ما تبقّى منهم، إذ أنّ جلّ الآخرين لووا رؤوسهم نحو وجهات أُخر، كما يحدث دائما عندما تحلّ نهاية المعركة وأنت القائد المهزوم. بعدها عدت إلى حياتي

الطبيعية، في ذهاب وإيّاب عبر الطريق الذي يفصل البيت بالثانوية. فحتّى الجمعيات انسحبت منها، لأنّي كنت أدرك أنّ موقفي قد صار ضعيفا أمام الجميع، لا سيما هؤلاء الذين يحاربون الإصلاح. وحتّى هؤلاء الذين كانوا إلى جانبي في السراء والضراء مؤمنين بأفكاري ومتفائلين بأفعالي، هم أيضا فقدوا جزء كبيرا من الثقة في أن يتغيّر الحال كما يودّون، حال بلدتهم وحال المنطقة برمّتها حيث انتماؤهم وغيرتهم عليها تشعلان نارا في صدورهم، فتراجعوا جميعا عن أحلامهم وعادوا إلى دورة أيّامهم العادية التي تردّهم في كلّ مساء من حيث خرجوا في الصباح. حتّى خروجي عن موضوع الدرس مع التلاميذ صار دون معنى، وإن كنت لا أزال حريصا على القيام به رغم كلّ شيء.

أتممت تلك السنة في انزواء عن الجميع، حتّى الأنشطة الحزبيّة توقّفت عنها، واكتفيت بالعيش كملاحظ لما يجري من أحداث ومستجدّات في البلدة والمنطقة، دون إزعاج نفسي بمعرفة التفاصيل. وكان الشيء الحسن الوحيد الذي حدث لي مع نهايتها هو حصولي على الانتقال من عملي. هذا الانتقال كنت أتقدّم له منذ سنين عبر ما يسمّى بحركة الأساتذة الانتقالية، بهدف الاشتغال قريبا من العاصمة حيث مقرّ الحزب، لأكون مواظبا على حضور نشاطاته وخلق علاقات جديدة قد تفيدني في كثير من الأمور. لكن ارتباطي بشأن البلدة السياسي كان سيظلّ قائما لو أنّ هذا الانتقال حصل قبل الواقع الفظيع الذي حلّ بي، لأنّي لم أكن لأتراجع عن مسيرتي السياسية هناك، ولا لأخذل ساكنة البلدة الذين أولوني ثقتهم وآزروني بدعمهم. لكن في النهاية جاء الانتقال حين كان كلّ ذلك قد انتهى، فكان هو البلسم الذي خفّف عن نفسي صدى ما حملت من أوجاع، وما تكبّدت من إخفاقات.

بثانوية بمركز مدينة تمارة اشتغلت، وبحيّ المغرب العربي قطنت رفقة أسرتي الصغيرة. وبينما كان الحزب يجدّد هياكله وقياداته كنت أنا أندمج بالتدريج في مناخ عملي وسكني الجديدين. وفكّرت أنّ التغيير الذي

شاب حياتي الآن، وتواجدي في مكان يختلط فيه الطابع المدني بالبدوي، وتتلاقى فيه طموحات التجار بأشغال الحرفيين ومطالب الموظفين... هو فرصة جديدة أمامي للرجوع إلى عالم السياسة. ولن يتطلّب الأمر منّي غير وقت للاقتراب أكثر من هؤلاء الناس الذين وجدتهم اجتماعيين بشكل ملفت، والحصول على دعم ملائم من الحزب الذي راح يتجدّد.

سار كلّ شيء على أحسن ما يرام. وقد منحني التغيير الحاصل على الحزب نَفسا جديدا، فانشغلت أكثر بالسياسة، وانكببت على كتابة المقالات ونشرها بجريدة الحزب ومختلف الوسائط الإلكترونية، بدءا بمواقع الأنترنت، وصولا إلى حائط فايسبوك ومجموعاته الافتراضيّة. وعملت على التنويه كثيرا في كتاباتي وتدخّلاتي بما يحصل في هيكلة الحزب من تجديد على مستوى القيادات والرؤى أيضا، لا سيما أنّ كثيرين من مناضلي الحزب القدامى والذين رافقتهم لسنوات عادوا للواجهة بعد تجاهل فادح كانوا قد تعرّضوا له من القادة السابقين. وجميل أيضا، أن ترى مجموعة من الشباب الواعد قد وجدوا موطئ قدم لهم في المقدّمة، كأعضاء في المكتب التنفيذي، ممّا يُعطي انطباعا طيّبا حول الغد.

وفي انتظار أن تتجلّى ملامح الغد، أسست رفقة بعض الأساتذة جمعية ذات أنشطة خيريّة بتمارة، وجعلناها تتحرّك بشكل فعّال. ذاع صيتها بالمدينة سريعا، فانضمّ إلينا الكثير من شباب الأحياء ذوي ميولات العمل الجمعوي، وحظينا بدعم مادّي من كثير من الأثرياء المحسنين، وحتّى رجال السلطة بالمدينة أعجبتهم أفكارنا وأسلوب عملنا، فراحوا يشاركوننا بحضورهم في بعض أنشطتنا تلك.

وعندما اقترب موعد الانتخابات الجماعية مرّة أخرى، بعد ما يقارب سنتين عن انتقالي إلى تمارة، كان عليّ أن أباشر الاتصال بقياديّ الحزب ووجهائه تمهيدا لحصولي على تزكيّة الترشح كوكيل للائحة بالدائرة الانتخابية حيث أقطن. حين كنت بالبلدة، كان خبر حصولي على مثل هذه التزكية يصلني حتّى دون أكون قد تقدّمت بطلبه. لكن هنا، بمدينة قريبة من

العاصمة كتمارة، بدا لي من الوهلة الأولى أنّ حصولي على التزكية لن يكون هيّنا، وسيتطلّب مروري عبر حلقات من العلاقات والتوصيات. لكن زميلي بالحزب، حميد الإدريسي، الذي يشتغل محاميا بهيئة الرباط، طمأنني:

– لا تقلق، لا يوجد منافسون أشداء لك هناك على رئاسة اللائحة. وإن يكونوا حتّى، فأنت الأحقّ بها. منافسوك فشلوا دائما هناك في الحصول على مقعد، وأنت اليوم تحظى بشعبية وشهرة لا يتوفّر عليهما الأمين العام بدائرته.

أجبته ضاحكا:

– اخفض صوتك أن يسمعك أحد فيخبره.

وهل يستطيع منعي عن قول الحقيقة.

– طبعا لا، لكنّه يستطيع منعي من الحصول على التزكية. أمّا أنت، فتتكلّم هكذا لأنّك لست في حاجة لها.

– في هذه معك حقّ.

ثمّ ضحكنا معا ونحن نغادر حديقة مقرّ الحزب.

رحلة بحثي عن التزكية أوصلتني أمام أحد قياديّ الحزب الجدد. لكنّ تاريخه بالحزب قديم. لذلك شعرت بالارتياح فور شروعنا في مناقشة طلبي، إذ قلت مع نفسي سي هشام مناضل من الأجيال الأولى، وهو الآن يعود ليمثّل حركة التجديد في الحزب، فأنا كثيرا ما أُعجبت بخطاباته وأيّدت تصوّراته، بل قد أشدت بشخصه في كثير من المنابر حين تسلّم هذه المهمة القيادية، وحتما قد بلغته أصداء ما كتبت في حقّه.

بعد أن أنصت باهتمام لطلبي حول الحصول على تزكية وكيل اللائحة، مؤكّدا له على المكانة التي بتّ أحظى بها الآن بين ساكنة الدائرة، وأنّها هي ما حفّزني للترشح، طلب منّي مرافقته إلى مكان آخر.

بحجرة مكتب صغيرة في عمق بناية المقرّ جلسنا، وجها لوجه، بعد أن أقفل هو الباب خلف ظهرينا. ومن دولاب قريب ليده صار يبحث، قبل أن يُخرج منه ملفا وضعه أمامه. وهو يفتحه قال:

- انظر يا سيّد عبد الرحمن، هذه سبعة طلبات لمرشحين يريدون نفس وكالة اللائحة التي تطلب أنت.

ابتسمت:

- طبعا، فأنا أعلم أنهم يريدونها.

تراجع إلى الخلف قليلا قبل أن يشبك أصابع يديه فوق الملفّ المشرّعة أوراقه:

- إذن، كيف أقرّر أيّكم أجدر بوكالة اللائحة؟

- يا سيد هشام، ما كنت أنا لأطلب هذه التزكية لو لم أكن متأكّدا من كوني في وضع مناسب لها.

- جميعهم سيبرّرون ترشّحهم على منوال ما تقول.

نظرت في وجهه المكتنز في عجب، ثمّ عقّبت:

- أعتقد أنّ وضعي مختلف كثيرا عنهم، أنا مطّلع جيّدا على وضع كلّ واحد منهم. على الأقلّ أنا أُعتبر في كلّ دوائر تمارة رجل مجتمع مدنيّ، وهذا بشهادة كلّ من يعرفني هناك، كما أنّ...

قاطعني:

- حسنا إذن، أنت مصمّم على حصولك على هذه التزكية؟

- بكلّ تأكيد، إنّها فرصة لي لدخول مجلس الجماعة مرّة أخرى، خدمة للساكنة وللحزب أيضا...

- إذن، لندخل في صلب الموضوع. كم تدفع لتحصل على هذه التزكية؟

- ماذا؟ قمت من مكاني من هول ما سمعت.

- اجلس يا أستاذ عبد الرحمن، نحن هنا لنتفاوض.

عدت للجلوس وجبهتي قد راحت تتصبّب عرقا.

- سأبسّط الأمر عليك. تدفع لي مئتي ألفي درهم وأجعلك على

رأس اللائحة، وأجعل بعدك المرشّحين الآخرين، الأقوى فالأقوى، وإذا نجحت لائحتنا، وهذا ما نرجوه طبعا جميعا، أضمن لك دخول مجلس الجماعة.

مستندا في استرخاء على الكرسيّ، مع جعله يدور يمينا وشمالا، سألني وهو يبتسم:

- ما رأيك؟

وأنا أمسح العرق عن جبهتي ووجهي بمنديل ورقيّ أجبت بنبرة منفعلة:

- أنا لا أسمح لك أن تستفزّ نزاهتي بهذا الشكل. في البداية جعلتني أوضّح لك أسباب رغبتي في الترشح، والآن تطلب منّي رشوة. هكذا عيانا بيانا.

- إذن كما تشاء يا أستاذ. أجاب ببرود.

وقفت عن الكرسيّ حاملا محفظتي:

- هل نسيت أنّي مناضل قديم بالحزب، قدّمت له الكثير من الخدمات، ولي مواقف قوية وإنجازات ذائعة الصيت؟ ألست الأحق بهذه التزكية؟

- أنا أعرف نضالك الحزبيّ بتفاصيله يا أستاذ عبد الرحمن. لكن بماذا سيفيدني نضالك هذا؟

فاركا إبهام يده بالسبابة والوسطى، في إشارة إلى المال:

- لكنّ هذا ما يفيدني يا أستاذي العزيز!

صفقت الباب خلف ظهري. غادرت بناية الحزب بحنق يأكل أطرافي، والصدمة تفترس ما تبقّى من معالم الارتياح على وجهي. لقد كانت تلك صفعة أخرى، وربما أخيرة، جعلتني أنسحب من الحزب، وأدخل في دوامة أسئلة مع نفسي: «هل أعتزل السياسة بعد هذا العمر؟ أأطوي صفحات نضالاتي ثمّ أقفل عليها بين دفتيّ دفتر مذكّرات؟...؟».

حكاية عبد الإله المنصوري ونادية

(10)

شهريار يحكي...

ما كدت أقفل ملفّ حكاية عبد الإله حتّى وجدتني أمام معطى جديد.

عاد عبد الإله ذات مساء إلى شقّته وبصحبته امرأة بجلباب وحجاب على الرأس. وعادت مع ذلك الشبهات حوله لتطرح نفسها: هل رجع عبد الإله إلى اصطياد بائعات الهوى، ومنزله هنا سيكون وكره الجديد؟

ربما كانت لتصحّ هذه الفرضيّة لولا أنّ الجيران وأصحاب المحلّات لاحظوا أنّ المرأة كانت كلّما خرجت رفقة عبد الإله إلّا وعادت معه من جديد إلى الشقّة. بل وشاهدتها الجارات في العمارات المقابلة وهي تتصرّف في المطبخ، وتنشر الغسيل في الشرفة كأنّها صاحبة بيت. ربما أحد الجيران سأل عبد الإله عنها، أو أنّه لم يفعل، لكن عبد الإله قال له إنّ المرأة التي برفقته هي زوجته الجديدة.

ثمّ شاع بعد ذلك الخبر في الحيّ.

بعد أيّام، زارني عبد الإله في الصالون من أجل حلاقة كالعادة. وكان عليّ أن أتأكّد ممّا يروج، فسألته دون تردّد، مادام هو من حكى لي سابقا عن مغامراته دون أدنى تحفّظ:

– هل فعلا تزوّجت؟ أخبرني أحدهم، لكنّي قلت مع نفسي، يجب أن أسمعها منك.

– أجل. أنا من أخبر أهل الحيّ. أنت تعلم الناس لا شغل لهم إلّا النهش في أعراض الآخرين. وحتّى أردع عيونهم التي لا تنفكّ تطاردني وزوجتي، صرّحت لهم بأمر زواجي.

ابتسمت قبالته في المرآة مباركا له الزواج. لكنّه لم يضف على ما قال شيئا آخر. وأنا أيضا لم أسأله عن شيء آخر. رغم أنّ أهل الحيّ كانوا يطرحون تلك الأيّام فرضيات جديدة عن الزوجة الجديدة الغامضة. فبعضهم قال إنّ عبد الإله جلبها من بلدهم. آخرون قالوا: بل هي قريبة له. وآخرون قالوا: هي إحدى تلك فتياته قد حملت منه وهو تزوّجها درءا لفضيحة جديدة، أمّا الأغرب، فهو أنّ إحدى النساء قالت إنّها تعرفها، تعمل في معمل للنسيج بالحي الصناعي، وهي صديقة لزوجته نجاة، ما علمت بأمر الطلاق حتّى سارعت إلى التلاعب به وإيقاعه في الشباك، وربما استخدمت السحر لفعل ذلك...

وقيل، وقيل، وقيل. لكنّي وأنا أفرد حكاية عبد الإله كخيوط نسيج بين جدران ذاكرتي، فكّرت أنّ ظهور هذه المرأة، الزوجة الجديدة، هكذا فجأة ووفق هذا الشكل، يجعل الحكاية غير مكتملة العناصر تماما، بل لعلّ ثمّة حلقة مفقودة لم تنكشف لحدّ الساعة، لا سيما أنّ عبد الإله لم يتحدّث لحدّ الآن إلى أيّ أحد عن تفاصيل زواجه المشبوه هذا.

هذه الحلقة المفقودة من حكاية عبد الإله أرّقت فضولي لوقت طويل. فقد كنت أنتظر عند كلّ يوم يجيئني فيه زبون على معرفة قريبة بعبد الإله أن يقول شيئا لا نعلمه نحن عن القصّة، شيئا كان ضالّا عن ألسن هؤلاء الرواة أن ينطقوا به، أو خبرا ظلّ مخفيّا في مكان عميق، فتناقلته الأحاديث حتى وصل إلى هنا، أو اعترافا منه هو، صرّح به لأحد المقرّبين بعد أن ازداد

ثقلا على صدره. هكذا ظللت أتوقّع حصولي على إفادة جديدة تكمل الحكاية وتطفئ فضولي المتّقد.

مع حكاية عبد الإله كانت حكايات أخرى كما العادة تُروى بالصالون، لذلك كان مصير حكايته مع مرور الوقت أن تُطوى في رفّ بخزانة بذاكرتي ويُقفل عليها، ليتاح لحكايات أخرى أن تتربّع على عرش اهتمام روّاد الصالون ومنه اهتمامي أنا أيضا.

لكن، كثيرا ما تجيئنا الرياح العاصفة من حيث لا نعلم وبما لا نعلم. ففي الوقت الذي تأقلم فيه الجميع مع حياة عبد الإله الجديدة، بعد الفضيحة والطلاق والزوجة المجهولة، جاءني ذات مساء متأخّر بوشعيب، الذي يعمل مسيّرا لأحد المقاهي بشارع عمر بن الخطّاب، جلس على الكرسيّ يريد حلق رأسه. كنت أنا مرهقا جرّاء العمل المتواصل طوال العشيّة واللّيل، لذلك رحت أحلق له ببطء وفي صمت، بينما بدا هو جدّ متحمّس للحديث معي، إذ راح ينتقل عبر مواضيع كثيرة جلّها شكاوى عن ظروف عمله، بين صرامة صاحب المقهى في التعامل معه، وعقليّات زبائن المقهى. وحيث أنّه لم يكن أحد سوانا في ذلك الوقت بالصالون، فقد اضطررت إلى متابعته بإنصات مصطنع وتعقيبات عشوائيّة. ثمّ فجأة سألني:

– هل تعرف ذلك الموظّف، الذي انفضح أمر خيانته لزوجته عن طريق حادثة سير تعرّض لها رفقة خليلته؟

توقّفت عن تحريك آلة الحلاقة، وتحمّست لهذا السؤال وكأنّي تناولت جرعة سريعة من كافيّين مركّز.

– عبد الإله؟ أجل. ماذا به؟

– يقولون إنّه طلّق امرأته، وتزوّج أخرى.

– أجل، أعرف. لكنّ أهل الحيّ يكاد يأكل رؤوسهم الفضول لمعرفة من تكون هذه الزوجة الجديدة؟

– حسنا، قالها ثم ضحك، أنا أعرف من تكون.

– حقّا؟ قلتها في تعجّب مبالغ فيه، بغاية استدراجه للبوح.

– بالمقهى، تعمل عندنا نادلة، تقول إنّ زوجة عبد الإله الجديدة زبونة قديمة عند أختها، التي تشتغل بصالون بحيّ يعقوب المنصور...

– ومن تكون إذن، زوجته هذه؟ قاطعته.

– إنّها نفس المرأة التي ضُبطت معه في الحادثة.

– نادية؟ قاطعته وقد انفتح فمي حيرة ودهشة.

– أجل. هل تعرفها؟

– لقد حدّثني عنها.

– وهل تعرف قصّتها معه؟

– أعرف فقط، ما أخبرني به هو.

– حسنا، نادية أخبرت أخت النادلة بكلّ تفاصيل حكايتها مع عبد الإله. جديدها وقديمها...

كنت لاأزال متوقّفا عن الحلاقة، وقد جمعت ذراعيّ أمام صدري، وكنت أحدّق دون وعي في شعر بوشعيب الذي جُزّ البعض منه بينما كان الباقي يظهر كتضاريس تلّيّة. وفكّرت: «ربما في جعبة هذا الشاب الذي لا يعرفه عبد الإله ولا نادية ما أبحث عنه أنا لإكمال الحكاية: حلقتها المفقودة!»، فقلت له مرحّبا:

– احك لي إذن ما أخبرت نادية أختَ نادلتكم، فأنا كذلك أريد سماع الحكاية بصوتها هي.

ابتسم بوشعيب في روقان، ثمّ راح ينقل لي الرواية الجديدة بينما أنا أحيل، دون وعي، تلال شعره إلى سهول مستوية.

حكاية سمير

(9)

شهريار يحكي...

عندما أخبرَنا سمير أنّ بنت المصلوحي التي ستتزوج ليست هي فتاته، وإنّما هي أختها الكبرى التي تعمل أستاذة بثانويّة بإقليم الحسيمة، اعتراني شعور جمع بين الغبطة والاستياء. فأنا من كان وراء سوء التفاهم هذا، الذي قاده للسقوط في إحباط عميق. ولولا أنّه علم ذلك من أمّه وأخته لما عاد للتفكير في منى، ولاعتبرها دائما خارج حساباته، دون أمل واضح في نصيب قادم له معها.

لكن، ثمّة نقطة ضوء إيجابية فيما حدث، وهذا ما بعث بنفسي أنا بارتياح ورفع عن كاهلي الإحساس بالذنب. لأنّ ذلك دفع بسمير ليكون أكثر حسما في مسألة رغبته الارتباط بالفتاة. وهو لم ينتظر كثيرا. ولم يمهل نفسه وقتا إضافيا لاستجماع أنفاسه ولملمة أفكاره المضطربة، بل ظلّ واقفا على رأس أخته كلّ يوم يستحثّها أن تكلّم الفتاة، أو بالأحرى أن تسألها فقط إن كانت تقبل أن يطرق أخوها باب دارهم يطلب يدها. قال لي سمير إنّه أراد أن تصل الرسالة لمنى مباشرة، دون المرور على أمّها وأمّه، حتّى إن رفضته ظلّ الأمر بعيدا عن خلق أيّ حساسية مستقبلية في العلاقة بين العائلتين، ثمّ هو يريد أن يسمع ردّها الخالص دون ضغط أو توجيه من أمّها أو أيّ شخص آخر.

نعيمة، أخت سمير، أخذت الأمر في النهاية على محمل الجدّ، بعد أن ظنّت في الأوّل أنّها مجرّد مزحة من أخيها لا غير. وحين قرّرت القيام بذلك لم تجد صعوبة في فعله. لم تتردّد ولم تتوتّر. وهذا ما أثار عجب سمير.

– النساء يبرعن في القيام بمثل هذه الأمور. قلت له.

– إنّه اختصاصهن. عقّب أشرف ضاحكا. بل يفعلنه وهنّ مبتسمات في سرور.

الفتاة، منى، تعرف مسبقا أنّ نعيمة هي أخت الفتى الذي يعمل في النجارة مع المعلّم الوجدي، لذلك عندما استوقفتها نعيمة وهي في طريقها لسخرة عند البقال، عرفت، قبل أن تبدأ نعيمة بالكلام، أنّ الأمر مرتبط بالفتى النجّار الذي يطاردها في الحافلة وحتّى باب الكلّيّة.

– أنا لازلت أدرس، أنت تعلمين. ولا نيّة عندي الآن في الزواج.

– في أيّ سنة أنت الآن؟

– السنة الأخيرة في الإجازة.

– وما المانع إذن؟ يتقدّم لخطبتك وينتظر حتّى تنهي دراستك.

– لكنّي لا أعلم حين أحصل على الإجازة، إن كنت سأبحث عن عمل أم أكمل الدراسة؟

– إلى ذلك الحين، تجدين الحلّ المناسب.

– لا أدري صراحة يا نعيمة ما أقول؟ أنا حائرة.

– اسمعي يا عزيزتي، سمير أخي، هو إنسان طيّب ومتفهّم، أنا أعرفه جيّدا، وهو يحبّك، أجل. فلم يسبق لسمير أن فاتحني في موضوع فتاة قبلك. لو ترينه كيف جُنّ فرحا عندما اكتشف أنّه كان مخطئا حين ظنّ أنّك من ستتزوّجين، إلى درجة أنّي اعتقدت والله العظيم أنّه قد شرب شيئا.

تضحكان معا، ثمّ تعود نعيمة سريعا لمواصلة الكلام لعلّها تقنعها بشيء:

– ثمّ هو لم يعد يعمل عند الوجدي، لقد صارت لديه ورشة نجارة خاصّة به بحيّ الفردوس، وهذا سيجعل دخله يتضاعف ويتضاعف، فأخي نجّار بارع.

– أعرف أنّه نجّار بارع. لقد سُرّت أمّي بالصالون الذي أعدّه لنا. فقد كان أبي كلّما مرّ على ورشة الوجدي إلّا ووجده منكبّا بتركيز عال في الاشتغال عليه.

تبتسم أخت سمير على هذه الإفادة التي تقوّي ملفّ أخيها.

– إذن ما رأيكِ يا عزيزتي؟

تطأطئ منى رأسها في خجل:

– لا أعلم. ربما عليكِ الحديث مع أمّي. ثمّ إنّ أبي هو من يقرّر في النهاية.

– وهل أنت موافقة؟

– والداي هما من سيبثان في أمر الموافقة من عدمه. أنا أستشيرهما في كلّ صغيرة وكبيرة.

في الغد، كلّمت أمّ سمير زوجة المصلوحي، بعد إلحاح طوال الليل من سمير. وبعد يومين أجابتها أنّها كلّمت زوجها وأنّه أجابها بأنّ على أب سمير مفاتحته في الموضوع. سمير مع كلّ مرحلة كان يزداد توتّرا وقلقا، لا سيما مرحلة الآباء هذه. فأبو سمير رجل هادئ الطبع ومسالم. ولن يكون مستعدّا لتفاوض أكبر إن كان جواب المصلوحي غير مشجّع. بل إنّه قد يرجع مع أوّل كلمة غير متحمّسة من المصلوحي وهو مقتنع أنّ هذا الزواج لن يكون مناسبا لا لابنه ولا لابنة المصلوحي. لكنّ أبا سمير، السيد أحمد، وربما هذا ما لم يكن يعرفه سمير، هو رجل يحترمه سكّان الحيّ، لطيبته ومعقوليّته، وكلمته دائما تؤخذ على محمل الرجاحة والصّدق. فحين جلس مع المصلوحي بأحد مقاهي الحيّ، حدّثه عن كون ابنه الآن بدأ التأسيس الفعلي لمستقبله، فهو قد فتح ورشة نجارة، ولم يعد

مجرّد عامل تابع، إنّما صار له دخل هو من يتحكّم فيه، وهو معلّم يعرفه سكّان الحي ببراعته ومصداقيّته. وأمر الورشة الجديدة هذا قد جعل منه رجلا مسؤولا، ذا طموح ورغبة في بناء مستقبل لائق...

– ...وأنت تعلم يا سي المصلوحي، الرجل حين يطمئن في عمله ويستقرّ، يفكّر في إنشاء أسرة، ونحن كذلك شجّعناه على الفكرة. وطبعا لن نجد أفضل من ابنتكم لابننا ولا منكم لنكون معا عائلة واحدة. أنت يا سي المصلوحي رجل معقول، وتفكّر بشكل واع، وهذا يجعلك أدرى بما هو خير لابنتك.

– والله يا سيد أحمد ما تركت لي ما أضيف. فكلامك عين الصواب. لكن كما تعرف، البنت لاتزال صغيرة، ولم تنه بعد تعليمها، والزواج في النهاية، بيت وأبناء ومسؤوليات.

– بنتك إن أرادت أن تكمل دراستها أو أن تعمل، لن يمنعها أحد. هذا على ذمّتي، وعد منّي لك. وأضمن لك أن أضعها بين عينيّ كنعيمة ابنتي تماما.

– أنت يا سيد أحمد رجل طيّب وزوجتك وأبناؤك كذلك. ولن أستطيع ردّك بعد الذي قلت. هكذا يكون كلام الرجال.

– إذن؟

– إذن مرحبا بكم في أيّ وقت.

سمير وأبوه وأمّه وأخته وأخوه الأصغر، ذهبوا ذات سبت جميعا طارقين بيت المصلوحي، طالبين راغبين في ابنته المصون مُنى زوجة لابنهم سمير. الفتاة كانت راغبة في سمير منذ البدء، فمطارداته لها آتت أكلها دون أن يكون هو متيقّنا من ذلك، غير أنّها لم تتوقّع أن يرغب هكذا في الزواج بها. وحين علمت بذلك من أخته بدا لها الزواج كنجم آخر من مجرّة أخرى، فلم تدر أتمضي صوبه بسرعة الضوء أم تؤجّل سفرها هذا في الفضاء إلى وقت تتقارب فيه مجرّته بمجرّتها؟ لذلك، تركت هي في النهاية مسألة الحسم لوالديها، فهما الأقدر على معرفة إن كان هذا الوقت مناسبا لها للسفر أم لا؟

حكاية الدكتور عمر

(9)

شهريار يحكي...

حين عرض البروفيسور بنهلالي على الدكتور عمر الالتحاق للعمل معه بمصحّة أو عيادة بدل وظيفته في مندوبية تمارة، دخل الدكتور عمر في حيرة أخرسته عن الردّ لأيّام. وكان طوال هذه المدة يفكّر: «إنّما يريد البروفيسور استغلال الشهرة التي حظيت بها مؤخّرا، لاستقطاب المزيد من الزبائن، ليس من الرباط وتمارة وسلا والنواحي فقط، وإنّما من البلاد كلّها. أو ليست شهرة قضيّتي قد بلغت أقاصي الوطن؟». لكن صديقه الدكتور عثمان انتبه إلى مرور كلّ هذا الوقت دون جديد منه. فسارع إلى أخذه من باب داره بسيارته لاطلاعه على المكان الذي عرضوا عليه الاشتغال به. قال لي الدكتور عمر في آخر مرة زار صالوني فيها:

– أووووه يا نبيل. حين وقع بصري على تلك العيادة، ورأيت كيف هي مختلفة عن أيّ عيادة سبق لي وأن رأيتها، وكيف هي مجهّزة، ومنظّمة، وبها كلّ ما يحتاجه طبيب مثلي ليقوم بعمله على أحسن وجه. ظننتني في حلم شتوي جميل. بل حتّى مختبرا التحليلات الطبية والفحص بالأشعة، التابعان لأشخاص من عائلة البروفيسور موجودان في نفس الشارع حيث

العيادة. أيّ أن المريض يكفيه بضع خطوات ليكمل فحوصاته دون عناء نقل أو تضييع للوقت. تلك العيادة يا نبيل، بألوان جدرانها الزاهية، وزجاج أبوابها العاكس، ونظام إنارتها المريح للبصر، ولباقة العاملين بها، تشرح الصدر، وتجعل المريض يتهيّأ نفسيا للعلاج حتّى قبل أن يلج إلى غرفة الفحص.

– إذن ما كان ردّك؟

– كما أخبرتك، البروفيسور يريد الاستفادة من شهرتي. قلت مع نفسي: «ليكن! أنا أيضا سأستفيد جدّا من عرضه هذا!». أتدري ما يهمّني في كلّ هذا العرض يا نبيل؟

– ماذا يا دكتور؟

– أنّي سأعود لأزاول المهنة التي أراني قد خُلقت للقيام بها: مهنة طبيب.

حكاية الأستاذ حسن الوردي وأسرته

(6)

شهريار يحكي...

كان سمير جالسا رفقة عادل فوق كراسي الانتظار بالصالون، بينما مراد، ابن الأستاذ حسن الوردي، يحكي لي قصّته الأخيرة مع «النحس» الذي يصف به حالة الفشل الملازم له، وكيف أنّه يوشك أن يعود لضياعه إثر انفتاح مقهى جديد عند الرصيف الذي يبيع فوقه. وعندما أنهى حديثه وعاد للتحديق في رأسه الخاضع لسلطة مقصّي على المرآة، اخترق لحظة الصمت صوت سمير سائلا:

- هل تريد الحصول على عمل؟

توقّفت أنا عن تحريك المقصّ موجّها ومراد نظراتنا صوب وجه سمير المعكوس على المرآة:

- أعمل طبعا، إن وجدت شغلا يناسبني ويصرف أبي عن المبالغة في توجيه نقده اللاذع لي. ردّ مراد بحزم.

- إذن فاسمع! أنا الآن أعمل في الورشة بمفردي، وعمّي لا يقدّم المساعدة المطلوبة لي، باستثناء براريد الشّاي وأحاديث يؤنسني بها. ومع تزايد الأشغال عليّ، وجدتني أفكّر في تشغيل مساعد...

– لكنّي لا أفقه يا أخي سمير في النجارة شيئا!

– لست في حاجة الآن إلى نجّار. بل إلى مجرّد عامل، يقف إلى جواري وأنا أشتغل، يمدّ لي آلة، يحمل معي لوحا، يأخذ عنّي قياسات، يوصل طلبات...

– متعلّم تقصد! قاطعه عادل.

– تقريبا. ومع مرور الوقت سأدفع بك لتتعلّم فنون الصّنعة.

– وهل ستدفع لي جيّدا؟ قالها مراد وهو يفتح فمه ضاحكا.

– على حسب ما سأجنيه عن كلّ شُغل، وأيضا حسب مساهمتك في إنجازه.

– حسنا. ومتى أبدأ؟

– من الغد إن شئت. المحلّ أنت تعرفه. تعال إلى هناك لترى كيف يسير الشغل ولأشرح لك أكثر.

حكاية أشرف

(6)

شهريار يحكي...

كانت فرصة من ذهب، وضعها رئيس تحرير جريدة «صوت الخبر» بين يديّ أشرف ليصير صحفيّا رسميّا كما حلم دوما، وكان يكفيه أن يستجيب لما طلبه منه، وينفّذ توجيهاته، غير أنّ أشرف، كما عرفته، لا زال ذلك الفتى العنيد، الذي يفعل ما يؤمن به، ويتجنّب الإقدام على ما يناقض قناعاته، مهما كان الثمن.

أشرف صيّاد ماهر، يعرف أين ومتى يرمي الصنّارة، وعند أيّ لحظة يسحبها؟

في إحدى جلسات سمرنا بالصالون، وبينما أحكي للشلّة فصلا جديدا من فصول حكاية الأستاذ عبد الرحمن، الوافد الجديد على الحيّ، والذي صار معروفا بين الناس هنا، عبر أعمال جمعيته الخيرية «مفاتيح الخير»، انتفض أشرف من مكانه عندما أخبرتهم أنّ الأستاذ عبد الرحمن قد قرّر اعتزال عالم السياسة بعدما شرط عليه أحد مسؤولي حزبه الدفع له للحصول على تزكية وكيل اللائحة في الانتخابات الجماعية الأخيرة.

– هذا ما أبحث عنه. قال أشرف وهو يشعل سيجارة جديدة. ما يُعجبني فيك يا نبيل أنّك تجيئني دائما بالأنباء المناسبة في الأوقات المناسبة.

- أخبرنا فيما تُفكّر إذن؟ سأله عادل.
- في الأستاذ عبد الرحمن طبعا. أين يمكن أن أعثر عليه؟
- غدا الأحد، تجده غالبا بمقرّ جمعيّته. قلت له.

بعد أسبوعين تقريبا، وحملات الانتخابات التشريعية في أوج اتقادها، نشرت جريدة «صوت الخبر»، مقالا مثيرا تحت عنوان «تزكيات تُباع داخل دهاليز أحد الأحزاب». وكاتب المقال، أشرف، كما أخبرني تجنّب ذكر اسم الحزب أو اسم الأستاذ عبد الرحمن حتّى لا يبدو مقاله موّجها للنيل من سمعة حزب معيّن في فترة حسّاسة كهذه، وأنّ غايته كانت الكشف عن بعض الممارسات اللاأخلاقية التي تجري في الصالات الحزبية المغلقة بإحكام.

بعد أسبوع، شاهدنا كلّنا على شاشة التلفاز المعلّق بالركن الأمامي للصالون، صديقنا أشرف في بثّ مباشر من الرباط على قناة «دوتش فيله عربي» الألمانية، ضمن برنامج «مسائية دي دابليو»، الذي تناول نقاشا حول واقع الحملات الانتخابية الحالية بالمغرب. لسنا نحن فقط من شاهد أشرف ضيفا على قناة فضائية، بل كلّ الحيّ شاهده، والمدينة، والبلد، والعالم كلّه.

في نفس تلك الليلة جاء أشرف إلى الصالون، فاحتفلنا به بعشاء من شواء ونحن نتابع رفقته إعادة بثّ البرنامج، وننصت لتفاصيل تجربته هذه. وقد كان الأهمّ بالنسبة له أن تمّ تقديمه ضمن البرنامج كصحفيّ.

بعد المقال المثير للجدل وأصدائه التي بلغ مداها الفضائية الألمانية الناطقة بالعربية، لم يشأ رئيس تحرير جريدة «صوت الخبر» أن يدع صحفيّا طموحا وذكيّا مثل أشرف عمران ينفلت من بين أنامله صوب جريدة أو مجلّة أخرى. لذلك أعلنه رسميّا صحفيّا متعاقدا في جريدته، مع أنّ أشرف قد اشترط أنّه سيواصل عمله الأول بشركة تجهيزات المقاهي والمطاعم.

حكاية نبيل

(8)

شهريار يحكي...

عدت إلى القرية هذه المرة، بعد غياب طويل. استقبلتني أمي بكلمات معاتبة، أطلقتها صوب وجهي ما إن لُحت لها أقترب من باب الدار عبر الطريق الترابية التي كادت أن تحجبها الأعشاب المتزاحمة على طولها وعلى الجنبات، وقد أمالت حقيبة السفر المثقلة بالهدايا كتفي:

– كيف سمحت لك نفسك أيها الجحش أن تغيب عنّا كلّ هذه المدّة؟ أم أنّ فتاة من بنات المدينة قد دوّخت رأسك؟

أبتسم دون ردّ وأتركها تتناول الحقيبة عنّي، بينما تعود هي لعتابها وطرح الأسئلة، بينما والدي يقف عند باب الحظيرة يصلح بوابتها الحديديّة التي أكلها الصدأ، بضربات من مطرقته الثقيلة على كلّ اعوجاج بارز فيها.

– أنت تعلمين يا أمّي، أنّي لا أستطيع ترك الصالون كلّ مرة للقدوم. إن وجدت من يعوّضني أثناء غيابي فأنا أفعل، وحين لا أجد فأنا أحتاج إلى موافقة من ملّاكه...

أتكلّم أخيرا حتى تتوقّف أمّي عن الاستمرار في توجيه الأسئلة المعاتبة صوب رأسي، والذي لازال في دوران جرّاء الانعراجات الكثيرة للطريق، التي تخترق في شكل لولبيّ تلال غابة اكْرِيفْلَة.

توقّفت أمّي عن الكلام أخيرا، فصعدت في اتجاه الحظيرة. توقّف أبي عن ضرب الباب، أنزل مطرقته، فتقدّمت للسلام عليه.

- دعني أساعدك!

- لقد أوشكت على الانتهاء، ادخل كل لك شيئا وارتح قليلا من عناء السفر.

ابتسمت، ثمّ تبعت أمّي داخل الدار، لعلّها تجود عليّ بكوب كبير من اللبن المخيض، يشتهيه حلقي ليروي عطشه الشديد، وشوقه العنيد لمنتوجات الطبيعة البكر، بينما تبعني صوت مطرقة أبي قد عادت تردع الحديد الأعوج.

حديث أمّي الذي قصفتني ببعض منه في الصباح، لم يكن غير مقدّمة لقصف جوّي كثيف. فبينما نحن جلوس على مائدة العشاء، راحت تتحدّث بتلقائية واسترسال عن بعض بنات صويحباتها وقريباتها، ملمّحة إلى أنهن قد امتلأت أجسادهن نضجا واكتسبت أشغالهن حذاقة، وقد آن موسم قطافهن لمن يمتلك الجسارة لفعل ذلك.

واصلت قذفي بقنابل تلميحات صارت مكشوفة، بينما لم يتوان جسدي أن يقذفني هو الآخر بحمم من العرق أوشكت أن تبلّل ثيابي، ما دام هذا الحديث يتمّ في حضرة أبي الذي أخجل كثيرا من أن يتمّ الحديث عن مواضيع كهذه بحضوره. لكن أمّي بدت مصرّة إلى دفع أحدنا، أنا أو هو، للتعقيب بشيء. أدسّ اللقم بصعوبة بين أضراسي، ألوكها على مهل، ثم أبلعها مستعينا برشفة مطوّلة من كوب اللبن الكبير، بينما أبي قابل كلّ هذا الافتعال من جهة أمّي بعدم اكتراث واضح، قبل أن يتراجع إلى الخلف فاتحا الباب أمام ممرّ هوائي صار يتدفّق صوب جسدي الساخن، وأمام عيون كثيرة حول المائدة، لن تتردّد في تفحّص الانقباضات والانبساطات الطارئة على ملامحي، أخي إدريس وزوجته وأبناؤه، الذين لمحتهم يكبحون بين أسنانهم ضحكة وشيكة الانفجار.

أمضيت أيام عطلتي بالبيت متهرّبا من نظرات أمّي وكلامها المفتعل عن فتيات تضمنهنّ، كنساء بيوت جيّدات، على حسب وصفها، بينما خيالي يفرّ بعيدا، صوب حكايات تعجّ بها ذاكرتي. أفكّر قليلا ثمّ أبتسم: من أين أبدأ؟ من قصة الأستاذ حسن مع هناء، التي كادت تفقده عقله؟ أم من زواجه التقليدي من رقيّة العطار، ثمّ حبّه لها بعد العشرة وتفانيها في العطاء؟ أم أبدأ بحكاية سمير وبنت المصلوحي التي عشت تفاصيلها لحظة بلحظة، وانتهت سعيدة بعد ترقّب طويل سوء تفاهم فظيع، كنت أنا السبب فيه؟ أم من قصّة عبد الإله المنصوري بتفاصيلها المجنونة ونهايتها العجيبة؟ أم أنفض الغبار عن حكاية أشرف مع مريم، والتي تبعث وجعا إلى القلب كلّما أيقظت فصولها النائمة؟

من أين أبدأ، وأمّي تملأ حقيبة سفري كالعادة بألبان وبيض وخبز ورغيف وطنجرة من طبيخ سهرت الليل في إعداده خصّيصا لي... وتقول لي:

– حان الوقت لتتزوّج يا نبيل، إنّك في الثلاثين، تجني جيّدا من عملك، وتعيش وحيدا. تزوّج لتجد من تؤنسك وترعاك وتخدمك! لقد تكلّمت أنا وأبوك في الموضوع، هو الآخر قال لي: «لقد صار واجبا عليه الآن التفكير في الأمر.»

تذكّرت ما قلت ذات يوم لسمير: «...لكنّي في المقابل أعيش على حلمها، قصة عشق، أتخيّلها، أترقّبها، وأتوقّع حدوثها بإحساس متفائل...». قبّلت يدي أمّي وهي تناولني الحقيبة الثقيلة، قبّلت يدها وقلت لها مبتسما:

– امنحيني بعض الوقت فقط، وسيكون ما تريدان إن شاء الله.

ثمّ انتبهت أنّ أبي واقف قريبا منّا، ينصت باهتمام للحديث الدائر بيننا ويبتسم.

تمّت بعون الله

دجنبر 2016،
تمارة – المغرب
توفيق باميدا

توفيق باميدا

شهريار

يحكي ويقصّ

«في البداية تكون الحكاية، وفي النهاية أيضا. هذا ما صرت أؤمن به. وبرأسي حكايات كثيرة، خلفها تتوارى تلك التي أسميها حكايتي.

خمس سنوات تلك التي أمضيتها بهذا المحلّ، بهذا الحيّ، بهذه المدينة. خمس سنوات قضيتها مع هؤلاء الناس، مع هذه الحرفة، في هذا العالم الاستثنائي الذي جعلني أعيش بحكايات الناس وأنسى حكايتي، حتّى ظننتني شهريار زمانه، الذي يتلذّذ بسماع الحكايات قبل أن يضرب بمقصّه آخر شعرة زائدة على رؤوس زبائنه. حكايات صارت تجري جريان الدّم في شراييني، تعمر ذاكرتي، وتثير خيالي. حكايات توقظ فيك شغف الطفولة في تتبّع تفاصيل حكايات الجدّات، حين تنتصب الأذنان في انتباه، ويَسيل الفضول لعابا لا يجفّ إلا بطرح سؤال جديد، قد يُزيل بعض الغموض عن شيء مثير للاهتمام».

❖ ❖ ❖

توفيق باميدا

روائي من المغرب

- حاصل على جائزة الشارقة في الرواية، وعلى جوائز: سعاد الصباح، اتحاد كتاب المغرب، القناة الثانية المغربية، في القصة القصيرة.
- صدر له: مسافر عبر الزمن (رواية)، عينان مفتوحتان في الظلام، حين تهوي القلاع، عائد من الحرب، (قصص).

ISBN: 978-9954-701-57-7

9 789954 701577

دار الأمان للنشر والتوزيع - الرباط

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس